سلسلة الأدب

القراءة للجميع
٢٠٠٥
مكتبة الأسرة

مختارات من

الأدب القصصي

تأليف

جوزيف كونراد

ترجمة

د. لطيفة عاشور



مختارات من

الأدب القصصي

تأليف

جوزيف كونراد

ترجمة

د. لطيفة عاشور



برعاية السيدة

سوزان مبارك

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الغلاف والإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

ماجدة عبد العليم

تصدير

يضم هذا الكتاب عملين من تأليف الأديب البولندى جوزيف كونراد «١٨٥٧-١٩٢٤» هما «زنجى السفينة نرجس» و«مستعمرة للتقدم»، وهذان العملان كتبهما كونراد فى مقتبل حياته الأدبية، ويشتركان معًا فى التعرض لقضية التفرقة العنصرية ومقاومة الاستعمار، كما يقدم المؤلف فيهما وصفًا دقيقًا لأثر العوامل الطبيعية على حياة الإنسان وجهاده فى سبيل التغلب عليها، حين يدخل فى صراع مباشر مع عواصف البحار وجبروت الأدغال.

وقد أنجز جوزيف كونراد عددًا غير قليل من الروايات والقصص، هذا عدا مقالاته النثرية وخطاباته لأهله وناشريه، وقد بلغت مؤلفاته أكثر من خمسة وعشرين مؤلفًا، منها: «لورد جيم» و«تحت عيون الغرب» و«نوسترومو» و«العميل السرى» و«النصر» و«سجل شخصى» و«مذكرات عن الحياة والأدب».

أما صدى أعماله الأدبية، فقد بلغ حدًا لم يبلغه كثير من المشاهير، فقد بلغت الكتب التى تناولت أعماله بالنقد والتحليل، أكثر من مائتى كتاب.

ولد جوزيف كونراد فى برويز كسبو ببولندا، وقت أن كانت تحت الحكم القيصرى، وقد عانى كونراد كثيرًا فى طفولته بسبب نفيه هو ووالدته ووالده خارج البلاد بسبب نشاط الأب المناهض للاستعمار القيصرى، وفى يفاعته عمل بالبحرية التجارية الفرنسية، وقد أكسبته رحلاته البحرية إلى المستعمرات فى

آسيا وأفريقيا خبرة واسعة بهذه المناطق، مما انعكس على كتاباته الأدبية، فقد تغيرت تمامًا نظرته الرومانسية للبحار والعوامل الطبيعية.

وقد عانى كونراد كثيرًا من رحلاته البحرية، من هنا جاء قراره المهم باعتزال البحر والتفرغ للكتابة الروائية، ونشأ عن هذا التحول معاناة أخرى تتعلق باللغة، حيث اختار أن يكتب بالإنجليزية، التى لم تكن لغته الأم، حيث كانت أفكاره تبدأ بالبولندية ثم بالفرنسية، ويصوغها أخيرًا بالإنجليزية، ويسر مكتبة الأسرة، أن تقدم للقارئ هذا العام هذا الكتاب «مختارات من الأدب القصصى» لجوزيف كونراد، وهو من ترجمة الأديبة الدكتورة لطفية عاشور، التى بذلت جهدًا كبيرًا فى ترجمته، نظرًا لصعوبة ترجمة كونراد الذى يتمتع بأسلوب غير عادى، حيث إنه يكتب - كما تقرر المترجمة - على ثلاثة مستويات: الحرفى والرمزى والهجائى، إذ كان يهدف إلى الوصول بالنص الواحد إلى أكثر من معنى.

وقد صدرت الطبعة العربية الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٨٨.

مكتبة الأسرة

الفهـــرس

نبذة عن

جوزيف كونراد
حياته وأدبه

تُعتبر سيرة حياة كونراد فريدة لتنوع أحداثها وغرابة تجاربها - فقد ولد جوزيف تيودور كونراد نالكز كورزينيوسكى سنة ١٨٥٧ فى برويز كسيو ببولندا من أب أديب وثورى وأم تنتمى لأسرة ثرية - وكانت بولندا حينئذٍ تحت الحكم القيصرى، ويناضل أهلها فى حركات وطنية ثورية ضد هذا الحكم - وعندما بلغ الابن ثلاث سنوات نُفى والده بسبب نشاطه الثورى وتبعته زوجته وطفله إلى المنفى. وعانى الثلاثة من ظروف المنفى القاسية فتأثرت صحة الوالدين، ثم توفيت والدته وبعدها والده وهو مازال صبيًا فى الثامنة.

وهكذا عاش يتيمًا وحيدًا فى بيت خاله الثرى، وكان يقرأ بنهم كل ما تصل إليه يده - وكان والده قد ترجم أعمال أدباء مشهورين مثل شكسبير وروسو، وغيرهم. ثم سافر كونراد مع معلمه الخاص فى جولة ثقافية كبرى فى أوروبا - وفى السادسة عشرة أعلن رغبته فى العمل فى البحر - مما أدهش أهله وأثار استياءهم - ولكنهم استجابوا لرغبته فسافر إلى مرسيليا سنة ١٨٧٤ حيث تدرب، ثم عمل فى البحرية التجارية الفرنسية - وبعدها تعلم بنفسه اللغة الإنجليزية بعد أن سمعها من البحَّارة على ظهر السفن، ثم حصل فى سنة ١٨٨٦ على الجنسية البريطانية وعلى إجازة ضابط بحرى - وغير اسمه إلى جوزيف كونراد - وعمل على السفن التجارية البريطانية وغيرها فى رحلات للمستعمرات فى الشرق.

وقد أكسبته رحلاته البحرية إلى المستعمرات فى آسيا وأفريقيا خبرة واسعة بتلك المناطق وشعوبها ومستعمريها من البيض ـ كما تغيرت نظرته الرومانسية للبحر وللعوامل الطبيعية عامة ـ وحلت محلها فلسفة واقعية ـ ترى الخطر المحقق كامناً غير مرئى فى كل المظاهر الطبيعية من بخار وعواصف وأدغال ـ فأشفق على ربابنة وبحارة السفن الذين يصارعون الأنواء والعواصف فى كفاح مرير للحفاظ على سفنهم وحياتهم دون جدوى.

كما أشفق على شعوب المستعمرات الملونين بعد أن تبين حقيقة الاستعمار وأطماعه المادية وقسوة التفرقة العنصرية ـ وتدهور الرجل الأبيض صحيًا ومعنويًا إذا ما انتقل لهذه المستعمرات للكسب المادى.

ونتيجة لتعاطفه مع هذه الفئات تولى بقلمه فيما بعد مهمة الدفاع عنهم، وإعلاء صوتهم، وكان يسميهم «منْ لا صوت لهم» The voiceless.

وعانى كونراد كثيرًا فى رحلاته البحرية وخاصة رحلته الأخير ة للكونغو حيث قرر سنة ١٨٩٥ بعد مرض شديد اعتزال البحر ليصبح كاتبًا روائيًا محترفًا ـ ونشر أول رواياته سنة ١٨٩٥، وكان قد كتبها أثناء رحلاته الأخيرة. وتزوج كونراد من سيدة إنجليزية تصغره سنًا وأقل منه ثقافة وإدراكًا ـ وهكذا استمر شعوره بالعزلة رغم استقراره فى إنجلترا ـ

ولم تنته معاناة كونراد بهذا التغيير ـ إذ كان اختياره للكتابة باللغة الإنجليزية اختياراً صعبًا ـ فلم تكن كما قدمنا لغته الأم ـ وكانت أفكاره ومشاعره تبدأ أولاً بالبولندية ثم بالفرنسية، ثم يصوغها أخيرًا بالإنجليزية، وشكل هذا جهداً غير عادى بالنسبة له فى بداية حياته الأدبية ولكنه ما لبث أن تميز بأسلوب قوى معبر وغنى.

كذلك عانى كونراد من اعتماده على الكتابة فى كسب عيشه. إذ كان عليه ككاتب محترف أن يرضى القارئ الإنجليزى العادى، وكان يسميه «رجل الشارع» إذ كان هذا حينئذٍ محدود الثقافة، سطحيًا، ومغرمًا بالمغامرات المثيرة. وكان على كونراد فى نفس الوقت أن يرضى نفسه وصفوة القرّاء أمثاله ممَنْ يتذوقون

الأدب ويقدرونه كفن هادف وراق - أى أنه تحتم عليه أن يكتب على مستويين متباينين: الشعبى والراقى. وتسبب ذلك فى أحيان كثيرة فى إساءة فهم كتابته وعدم تقديرها حق قدرها. فاعتبره كثيرون كاتب مغامرات بحرية مما قلل من شأن إنتاجه لدى بعض النقاد، وسبب له ضيقًا واستياءً. إذ أخفق كثيرون فى فهم معانيه العميقة.

إلا أن كبار النقاد حينئذ أمثال هنرى جيمز وادموند جوص وغيرهم اكتشفوه منذ البداية - إذ تبينوا تميز أدبه القصصى على أدب معاصريه، وأدركوا قيمته الفنية والأخلاقية فعبروا عن إعجابهم الشديد به، وحثوا القراء على قراءة ما يكتب. ومع ذلك لم تتحقق لكونراد الشهرة والتقدير اللذان يستحقهما قبل مضى خمسة عشر عامًا على بدء كتابته وبعد أن نشر أكثر من نصف إنتاجه القيِّم.

ولم تكن عظمة كونراد ككاتب قصصى نتيجة لطفرة أو معجزة أو صدفة، كما قرر بعض نقاده من الإنجليز، بل كانت نتيجة تفان وجهد وإدراك لمتطلبات عمله كأديب ملتزم وككاتب إنسانى مجدد.

وكان قد اتخذ من كبار الكُتَّاب الفرنسيين والألمان والروس حينئذ أساتذة يتتلمذ عليهم ويحذو حذوهم فى الكتابة الفنية الهادفة - وأحاط بما وضعوه من أسس فنية وأهداف أخلاقية للأدب القصصى. كذلك قرأ كونراد لكبار الأدباء الإنجليز مثل شكسبير وديكنز وغيرهم وتأثر بما أعجبه من أعمالهم.

وقد أفاد كونراد من تجاربه المتنوعة ولقاءاته فى البر والبحر - وخاصة فى بلاد الشرق مثل الملايو وأفريقيا؛ فعرف الرجل الأبيض والملون - الخيِّر والشرير، التاجر والبحَّار - كما عرف البحر فى سكونه وهياجه - والشرق بسحره وغموضه. وشكَّل كل هذا ذخرًا غنيًا اعتمد عليه كمادة لأدبه.

كذلك أفاد كونراد من تجاربه السياسية، وفهمه لنظم الحكم المختلفة وللحركات الثورية وأسرارها.. ويشكل إنتاجه فى هذا المجال جزءا مهمًا من عمله. كما يبين عمق فهمه السياسى وصدق توقعه لما يترتب على مواقف سياسية معينة.

وقد كتب كونراد رواياته وقصصه القصيرة ومقالاته النثرية وخطاباته لأهله وأصدقائه وناشريه - دون انقطاع طوال حياته الأدبية، التى امتدت حتى وفاته سنة ١٩٢٤. ونُشرت كتاباته أما مسلسلة فى بعض الحوليات الشهيرة وأما فى مجلدات تزيد على الخمسة وعشرين كتابًا وأهم رواياته: زنجى السفينة نرجس، سنة ١٨٩٧، لوردجيم سنة ١٩٠٠، نوسترومو سنة ١٩٠٤، العميل السرى ١٩٠٧، تحت عيون الغرب سنة ١٩١١، الصدفة سنة ١٩١٣، النصر سنة ١٩١٥. ومن مجموعات قصصه القصيرة :الشباب وقصتان أخريان سنة ١٩٠٢، العاصفة وقصص أخرى سنة ١٩٠٣ ومن أعماله النثرية: سجل شخصى سنة ١٩١٢، مذكرات عن الحياة والأدب سنة ١٩٢١ ومجلدات مختلفة لخطاباته.

وقد تُوفى كونراد فى آخر مقر له بإنجلترا: أوزوالدز - بيشويزبورن قرب كانتربرى وهو فى السابعة والستين - وقد حفرت فى لوحة على قبره بساحة كنيسة كانتربرى عبارته التى وردت فى آخر مؤلفاته:

«نوم بعد مشقة. ومرفأ بعد بحار عاصفة

ويسر بعد حرب وموت بعد حياة. تجلب أعظم السرور».

والواقع أن كونراد عاش بعد وفاته فى رواياته وقصصه العظيمة - إذ جاء فى انتاجه دليل دامغ على حرصه الشديد على الإنسان. وتعاطفه العميق معه، ورغبته الملحة فى أن يكشف له الحقائق الخفية ليعينه على حياة أفضل - وكان يردد كلمات «الإنسانية المسكينة - الإنسانية العمياء». ويدعو بإصرار إلى التماسك والتعايش والتعاطف بين شعوب الأرض قاطبة.

وترجع مكانة كونراد المتميزة فى تاريخ الأدب الإنجليزى إلا أنه إذ كتب بالإنجليزية نقل إلى القصص الإنجليزى دمًا قويًا وجديدًا - وكان لكتاباته تأثير كبير على من جاءوا بعده من الكُتّاب الإنجليز.

وتربو الكتب والمقالات النقدية التى كتبت عن أدبه حتى الآن على المائتين وأغلبها يشيد بفنه وتجديده وحسه المرهف وبُعد نظره واهتمامه الإنسانى الأصيل.

وقد يكفى أن نورد هنا رأيين لناقدين مشهورين: فقد كتب عنه مورتون دوين زابل الناقد الأمريكى المشهور فى منتصف القرن العشرين وبعد ربع قرن من وفاته: «... لقد كان عظيمًا أيضًا بالتقدير الذى جاءه مبكرًا ومتأخرًا من أعظم معاصريه فى إنجلترا وأوروبا: هنرى جيمز، هـ. جـ ويلز، توماس مان وأندريه جيد وبول فاليرى. كما كان عظيمًا بالمقارنة بمعاصريه من الأدباء الإنجليز.. وإذا قيّمناه تاريخيًا بدا لنا كاتبًا إنجليزيًا ذا حجم أوروبى وعالمى...»[1].

وكتب عنه ف.ر. ليفير الناقد الإنجليزى الشهير إنه بحق من أعظم الروائيين فى اللغة الإنجليزية بل وفى أية لغة أخرى»[2].

ورغم كل هذا بقى كونراد غريبًا على كثيرين من قرّائنا وكُتّابنا - حتى بعد انقضاء أكثر من ستين عامًا على وفاته وبعد ظهور كل ضروب التقدير والإعجاب بأعماله.

ولعل هذه المختارات من أدبه تنجح فى تعريف القارئ العربى به وتقريبه لقلبه وعقله معًا.

---

(١) مقدمة لكتاب The Portable Conrad, ed. M D. Zabel
The Viking Press, New York, P. 3.

(٢) F.R. Leavis, The Great Tradition, Penguin 1966. P. 248.

مقدمة

يجمع هذا الكتاب الجزء الأول من ترجمة عملين من أعمال الكاتب القصصى الشهير جوزيف كونراد - هما رواية «زنجى السفينة نرجس» وقصة «مستعمرة للتقدم»

وقد جمعت بينهما لأسباب مختلفة منها: إنهما كتبتا فى فترة واحدة (حوالى سنة ١٨٩٦) فى مقتبل حياته الأدبية التى بدأت بظهور أولى رواياته [١] سنة ١٨٩٥ - وبالرغم من أن أحداث إحداهما تدور على سفينة بريطانية فى وسط البحار والأخرى فى مستعمرة بلجيكية وسط أدغال أفريقيا، إلا أن كلتيهما تشتركان فى تصوير اهتمام كونراد بقضايا التفرقة العنصرية والاستعمار، وأثر العوامل الطبيعية على حياة الإنسان وجهاده فى سبيل التغلب عليها. كذلك تصور كل منهما فن كونراد القصصى (فى الرواية والقصة) القصيرة واهتماماته الخاصة فى الحقبة الأولى من حياته الأدبية وخاصة إبداعه فى وصف قوة الطبيعة الغاشمة من بحار وعواصف وأدغال وتعاطفه مع مَنْ يعيشون فى كفاح دائم معها.

ولقد استغرقت ترجمة العملين مدة أطول من المعتاد بكثير لأسباب مختلفة أهمها صعوبة ترجمة أسلوب كونراد بالذات، لكونه أسلوبًا غير عادى - وخاصة فى البداية - عندما كان يكتب عن قصد أسلوبًا يتخير له بمنتهى الدقة كل كلمة وكل عبارة لتؤدى كما قال فى مقدمته المشهورة[٢] ما تؤديه الألوان عند الرسام

---

(١) Alnayer's Folly.

(٢) Preface tp the Niffer of The Narcissius'.

والأصوات عند الموسيقى... ولقد أعلن أنه يكتب ليجعلك «تسمع وترى - وفوق كل شىء ليجعلك تشعر» وقد استلزم ذلك منه تعدد النعوت والتدقيق الشديد فى وصف الحركة والصوت وتصرف الأشخاص عامة فى حديثهم أو عملهم، كما استلزم استعمال تعبيرات متخصصة كأسماء أجزاء السفينة المختلفة، وهى تربو على المئات، وليس لها فى أغلب الأحيان مرادفات عربية دقيقة - وإن وجدت هذه فإنها تكون غريبة غير مألوفة. وهناك أيضًا أحاديث البحَّارة بلغتهم ولهجتهم المميزة - كل هذا بالإضافة إلى التشبيهات البليغة العديدة المستمدة من بيئته - ولغته الأولى أولاً (البولندية) ومن البيئتين واللغتين الفرنسية والإنجليزية ثانيًا. وكلها يصعب نقلها للغة العربية لاختلاف طرق حياة مجتمع كل منهما، ومناظره الطبيعية وأساطيره.... إلخ أو بتعبير أعم لاختلاف مصادر اللغة فى كل حالة.

ومن أسباب صعوبة ترجمة أسلوب كونراد أن كتابته على ثلاثة مستويات: الحرفى والرمزى والهجائى - إذ كان يهدف للوصول بالنص الواحد إلى أكثر من معنى - وذلك بتخير ألفاظ وتركيبات معينة تؤدى هذا الغرض - ولهذا فعند الترجمة يتعين محاولة الإبقاء على التركيب اللغوى الأصلى بقدر الإمكان - حتى ولو كان هذا مغايرًا للتركيبات اللغوية فى العربية - حتى يحتفظ النص بمعناه الحرفى والرمزى معًا.

كذلك كان من الأمور التى أُخذت فى الاعتبار أن البحَّارة فى رواية زنجى السفينة نرجس يتحدثون بلهجتهم الخاصة، ويتحدث كل منهم أيضًا بهيئة تميزه عن غيره من حيث تفكيره وخلقه وبيئته الأصلية - هذا بينما تقدم القصة بحَّارًا مثقفًا مرهف الحس يتحدث بلغة سلسة راقية - ولابد بالطبع عند الترجمة من الاحتفاظ بهذه المستويات اللغوية المختلفة لأنها جزء لايتجزأ من الشخصيات المختلفة. ولهذا واجهت مشكلة ترجمة لغة البحَّارة العامية بنقلها كما هى بكل أمانة - رغم ما جرى وما زال يجرى بين الكُتَّاب والمترجمين العرب من مناقشات وخلافات فى الرأى على هذا الموضوع.

لهذا حرصت على المحافظة على طابع الحديث فى كل حالة لاقتناعى بأن لهجة المتكلم وصوته فى الفن القصصى الحديث - وفى الأسلوب عامة - أساسيان

لتصوير شخصيته ولتحديد دوره فى الرواية ومغزى هذا الدور فى التجربة بأسرها.

والواقع أن لغة البحّارة أنفسهم ليست متجانسة فهناك من يتكلمون لغة عامية أقرب للغة الدارجة، وهناك مَنْ يستعملون ألفاظًا خارجة عن المألوف بل وأحيانًا بذيئة، ولا بد من توخى الأمانة فى ترجمتها حتى ولو بدت غير مناسبة فى نص أدبى، والأصل هنا أن العمل الفنى يصور الواقع بأكمله: المهذب فيه والبذىء - والجميل فيه والقبيح... إلخ.

والخلاصة إننى توخيت كالمعتاد فى الترجمة - الأمانة التامة فى نقل النص لفظه وتركيبه وعباراته ومعانيه - حتى تجىء الترجمة صورة صادقة ومعبرة لأداء الكاتب فنيًا ومضمونًا - فليس الغرض من ترجمة نص فنى لرواية عظيمة كهذه مجرد سرد حوادثها باللغة العربية المستساغة، بل نقلها بأمانة لقراء العربية ليتعرفوا بوضوح على كاتبها بأسلوبه المميز وأغراضه الفنية والخلقية والاجتماعية - زد على ذلك تلميحاته وإيحاءاته ومعانيه الخفية التى وجهها للنخبة الذكية من قرّائه - والتى كانت هدفه الأول، ولقد بقيت هذه كلها غامضة أو مختلطة لقرّاء الإنجليزية أنفسهم وقتًا طويلاً.

ومهما قيل عن الجهد الذى بذل فى هذه الترجمة فلن يحيط به فعلاً على حقيقته ولا الصعوبات التى اكتنفت عملية الترجمة إلا مَنْ يعيش نفس التجربة بترجمة أعمال لكونراد بالدقة والأمانة والجدية والحس المرهف التى كُتبت بها هذه الأعمال والتى تستلزمها قراءتها وترجمتها - ولقد سبقتنى فى ترجمة قصة قصيرة لكونراد زميله[1] واحدة أعتقد أنها تعرف ما أعنى. ولكن مما يجزى هذا الجهد غير العادى أن نصل إلى فهم أعمق وأشمل لفن كونراد وحيله اللغوية ومعانيه الخفية، وهذه كما قلنا استعصت على كثيرين من متكلمى الإنجليزية من القراء والنقاد على السواء.

---

(١) أ.د. هدى حبيشة: «قلب الظلمات».

والواقع أن على القارئ أن يشترك اشتراكًا فعالاً فى وضع النقط على الحروف وتكملة ما ينقص القصة من وقائع أغفلها الكاتب عن قصد لتصلنا تجربتها كما تصلنا تجارب الحياة عادة - فليس كل شىء واضحًا متسلسلاً منها - ولكننا بالتدقيق والتخمين وجمع القرائن يتسنى لنا الوصول إلى الحقيقة كاملة.

كذلك قد يبدو الأسلوب على الرغم مما بذل من جهد فى جعله مألوفًا - غريبًا صعبًا للقارئ العادى المتسرع، ولكن هذا من طبيعة العمل المترجم كما قدمنا ولا حيلة لنا فيه.

لطفية عاشور

زنجى السفينة نرجس

مقدمة رواية

زنجى السفينة نرجس

ظهرت هذه الرواية فى السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر ولكنها إنتاج قصصى حديث بمعنى الكلمة، ولقد قال عنها كونراد فى المقدمة الشهيرة التى ظهرت معها والتى تُعتبر دستوره الفنى، إنها العمل الذى سيقرر نجاحه أو فشله فى المجال الأدبى.

ولهذه الرواية وجوه عدة جعلت القرَّاء والنقاد يختلفون على مغزاها وغرض الكاتب منها. فهى أولاً تصور كفاح فئة من البحَّارة المتفانين فى عملهم مع العواصف والبحار التى تهدد بالقضاء عليهم وعلى سفينتهم. وهو كفاح مستميت ينسون فيه كل شىء إلا واجبهم وسلامة سفينتهم، ومع ذلك فهم منسيون مطموسون فى عالمنا، لايحيط ببطولاتهم ويقدرها إلا مَنْ يشهدها بعينه وهؤلاء قليلون.

والبحَّارة على تنوعهم يتصفون بالسذاجة والإخلاص لعملهم والبساطة فى الحياة، ويعانون من شظف العيش من جوع وعطش وعناء طوال الرحلة حتى إذا ما وصلوا للبر تاهوا بين الجموع الحاشدة التى تشغلها صعوبات الحياة عن العلاقات الإنسانية والمبادئ الخلقية القويمة. ولهذا نراهم ينغمسون فى الشراب والملذات استعداداً لرحلة بحرية أخرى يبذلون فيها كل ما يملكون من جهد وصحة ووقت.

وتنقسم أسرة السفينة إلى بحَّارة وضباط وقبطان (وهى سفينة تجارية) وفى روايات كونراد الأخرى عن البحر يوجد أيضا ركاب السفينة.

ويشكل هذا النظام أسرة متجانسة متعاطفة. لكن القبطان - رغم إنسانيته - يحتاج أحيانًا لأن يكون حاكمًا بأمره لاينازعه أحد، حتى يحافظ على السفينة ومن عليها. وهو واجبه الأول والأخير. وهكذا يتخذ كونراد من السفينة وطاقمها وسيلة لعرض نظام حكم عملى تفرضه طبيعة البحر والسفن معًا.

كذلك تتنوع الجنسيات على السفينة فهناك الإنجليزى والأيرلندى والفنلندى والأمريكى والنرويجى والزنجى... إلخ. ولكل منهم صفات جنسه المميزة ولكنهم جميعًا بشر أمام العاصفة وخطرها المحقق. وهم جميعًا فى وقت السلم أخوة متحابون متعاطفون. ولو تشاتموا أو اختلفوا فى الرأى. وهكذا نرى السفينة بمن عليها أحيانًا كعالم مصغر متنوع الجنسيات، ولكن يوحد جهاده أنه محاط بقوى الطبيعة الغاشمة التى تسلبه الشعور بالأمن والاستقرار وتجعله دائمًا على أهبة الاستعداد.

ويواجه هذا العالم المصغر مشكلة من مشاكل العصر الملحة وهى «التفرقة العنصرية». فالسفينة بريطانية الجنسية وأغلب طاقمها إنجليز - القبطان والربان والضابط والطاهى والشحاذ المتحذلق. ويصعد إليها جيمس ويت الزنجى ليعمل كبحًار، ولكنه يواجه من أول لحظة، التحامل العنصرى من باقى أسرة السفينة وكلهم بيض. ومع هذا يصمد جيمس ويت. وهو نظيف الملبس فارع القامة واضح الحديث جهورى الصوت. ويشرح وجهة نظره للآخرين، ويتظاهر بعدم سماع همساتهم «بربرى - بربرى» بمجرد رؤيتهم له. ولكن صحته تتدهور تدريجيًا وهى فى هذا تعكس ضيقه النفسى، وشعوره بالوحدة والعزلة فى هذا المجتمع الأبيض، الذى جبل على احتقار الملونين دون مبرر أساسى سوى لونهم وسحنتهم المغايرة له. ونجد على نفس السفينة دونكن وهو طفيلى من «الكوكنى» أو العامة فى المجتمع الإنجليزى لا يملك أى ملابس أو فراش، يستجدى زملاءه ليمنحوه شيئًا مما لديهم. ثم هو قذر بذىء اللفظ حقير الهيئة سيئ النية، يستغل سذاجة زملائه من البحًارة ليثيروهم ضد رؤسائهم. وهو حاقد على المجتمع بأسره، يهرب من العمل ويقبل على الطعام والشراب، وباختصار نجده شخصًا حقيرًا. ومع ذلك فهو يفخر فى كل لحظة بأنه إنجليزى الجنسية. وهكذا نجده أقوى مركزاً من ويت الزنجى رغم مايتميز به الأخير عنه من صفات

شخصية مختلفة. وهذا يقودنا إلى لب الموضوع: التفرقة العنصرية التى لا أساس لها ولامبرر، وأثرها المأساوى على شعوب العالم الممثلة فى مجتمع السفينة نرجس.

وقد أساء البعض شرح القصة وفهمها: فأبرزوا مرض ويت على أنه خداع مقصود. وإنه هو مصدر متاعب السفينة كلها، وأنه ودونكن يمثلان الشر على السفينة... إلخ .إلخ. ولا شك أن هذا التفسير يأتى من المجتمع الأبيض الذى لاتؤثر فيه مشكلة الملونين بقدر تأثيرها على المجتمعات الأخرى. ومن أسباب الالتباس أيضًا أن كل شخص فى الرواية يذكر رأيه فى ويت، وهو رأيه الشخصى، ولكنه ليس رأى الكاتب الموضوعى، ولكن من يدقق النظر يجد أن المعتدلين ومرهفى الحس من أفراد أسرة السفينة يتعاطفون مع ويت (الزنجى) وبالتدريج يحبه باقى البحارة ويسودهم ترابط وتعاطف جميل، حتى يتدخل دونكن الحاقد من جهة - والبحار العاصفة من جهة أخرى فيؤثروا على السفينة ومن عليها - بينما يرقد ويت مريضًا فى قمرته - ويحكم عليه القبطان بالعزلة حتى نهاية الرحلة ولكن هذا لا يمنع زملاءه من البحَّارة من زيارته وحبه والتعاطف معه - هذا باستثناء دونكن الطفيلى الحقود الذى يتقرب من ويت ليأخذ منه ملابس وتبغا، وينتهى الأمر بأن يعجِّل بموته بقتل ثقته فى نفسه، ثم يسرق ماله وأوراقه الخاصة بينما باقى طاقم السفينة فى سبات عميق.

وهكذا يقضى على ويت وأساس مشكلته هو اعتزازه بنفسه والتحامل العنصرى الذى يسود السفينة والذى هو عادة مكتسبة بين طاقمها، أكثر منه تصرف واع مقصود.

ويسخر كونراد بلطف من بعض البحَّارة لنزوات تميز الواحد منهم عن الآخر - فالأيرلندى كريك (بلفاست) صبى حسَّاس للغاية، سريع التأثر، يتعاطف مع ويت إلى أقصى الدرجات (فالأيرلنديون أيضًا يعانون من مشكلة مماثلة) والطاهى الإنجليزى متدين بغباء إلى حد التزمت - لايفكر إلا فى النار والعذاب الذى ينتظر هذه الفئة الكافرة - فى نظره - من البحَّارة - ويحاول على حد تعبيره تطهير روح جيمس ويت من الإثم قبل موته - بينما الأخير يؤمل فى الحياة ويرفض تدخل الطاهى الطائش.

ومع ذلك نجد هذا الطاهى الساذج ينسى نفسه كليًا أمام الخطر المحدق بالسفينة والبحّارة ويأتى بعمل بطولى: إذ يصنع لهم قهوة ساخنة تنقذهم من هلاك محقق، وشعاره هنا هو «طول ما هى عايمة أنا راح أطبخ»، وهو شعار بسيط فى ظاهره عظيم فى مغزاه. ويمكن أن يكون مبدأ لحياتنا جميعًا ، فلا يصح أن نيأس إذا تراءى لنا الخطر، بل علينا أن نواصل العمل والجهاد ما دام أمامنا أمل ولو قليل.

والقبطان مخلص كل الإخلاص لعمله ينصرف إليه بكل جوارحه ورغم كبر سنه، لا يتوانى لحظة ولا يدخر جهدًا فى محاولة الحفاظ على السفينة ومَنْ عليها، وهى شغله الشاغل الوحيد - ولكنه مضطر بحكم ظروف عمله أن يكون - كما قدمنا - المتحكم الأول فى السفينة ومَنْ عليها وأمره لايرد - وبعد أن يصدر، متسرعًا - أمره بأن يبقى جيمس ويت فى قمرته حتى نهاية الرحلة - يتبين له أنه كان قاسيًا على ويت ويأسف لذلك، ولكنه لايستطيع الرجوع عن قراره - وهذا أمر له مغزاه فى نظم الحكم عامة وبالنسبة لشخصية القبطان خاصة. ولكنه يتأثر كالآخرين بحالة ويت ويندم على قراره فيبدو كتمثال يذرف دمعًا!!

والنظام الطبقى موجود فى مجتمع السفينة ولكن أمام الخطر يتلاشى التمييز ويقف الكل سواسية يدافعون عن مصيرهم. والطبقية على ظهر السفينة كما يبينها كونراد، ضرورة لسلامة السفينة ومَنْ عليها.

وبعد - فهذا مجرد تقديم للرواية حتى لا يلتبس الأمر على القارئ - ولكن الرواية تزخر بالمعانى والقيم الإنسانية الرفيعة - كما تزخر بشخصيات متباينة تكشف عن طبائع البشر ومشاكلهم. كما تكشف عن تعاطف كونراد مع البشر عامة وإيمانه الراسخ بأنهم كبشر يستحقون حبنا وتعاطفنا أينما كانوا ومهما ارتكبوا من أخطاء.

زنجى السفينة نرجس

(١)

انتقل مستر بيكر ـ ربان السفينة نرجس ـ بخطوة واحدة من قمرته المضيئة إلى سطح السفينة المظلم، بينما وقف أعلى رأسه فى المؤخرة ـ نوبتجى المساء يدق الجرس دقتين.

كانت الساعة حينئذٍ التاسعة، وسأل مستر بيكر الرجل الواقف أعلى السفينة: «يا ترى كل البحَّارة طلعوا المركب يا نويلز؟».

فنزل الرجل يعرج على السلم ثم أجاب وهو يفكر:

ـ «أظن كده يا سيدى فكل بحَّارتنا القدام موجودون هناك، ووصل عدد كبير من الرجالة الجدد، لازم كلهم هناك». فاستطرد مستر بيكر قائلاً:

ـ «بلغ الباشريس يبعتهم كلهم للمؤخرة، وكلف واحد من الصبيان يجيب هنا مصباح قوى، لأنى عاوز أسجل البحَّارة».

كان سطح السفينة مظلمًا عند المؤخرة، ولكن فى منتصف الطريق إلى المقدمة انبعث شعاعان قويان من الأبواب العليا، فبددا ظلام الليل الصامت المخيم على السفينة ـ وسمع على بعد دوى أصوات بينما ظهرت على الجانبين ـ يمينًا ويسارًا، أشباح رجال يتحركون فى الممرات المضيئة ـ كانت أشباحًا سوداء حالكة ـ لا سمك لها ـ كأنها صور من الصفيح.

كانت السفينة قد تهيأت للإبحار - وكان النجار قد دق الوتد ليسد منافذها - وبعد أن ألقى بمدقه أرضًا أخذ يجفف عرق وجهه فى تؤدة - ومع دقات الساعة الخامسة كانت جميع طوابق السفينة قد كنست، وتم تشحيم الرافعة وإعدادها لجذب المخطاف - أما حبل القطر فقد كان ملقى فى طيات واسعة بمحازاة الطابق الرئيسى للسفينة، وقد رفعت إحدى نهايتيه وعلقت على المقدمة فى انتظار الرفاص، الذى يقبل عادة بصفيره وضجته ودخانه الحار - فيبدد صفو الصباح المبكر وهدوءه وبرودته.

وعلى الشاطئ وقف القبطان يتعاقد مع بعض العمال الجدد ليستكمل طاقم البحارة. أما ضباط السفينة فبعد أن أنهوا عمل اليوم ابتعدوا عنها ليروحوا عن أنفسهم قليلاً.

وبعد الغروب بقليل بدأ البحَّارة الجدد المسرحون يقبلون فى قوارب ساحلية يقودها آسيويون فى ملابس بيضاء. وكان أولئك يصيحون بعنف مطالبين بأجورهم قبل أن يصلوا إلى جانب الصقالة.

وتصارعت اللغة الشرقية بنبراتها الحادة وحماسها مع اللهجات المتعجرفة الصادرة من البحَّارة الثملين، الذين كانوا يعترضون بصيحاتهم وشتائمهم البذيئة على تلك المطالبة الجريئة والآمال الخادعة.

وهكذا تبدد صفو ليل الشرق المرصع بالنجوم، بدده نباح ونحيب على مبالغ تافهة تتراوح بين خمس آنات وربع روبية - وأدرك كل ركاب السفن الراسية فى ميناء بومبى أن العمال الجدد فى طريقهم إلى السفينة «نرجس».

وخفتت هذه الضوضاء المثيرة تدريجيًا - ولم تعد القوارب تصل فى مجموعات ثلاث أو أربع معًا، بل عاد كل قارب على حدة، بين طنين خافت من الاعتراضات - وتوقفت هذه الاعتراضات أخيرًا عند حدها بالكلمات:

«ولا فلس واحد زيادة - روح فى داهية!» وهى كلمات نطق بها رجل يصعد سلم السفينة متعثرًا - كان رجلاً أسمر يحمل على كتفه كيسًا طويلاً.

وعند مقدمة السفينة عقد القادمون الجدد، الذين وقف بعضهم منتصبًا، وتعثر البعض الآخر فى الصناديق المربوطة بالحبال، أو فى حزم الأغطية - عقد هؤلاء صداقات مع العمال القدامى، الذين جلسوا فى صفين من الأسرة المزدوجة - واحد فوق والثانى تحت - جلسوا جميعًا يتفرسون فى زملائهم الجدد بنظرات جمعت بين الود والنقد.

وارتفع مصباحا منارة السفينة إلى أعلى، فعكسا ضوءًا قويًا ساطعًا - ودفع البحَّارة بقبعات الشاطئ المقواة إلى مؤخرة رءوسهم، بينما تركها بعضهم تتدحرج على ظهر السفينة بين السلاسل والحبال - وحلوا ياقاتهم البيضاء فظهرت إلى جانب وجوههم الحمراء - وتحركت سواعدهم الطويلة فى أكمامهم البيضاء - واختلط طنين أصوات المتذمرين مع الصيحات العالية والنداءات الجشاء: «تعال هنا يا بُنى! خد السرير ده.. ماتصلحوش.. إيه آخر مركب اشتغلت عليها؟.. آه أنا عارفها.. من تلات سنين فى «بوجيت ساوند».. خد بالك.. السرير ده مش كويس.. الميه بتوصل له.. تعال ساعدنا فى رفع الصندوق دا.. يا ترى يا أعيان الساحل جبتو لنا مشروب؟.. هاتوا شوية دخان.. أنا عارفها.. ربانها سكر لغاية مامات.. كان جدع عايق.. وكان بيحط ريحة كتير.. لا يا جدعان.. مافيش لزوم للعراك.. ويكون فى علمكم أنتم فوق مركب أصحابها بياخدوا من البحَّارة المساكين قد الأجرة اللى بيدفعوها لهم - ياللا....!».

وهنا سمع أحدهم، وكان ضئيل الجسم - يدعى كريك ويُلقب بلفاست، سمع وهو يقذع فى سباب السفينة، ثم ينتقل للتغنى بالمبادئ فيتيح للبحَّارة الجدد موضوعًا للتفكير. أما آرتشى فقد جلس منحرفًا على صندوق، وأدار ركبتيه بعيدًا عن المارة - وبدأ يحيك بإبرته رقعة بيضاء فى سروال أزرق.

واختلط الرجال ممن يرتدون سترات سوداء وياقات منشاة، بغيرهم من حفاة الأقدام وعراة السواعد، فى قمصان ملونة تكشف عن صدورهم الكثة الشعر. وتزاحموا جميعًا يدفعون بعضهم بعضًا نحو كبائن البحَّارة فى مقدمة السفينة.

ولوحت الجموع وهى تترنح وتدور حول بعضها كأنها فى شجار حاد، وقد احتوتها سحب من أدخنة التبغ. كان الكل يتكلمون فى نفس واحد وتتخلل الشتائم كلامهم.

ونظر فتى فنلندى روسى إلى أعلى بعينين حالمتين تغطيهما خصل شعره المتهدل، وكان يرتدى قميصًا أصفر بخطوط وردية - بينما اشترك إسكندناويان فى تنظيم فراشيهما وهما يبتسمان. كانا عملاقين حديثى السن - لهما وجهان ناعمان كوجوه الأطفال - وكانا يبتسمان فى هدوء وهما يستمعان لعاصفة من الشتائم الهزلية التى لا مغزى لها.

أما العجوز سنجلتون - أكبر بحّارة السفينة المحنكين سنًا - فقد جلس وحده فوق ظهر الكاورتة تحت ضوء المصابيح - جلس عاريًا حتى الوسط - وقد بدا بالوشم الذى يغطى صدره وعضلات كتفيه الضخمة - بدا كأنه شيخ القنابلة. وكان جلده الأبيض يلمع بين الزخارف الحمراء كالحرير الأطلسى. كان مستندًا بظهره العارى إلى أسفل سارى المقدم - وقد أمسك كتابًا على بعد ذراع من وجهه العريض المصبوغ من الشمس.

وكان بنظارته ولحيته البيضاء الوقورة يشبه الزعيم المحنك لقبيلة بربرية. وبدا كأنه تمثال لحكمة البربر يصغى فى هدوء وصفاء إلى صخب العالم وسبابه وكفره. كان مستغرقًا فى القراءة بكل جوارحه - كلما قلب صفحة جديدة انعكست على وجهه المجعد علامات الدهشة والجدية والاهتمام. كان يقرأ «بيلام». ولعل شهرة (بالوار ليتون) ورواج مؤلفاته بين بحّارة السفن المتجهة جنوبًا ظاهرة عجيبة ومدهشة. تُرى ما الأفكار التى تثيرها جمله المصطنعة المنمقة فى العقول الساذجة لهؤلاء الأطفال الكبار - هؤلاء الذين كتبت عليهم الحياة فى تلك الآفاق المظلمة غير المستقرة من العالم؟ أى معنى يمكن لنفوسهم الغشيمة أن تتبينه فى التعبيرات المنمقة التى يقرءونها فى صفحاته؟ وأية إثارة - بل أى نسيان وأى تسكين؟ حقًا إنه لغز غامض. لعلها جاذبية الغموض أو سحر الممنوع - أو لعل هذه المخلوقات التى تعيش بعيدًا عن دوامة الحياة تنتشى بقصصه نشوتها بالتطلع فى عجب إلى عالم برّاق - يقع بجوار مناطق الدنس والفجور، ويتاخم

عالم القذارة والجوع الذى لا يتلوث أبدًا - كان هذا هو المصدر الوحيد لمعلوماتهم عن الحياة - والبقعة الوحيدة التى يرونها من الأرض المحيطة بهم - هؤلاء الناس من حبيسى البحر مدى الحياة.... ياله من لغز محير غامض!!

جلس سنجلتون العجوز دون حراك - سنجلتون الذى أبحر أول رحلة له إلى الجنوب فى الثانية عشرة من عمره - ولم يقض فى البر فى الخمس والأربعين سنة الأخيرة - كما يتبين من أوراقه - سوى أربعين شهرًا... كان سنجلتون العجوز يفخر بروح السكينة التى أضفتها عليه السنوات الطوال التى قضاها فى البحر على خير وجه - كما كان يتباهى بأنه كان يقضى أجازاته على البر بين رحلة وأخرى، وهو فى حالة سكر لا يستطيع فيها أن يميز بين الليل والنهار. وها قد جلس الآن دون أن يتأثر بتلك الأصوات والصيحات الصاخبة. جلس يتهجى فى كتابه «بيلام» بجهد وتؤدة، وقد استغرق فى تفكير عميق وكأنه فى غيبوبة - كان يتنفس بانتظام - وكلما قلب صفحات الكتاب بيديه الضخمتين السمراوين انزلقت عضلات ذراعيه القوية تحت جلده الأبيض الناعم - وكانت شفتاه المختفيتان تحت شاربه الأبيض تتحركان فى همس، وقد اصطبغتا برحيق التبغ الذى كان يسيل على لحيته البيضاء. أما عيناه الغشماوان فكانتا تحملقان من خلف نظارة متألقة لها حافة سوداء.

وجلست قطة السفينة مواجهة له وفى مستوى نظره - جلست على برميل الرافعة ترمش بعينيها الخضراوين نحو صديقها العجوز - كانت أشبه بوحش غريب الخلقة يجلس القرفصاء - وبدت كأنها تفكر فى القفز إلى حجر هذا الكهل، عبر ظهر البحّار، الذى كان يجلس منحنيًا عند قدمى سنجلتون.

كان البحّار شارلى نحيفًا ذا عنق طويل - تبرز نتوءات عموده الفقرى من تحت قميصه كسلسلة من التلال الصغيرة - وكان يستند بوجهه على ركبتيه النحيلتين. كان له وجه صبى الشارع - يبدو ناضجًا فطنًا رزينًا، وعلى جانبى فمه الواسع النحيل تمتد خطوط عميقة نحو ذقنه. كان يتدرب على ربط عقدة المرسى بقطعة من حبل قديم. وظهرت قطرات العرق بجلاء على جبهته البارزة وهو يزفر بقوة بين الفينة والفينة - وينظر من ركنى عينيه الحائرتين إلى البحّار العجوز.

وكان الأخير مستغرقًا فى القراءة لدرجة أنه لم يلحظ الصبى الحائر وهو يتمتم حانقًا أثناء عمله.

وتزايدت الضوضاء ـ وبدا بلفاست الصغير على السطح فى القيظ الشديد وكأنه يغلى من الحنق ـ كانت عيناه ترقصان ـ ووجهه الأحمر المتوهج يثير الضحك كالوجه المستعار. وكان فمه يتثاءب بحركات غريبة. ووقف مواجهًا له رجل نصف عار يمسك بجانبيه، ويميل للخلف ضاحكًا وقد تبللت رموشه. وحملق آخرون بعيون ملؤها الدهشة ـ وكان الرجال يجلسون أزواجًا فى أسرتهم العليا ويدخنون غليونات صغيرة، وقد تدلت أقدامهم العارية السمراء فوق رءوس غيرهم ممن تمددوا على صناديقهم، ينصتون، ويبتسمون، بغباء تارة، وبازدراء تارة أخرى. وبرزت من فوق حواف الأسرة البيضاء رءوس بعيون تنظر خلسة ـ بينما توارت أجسامها فى ظلام تلك الأماكن التى كانت أشبه بصفوف ضيقة للتوابيت، فى مدفن مضاء ومطلى باللون الأبيض.

وعلا طنين الأصوات ـ فجمع آرتشى شمله وقد زم شفتيه، فبدا كأنما انكمش فى حيز أضيق، وواصل حياكته بنشاط فى دأب وهدوء. وصرخ بلفاست كأنه متصوف نزل عليه الوحى: «.. وكلمته كده... قلت له... أنا بنفسى يا جماعة قلت...: «لامؤاخذة يا سيدنا؟، قلت الكلام ده للضابط الثانى على المركب: لا مؤاخذ... ذ... ة.. يا سيدى... لازم أعضاء مجلس البحرية كانوا سكرانين لما أعطوك شهادتك!» فرد على بسؤاله «بتقول إيه انت...؟») وقرب منى ذى السطور المجنون.... وكان لابس هدومه البيضا... فرحت قالب القطران على وشه الجميل وبذلته الوجيهة... قلبته وأنا باقول: خد!.. على كل حال أنا بحار ـ أما أنت فجاسوس بتمسح جوخ للريان ـ ومالكش فايدة ولا عمل إلا رفع الكوبرى..) وبعدين زعقت فيه: «عرفت أنا مين؟» يا ريتكم شفتوه. وهو بيتنطط يا أولاد.... وهو غرقان فى القطران لدرجة العمى! أما كان حتة منظر!! وبالطريقة دى...» فقاطعه آخر صائحًا: «اوعوا تصدقوا كلامه.... ده عمره ما قلب قطران فى حياته...» وجلس النرويجيان على أحد الصناديق جنبًا إلى جنب. كانا متشابهين فى سكونهما وكأنهما زوج من طيور الغرام على غصن شجرة.... وكان يحملقان

ببراءة بعيونهما المستديرة. أما الروسى الفنلندى فلم يأت بحركة واحدة وسط هذا الصخب من الصيحات المتفجرة والضحكات المتتابعة - بل بقى مكتفًا خاملاً كأنه رجل أصم، فقد عموده الفقرى - وإلى جانبه جلس آرتشى يبتسم وهو يحيك بإبرنه.

وبعد أن هدأ الصخب قليلاً ظهر رجل جديد عريض الصدر، متزن النظرات - ووجه حديثه عامدًا لبلفاست: «أنا باتعجب إزاى ضباط السفينة هنا عايشين ومثلك على ظهرها!! لابد أن معاملتهم تحسنت كثيرًا بعد ما روضتهم أنت يا بنى!!» فرد بلفاست بصوت عال: «لا بأس بهم... لا بأس بمعاملتهم طول ما إحنا متحدين... لا بأس... هم لا يسيئون لنا إلا إذا وجدوا الفرصة. الله يلعن قلوبهم السوده....» كان يرغى ويزيد وهو يحرك ذراعيه... وفجأة ابتسم ابتسامة صفراء، وأخرج من جيبه قطعة من التبغ الأسود، وأخذ يقضم منها بوحشية تثير الضحك. وتدخل عامل آخر مستجد، له عينان زائغتان ووجه أصفر نحيل - (وكان قد أنصت للحديث فاغرًا فاه بجانب صندوق الذخيرة) - فقال فى صوت مبحوح «يا إخواننا دى رحلة العودة على كل حال.. وسواء أحسنوا أو أساءوا معاملتنا فأنا مستعد لتحمل كل شىء مادمت راجع لبيتى وبلدى - وفى الساعة دى أقدر أطالب بحقوقى وأحافظ عليها... وبكره أوريهم!!».

وهنا اتجهت كل الرءوس نحوه، ماعدا البحّار العادى والقطة - فلم يعيراه انتباها - كان يقف معقود الذراعين - وكان ضئيل الجسم، ذا أهداب بيضاء، وبدا كأنه خبير بكل ضروب الإساءة والإهانة - كأنما قد جرب اللطم والركل والدفع فى الوحل، وعانى الأمرين من الخدش والبصق والرجم بأقذع القاذورات... كان يبتسم للوجوه التى حوله ابتسامة الآمن المطمئن وقد انثنت أذناه كأنها تنوء بحمل قبعته الثقيلة المقواة - وتدلت الأطراف البالية من معطفه الأسود على بطنى ساقيه كأنها فرنشة، وعندما حل الزرارين الباقيين فى المعطف تبين الجميع أنه لا يلبس قميصًا تحته - كان يلبس خرقًا بالية لا يعقل أن تنتمى لإنسان، ومع ذلك ولسوء حظه بدت عليه كالمسروقة أو المستعارة. وكان عنقه طويلاً ونحيفًا، وجفونه حمراء وتحيط بفكيه شعيرات قليلة. أما كتفاه فكانا مدببين ومنحنيين

كأنهما جناحان مكسوران. وكان جنبه الأيسر ملطخًا بالوحل، فجاء هذا دليلاً قاطعًا على أنه كان مستلقىً منذ قليل فى حفرة رطبة.

كان قد أنقذ جسمه الهزيل من هلاك محقق بأن هرب من سفينة أمريكية تجرأ على التعاقد معها فى لحظة طيش وذهول. وبعد هروبه هام على وجهه على البر فى الحى الوطنى لمدة أسبوعين قضاهما وهو يتضور جوعًا ويستجدى الشراب ـ ينام على أكوام القمامة ويتسكع أثناء النهار ـ كان زائرًا مرعبًا من عالم الأهوال.

وخيم عليه سكون مفاجئ وهو يقف بمظهره الكريه مبتسمًا. كان قد اتخذ ركن البحَّارة الأبيض النظيف مأوى له، يستطيع أن يتكاسل ويتمرغ عليه ـ ينام ويأكل ويلعن ما يتناول من طعام، ويكشف عن مواهبه فى تجنب العمل وفى الخداع والتسول، وهو واثق دائمًا من أنه سيجد عليه رجالاً يتملقهم، وآخرين يشاغبهم ويتوعدهم، كما كان واثقًا من أنه سيتقاضى أجره كاملاً رغم هذا كله.

وكان الجميع يعرفونه ـ فما من بقعة على الأرض تجهل مثل هذا الرجل ـ والواقع أن بقاء أمثاله فى الدنيا يدعو للتشاؤم ويقوم دليلاً على أبدية الكذب والوقاحة. وكان يرقد على أحد الأسرة بحَّار عجوز صامت ـ طويل الذراعين ومقوس الأصابع ـ كان يرقد على ظهره وهو يدخن ـ ثم استدار فى سريره ليلقى عليه نظرة فاحصة ـ وبعد لحظة بصق لعابه الرائق من فوق رأسه جهة الباب.

كان الكل يعرفونه ـ فهو الذى لا يستطيع توجيه الدفة، ولا يعقد عقدة، ويتهرب من العمل فى الليالى المظلمة، وإذا صعد إلى أعلى السفينة تشبث بها كالمجنون بذراعيه وساقيه، وهو يسب الريح والمطر والبرد والظلام. وهو الذى يلعن البحر حينما يعمل الآخرون ـ وهو آخر من يخرج وأول من يعود عندما يدعى الجميع للعمل ـ وهو الذى يدعى العجز عن أداء أغلب الأعمال ويحجم عن أداء الباقى. نراه يتقرب من كل محبى الخير والإنسانية، وممن يجهلون حياة البحر والسفن، ومن يؤثرون من يتملقهم ـ وهو متعاطف، يعرف كل شىء عن حقوقه، ولا يعرف شيئًا عن العوامل التى تؤلف بين قلوب طاقم السفينة،

كالشجاعة والصمود والإيمان والتفانى والإخلاص. وهو وليد الإباحية التى تنمو فى الحوارى، والتى تستخف بروح التبعية المطلقة للبحر، وتحقد عليها.

وصاح أحدهم فى وجهه قائلاً: «اسمك إيه؟» فأجاب مبتهجًا وهو ينظر حوله بوقاحة: «دونكن» وسأله صوت آخر: «وما عملك؟» فأجاب فى لهجة قصد بها أن تكون حارة ولكنها جاءت وقحة: «أنا بحَّار زيك يا عجوز». فجاء تعليق الأول فى همهمة تشف عن اقتناعه بما يقول: «أنا أتحدى اللى يختلف معاى فى أن منظرك أسوأ من راجل المطافى المغلوب». وهنا رفع تشارلى رأسه وقال بصوت جرئ «أهو إنسان وبحَّار على كل حال» ثم مسح أنفه بظهر يده وانحنى ليعاود العمل بجد فى قطعة الحبل. فضحك بعض الرجال، وبحلق آخرون فيه بنظرات ملؤها الشك. وأثار ذلك حنق الضيف المهلهل فزمجر قائلاً: «طريقة جميلة لاستقبال زميل على المركب - أنتم رجاله والا شلة برابرة متوحشين؟» فبقفز بلفاست إلى الأمام وصاح فى لهجة جمعت بين الود والتهديد: «يازميلى مافيش داعى تزعل وتقلع قميصك على كلمة!» فتساءل خيال المآتة (الذى لا يقهر) وهو ينظر فى دهشة مصطنعة يمينًا وشمالاً: «الجدع اللى هناك ده أعمى والا إيه... هوه مش شايف إنى ماعنديش قميص؟» قالها وقد عقد ذراعيه أمام صدره وأخذ يهز الخرق البالية المعلقة على هيكله بطريقة مؤثرة. ثم استرسل بصوت عال: «وسبب ده كله هم (اليانكيز) الأمريكان الملاعين اللى حاولوا أن يفتحوا بطنى لما دافعت عن حقوقى كأى إنسان محترم - قلت لهم (فليكن فى علمكم إنى إنجليزى). فهاجوا على وخلونى أهرب. آهو ده السبب. انتو ماشفتوش طول عمركم راجل غلبان؟ يا إلهى. إيه المركب اللى تكسف دى؟ أنا حاطق من الفقر - ماعنديش حاجة خالص. لا شنطة ولا سرير ولا بطانية ولا قميص - ولا أية خرقة غير اللى على. يا ترى حد فيكم عنده شفقة يشحت بنطلونه القديم لزميله؟».

وهكذا عرف كيف يؤثر على غرائز تلك الجماعة البسيطة فاستحوذ فورًا على عطفهم وحنانهم، وهم ينظرون أما ضاحكين أو محتقرين أو عابسين. وجاء هذا العطف أول الأمر على صورة بطانية ألقيت إليه وهو واقف فى خرقه

السوداء البالية التى كانت تكشف عن ساقيه وساعديه البيض ليثبت انتماءه لبنى الإنسان. وتبع البطانية حذاء قديم سقط على قدميه الموحلين، ثم سروال مطوى ومثقل ببقع القطران وقد ألقى به صاحبه فالتف حول عنق دونكن - وأثارت موجة الخير هذه فى نفوسهم المتشككة حالة عاطفية، فتأثروا لاستعدادهم للترفيه عن زميل بائس. وقالوا بصوت عال: «حانعطيك اللى لازم لك - ياعجوز» وهمهم البعض «عمرى ما شفت بؤس بالشكل ده... أما شحات مسكين صحيح...... أنا عندى فانلة قديمة... يا ترى تنفعك دى؟... خذها يا زميلى...» وامتلأ طابق البحّارة بهذه الهمسات بينما كان دونكن يتحرك بقدميه الحافيتين ليجمع هذه الأشياء فى كومة وينتظر مزيدًا منها. وساهم آرتشى غير العاطفى فى الكومة بطاقية ممزقة من الأمام.

ولم يكترث العجوز سنجلتون بما كان يجرى حوله، بل واصل قراءة قصته، وكان مندمجًا فيها بكل جوارحه. وصاح تشارلى بصوت رفيع وقد جردته حكمة الشباب من الشفقة:

- إذا كنت محتاج لزراير نحاس لهدومك الجديدة فعندى لك زرارين!

وهنا لوح المخلوق القذر - الذى كان موضع أريحية الجميع بقبضة يده نحو الصبى وهو يقول: «أنا حاخليك تنظف الطابق ده كله يا عيل».. ثم استرسل بلؤم «ما تخافش أبدًا. أنا حاعلمك إزاى تكون لطيف مع بحار شاطر زيى».. يا حمار.. يا جاهل..» وحملق فيه مهددًا، ولكنه رأى سنجلتون يطوى كتابه فتتقل بعيون كالخرز من سرير إلى آخر. وعندما قال له بلفاست مقترحًا: «حقك تأخذ السرير المجاور للباب هناك» وافق وجمع الصدقات الملقاة بجوار قدميه وضمها فى حزمة إلى صدره، ثم التفت فى حذر إلى الروسى الفنلندى الذى كان يرمقه بنظرات زائغة وهو واقف على أحد الجانبين، ولعله كان يفكر فى أحد الأشباح الغريبة التى تقلق بال بنى جنسه. وقال له ضحية الأمريكان القساة: «ابعد من طريقى يا ألمانى!» ولكن الفنلندى لم يتحرك لأنه لم يسمع شيئًا، فصاح الآخر وهو يدفعه جانبًا بكوعه: «ابعد عن طريقى.. الله يلعنك - ابعد يا أعمى: يا أطرش.. يا غبى.. من طريقى!» وهنا تراجع الرجل فى دهشة، ثم أفاق من ذهوله

ليبحلق فى محدثه دون أن ينطق بكلمة واحدة. فالتفت دونكن إلى باقى البحَّارة وقال متلطفًا فى لهجته العامية: «الأجانب الملاعين دول لازم يسكنوا تحت. لأنهم إن ماعرفوش مركزهم حايعاملونا الند للند ـ كأن مافيش فرق بيننا وبينهم». ثم ألقى بكل ما يملك فى الدنيا إلى سريره الخالى. ودار بنظره حوله ليرى ما قد يتمخض عنه الموقف من أخطار، وأخيرًا قفز نحو الفنلندى الذى وقف شارداً مكتئبًا، وصاح فيه قائلاً: «أنا حاوريك إزاى تتنفخ علينا ـ حاطلع عينيك يا اسكندناوى يا ملعون!».

كان الرجال قد آووا إلى فراشهم، فوقف الاثنان وحدهما على طابق البحَّارة ـ ولفت تطور دونكن المعدم أنظار الآخرين، إذ كان يرقص فى أسماله البالية أمام الفنلندى المندهش، فصاح واحد أو اثنان منهم مشجعين «خش عليه يا جدع!» وكانا قد اتخذا فى فراشيهما وضعًا يسمح لهما بتتبع المعركة. وصاح آخرون: «سيبكم من الخناق وهدوا نفسكم..».

وهكذا بدأ الهرج من جديد. وفجأة سمعت من على سطح السفينة العلوى طرقات قوية دوت كأنها طلقات من مدفع صغير نفذت إلى عنبر البحَّارة ـ ثم ارتفع صوت رئيس البحَّارة عند الباب وهو يتحدث بلهجة الآمر: «سامعين يااللى تحت ـ انزلوا لمؤخرة المركب لنسجل كل العمال!» وتبعت ذلك فترة سكون ودهشة، ثم قفز الجميع من أسرتهم إلى الأرض حتى غطوا طابق البحَّارة بأقدامهم ـ كانوا يسيرون حفاة الأقدام على الألواح الخشبية ويبحثون عن طواقيهم تحت البطاطين التى ألقوا بها على الأرض.. وكان البعض يربطون أحزمتهم وهم يتثاءبون ـ وألقى آخرون غلايينهم فى عجلة على الأرض الخشبية أو أخفوها تحت الوسائد قبل أن ينتهوا من تدخينها. وعلت أصوات ممتعضة: «فيه إيه هناك؟ إحنا مالناش حق فى الراحة؟» وهتف دونكن: «إذا كان ده نظام المركب دى فعلينا إحنا نغيره كليا.. سيبونى أنا اتكفل لكم بالحكاية دى». وبعد لحظة «حا أ...» ولم يلحظه ولا واحد منهم فقد كانوا يندفعون للمرور من الباب مثنى وثلاث، على طريقة بحَّارة السفن التجارية الذين لا يعرفون كيف يخرجون من الباب بنظام كأهل البر. وتبعهم دونكن رائد التغيير! وأخيرًا جاء سنجلتون وهو

يرتدى معطفه. كان بقامته الطويلة مثل أب يرفع رأس حكيم محنك فوق جسم بطل رياضى مسن، ولم يبق فى المكان المضىء الخاوى سوى آرتشى الذى جلس وحده بين صفين من السلاسل الحديدية الممتدة إلى الممر الضيق المظلم فشد طرفى الحبل محاولاً الانتهاء من العقدة، وهب واقفًا وألقى بالحبل إلى القطة، ثم تقدم قفزًا خلف القطة السوداء التى كانت تخطر فى أناة فوق ضاغطات السلاسل، وترفع ذيلها إلى أعلى كأنه صارية صغيرة سوداء.

وبعيدًا عن طابق البحَّارة الهائج المائج كان الليل بصفائه وهدوئه يسدل على البحار غلالة من نسماته الملطفة ونجومه العديدة المتألقة، بينما ظهرت الصوارى محاطة بسحب رقيقة من الغبار المضىء. وعلى جانب المدينة كانت انكسارات الضوء تتغلغل فى المياه السوداء الداكنة فتبدو وكأنها خيوط عائمة، مثبتة فى الشاطئ. وتألقت على بعد صفوف أخرى من الأنوار علقت بين المبانى الضخمة كأنها موكب استعراضى.

أما الجانب الآخر من المياه فقد بدت عليه سلاسل التلال السوداء الكئيبة كأنها أقواس عالية تشرف عليها هنا وهناك رءوس نجوم تهوى كالشرر إلى الأرض.

وعلى بعد، على الطريق إلى «بايكولا» كانت المصابيح الكهربائية عند بوابات المرفأ تسطع على قمم أعمدة عالية بضوء قارس يخطف البصر، وكأنها أشباح أسرتها أقمار الشر.

وكانت السفن الراسية المبعثرة هنا وهناك تطفو على سطح المرفأ الأسود اللامع فى سكون تام تحت بصيص خافت من ضوء المصابيح فتبدو أكبر حجمًا، ضخمة ومعتمة كمبان أثرية غريبة، هجرها سكانها لتبقى فى سكون أبدى.

وكان مستر بيكر واقفًا أمام باب قمرته يستعرض البحَّارة الذين أقبلوا نحوه يتعثرون ويتمايلون، وقد بسط أمام وجهه المستديم العريض ورقة بيضاء، وبجوار كتفه وقف صبى يغالب النعاس، ويحمل مصباحًا مضيئًا فى نهاية ذراعه الممتد إلى أعلى.

وقبل أن تهدأ أصوات زحف الأقدام الحافية على طوابق السفينة بدأ وكيل الربان فى نداء الأسماء؛ كان يقرأ بوضوح وبلهجة حادة تتناسب مع ندائه هذا - فقد كان يناديهم للانخراط فى نظام صاخب، وصراع خفى، لا روعة فيه ولا هوادة، صراع بعيد عن الشهرة والنصر، يتطلب احتمالاً مريرًا لما فيه من واجبات مضنية وحرمان من ملذات الحياة.

وكان كلما قرأ اسمًا يرد عليه أحد الرجال قائلاً: «نعم يا سيدى» أو «هنا» ثم ينسحب من زمرة الرءوس الحالكة المتجمعة فوق مؤخرة السفينة المظلمة، ويخطو حافى القدمين إلى حلقة الضوء ثم ينضم إلى مجموعة الأطياف المتحركة. كانوا يردون بلهجات متنوعة: بهمهمة غليظة، أو بجلجلة واضحة، أو بحدة واستياء، كأنما يرون فى هذه العمليات جرحا لشعورهم - ذلك لأن النظام على السفن التجارية لا يعرف الروتين ولا التكلف، والشعور بتدرج السلطات ضعيف أو فى حكم العدم، فالكل يرون أنفسهم سواسية أمام عظمة البحر ونداء الواجب.

وواصل مستر بيكر نداءاته بنفس اللهجة: «هانسن - كامبل - سميث - واميبو - هيه واميبو لماذا لا ترد؟ دائمًا تضطرنى أن أقرأ اسمك مرتين».

وأخيرًا رد الفنلندى بصوت أجش، ثم خطا بعيدًا، بضخامته وغرابته، نحو البقعة المضيئة وكأنه شخص يسير فى نومه. وأسرع الربان فى القراءة: «كريك - سنجلتون - دونكن.. يا إلهى!!» أضافها مضطرًا عندما ظهر فى النور المخلوق المهلهل بصورة لا يصدقها العقل. كان قد وقف قليلاً ثم كشر عن نابيه فظهرت لثته الباهتة - وسأل مستر بيكر بحقد ووقاحة: «شايف فى شىء مش عاجبك يا حضرة الربان؟» وأعقبت ذلك ضحكات مكتومة على جانبى الطابق - ثم زمجر مستر بيكر قائلاً: «ده كفاية روح من هنا». وأخذ ينظر بإمعان بعينيه الزرقاوين إلى البحَّار الجديد.

واختفى دونكن فجأة من النور ليلحق بمَنْ سبقوه من الرجال ويجد مَنْ يضربه بخفة على كتفيه أو يهمس إليه مشجعًا. كانوا يهمسون فيما بينهم حولهم: «ده مابيخافش من حد» حا تشوفوا حا يمسخرهم إزاى - حنتمتع دايمًا باستعراض مضحك. شفتم الربان اتخض إزاى لما شافه.. صحيح أنا عمرى ما شفت..».

كان آخر رجل قد مر أمام مستر بيكر، وتبعت ذلك فترة سكون بينما كان الربان يدقق النظر فى الكشف ويهمهم «ستة عشر، وسبعة عشر..» ثم قال بصوت عال: «ناقص بحَّار واحد» فرد عليه الرجل الواقف بجواره وكان يشبه الإسبان بضخامته ولونه الأسمر ولحيته المرسلة: «أنا لم أترك أحدًا فى المقدمة يا سيدى - أنا دورت فى كل مكان - على أية حال هو مش على ظهر المركب دلوقتى، ولا يمكن أن يوصل قبل الفجر» فقال مستر بيكر معلقًا: «نعم يمكن أن يوصل ويمكن ما يوصلش أنا مش عارف أقرأ الاسم الأخير فالخط مش واضح.. ده كفاية دلوقت.. انزلوا تحت».

فبدأت المجموعة المتسمرة فى مكانها تتحرك إلى الأمام وتتفرق. وكانت معالمها غير واضحة. وفجأة انبعث صوت قوى رنان قائلاً: «ويت!» وهنا تسمر الجميع ثانيًا فى أماكنهم، وأما مستر بيكر فكان قد مضى متثائبًا ولكنه استدار بسرعة، فاغرًا فاه، ثم رطن فى غضب: «إيه ده؟» مين اللى قال «ويت؟» «إيه..؟» ولكنه أبصر شخصًا طويل القامة واقفًا بجوار السور، ثم نزل هذا وشق طريقه بين الجموع بخطى وئيدة متجهًا نحو الطابق المضىء، وللمرة الثانية صاح فى إصرار: «ويت!» وهنا غمر ضوء المصباح جسمه - كان ممدود القامة، حتى لقد اقتربت رأسه من ظل قوارب النجاة المثبتة على الحواجز فى الطابق العلوى وكانت كرات عينيه وأسنانه البيض تلمع بوضوح بينما بقى وجهه غامضا، وظهرت يداه الكبيرتان كأنهما مغطيتان بقفاز.

ورفع الصبى النور إلى وجه الرجل، وقد أخذته الدهشة كالباقين .. كان وجهه أسود.. وسرت بين الجميع همهمة خافتة تنم عن احتجاج مكبوت: «ده زنجى!» سرت حتى اختفت فى الظلام، ودون أن يبدى الزنجى أنه سمعها. وكان يعمل على حفظ توازنه بحركة قدميه المنتظمة. وبعد هنيهة قال فى هدوء: «أنا أسمى ويت، جيمس ويت». فرد مستر بيكر متداركًا: «آ. و.» واستمر يغلى بضع ثوان ثم قال وهو ثائر: «آه.. اسمك ويت. وإحنا مالنا جاى هنا ليه؟ وبتزعق ليه؟».

كان الزنجى هادئًا، رزينًا، شامخًا، قوى الشخصية. وتحرك الرجال مقتربين منه ليقفوا إلى جانبه - فبدا أطول منهم جميعًا، إذ كان يزيد نصف قدم على

أطول رجل فيهم. ورد على مستر بيكر قائلاً: «أنا تابع للمركب» كان يتكلم بدقة ووضوح.. فملأت نبرات صوته العميق الطابق كله دون جهد ملحوظ. كان بطبيعته مستخفًا بما حوله، متواضعًا دون تكلف كأنما قد أشرف من أعلى قامته، (ست أقدام وثلاث بوصات) على كل ضروب الطيش الإنسانى، وكأنما قد عقد العزم على ألا يقسو فى حكمه عليها.

واستطرد قائلاً «لقد عيننى ربان السفينة هذا الصباح.. ولم أتمكن من الوصول إليها قبل هذا الوقت. لقد رأيتكم جميعًا فى المؤخرة وأنا أصعد السلم. وفهمت فورًا أنك تستعرض البحّارة. وبطبيعة الحال ناديت اسمى وأنا واثق من أنه فى الكشف، وأنك ستفهم قصدى. ولكنك لم تفهمنى». ثم توقف عن الحديث، وارتبكت الجموع من حوله، فقد كان على حق فى كل ما قاله - ومستعدًا للتسامح إلى أقصى الحدود. فتوقفت لهجات الازدراء والتقزز - ووقف هو يتنفس بدون حراك وحوله كل هؤلاء الرجال البيض. ثم رفع رأسه إلى أعلى فى ضوء المصباح. كانت رأسًا قوية مقسمة إلى ظلال عميقة، وأضواء لامعة - أما وجهه المنبسط فكان ينبئ عن تعذيب صاحبه - كان وجهًا بدائيًا عاطفيًا - وهو القناع الجامد الغامض الذى تختفى خلفه روح الزنجى.

وبعد أن استعاد مستر بيكر اتزانه وهدوءه نظر مدققًا إلى الكشف وقال: «أى نعم - أنت معك حق - طيب يا ويت - قرب بعفشك لقدام».

وفجأة تحركت عينا الزنجى بوحشية حتى صارتا بيضاء تمامًا، ووضع يده على جنبه وسعل مرتين - سعل سعالاً مدويًا جافًا تردد دويه كأنه انفجار فى قبو، وتجاوبت أصداؤه فى قبة السماء - وبدا كأن الرقائق المعدنية فى سور السفينة تتذبذب برنين واحد. ثم سمعه الضباط الواقفون بجوار القمرة يقول: «هلا ساعدنى واحد منكم يا جدعان فى نقل متاعى؟ عندى صندوق وشنطة». ووصلت هذه الكلمات التى نطق بها بصوت رنان ونغمة واحدة إلى أسماع كل مَنْ على السفينة - وكان قد وجه رجاءه بلهجة عذبة يستحيل تجاهلها. فارتفع صوت بعض الرجال الذين هموا لمساعدته، وهم يزحفون بسرعة وينوءون بحمل ثقيل.

ولكن الزنجى الممدود القامة تمهل بجانب مخزن البضاعة، وحوله زمرة من الرجال الأقصر منه - وللمرة الثانية علا صوته متسائلاً: «يا ترى طباخكم سيد أسمر؟» ثم أعقب سؤاله بتعليق «آه.. أهم» تعليق صدر عن خيبة أمل، واعترض على الحقيقة التى بلغته وهى أن الطباخ لم يكن سوى رجل أبيض. ومع ذلك فعندما مروا جميعًا بالمطبخ فى طريقهم إلى عنبر البحَّارة، أطل برأسه من الباب ليبعث للطباخ بهذه التحية والتعظيم: «مساء الخير يا دكتور!» قالها بصوت عال رددته أوانى المطبخ. كان الطباخ حينئذٍ قد نعس فى الضوء الخافت فوق مخزن الفحم وهو يرقب عشاء القبطان، فهب واقفًا كأنما أصابه سوط، واندفع بقوة نحو الخارج ليرى ظهور الرجال وهم يبتعدون ضاحكين.

وعندما تحدث عن هذه الرحلة فيما بعد كان يقول: «أنا انفزعت من الجدع المسكين وخيل إلى أنى شفت الشيطان!».

كان الطباخ قد قضى سبع سنوات مع القبطان على نفس السفينة - وكان رجلاً جادًا له زوجة وثلاثة أطفال - لا ينعم بصحبتهم إلا بمعدل شهر واحد سنويًا. وحينئذٍ كان يصطحبهم إلى الكنيسة مرتين كل يوم أحد. واعتاد فى رحلاته البحرية أن ينام كل مساء فى ضوء مصباح قوى، وغليونه فى فمه والإنجيل مفتوح بين يديه. لهذا كان يتحتم على أحد الرجال أن يذهب أثناء الليل ليطفئ النور، ويرفع الكتاب من يديه والغليون من فمه. وكان بلفاست يلومه على ذلك باستياء ويحذره بقوله «يا طباخ يا غبى. أنا خايف ليلة تبلع غليونك القديم ونتحرم من طباخنا للأبد». فيرد عليه الآخر بلطف وهدوء - وبلهجة مؤثرة تدل على غبائه: «آه يا بنى - أنا دايمًا مستعد لمقابلة ربى - يا ليتكم كلكم زيى!» فيزداد استياء بلفاست حتى يتراقص بجوار باب المطبخ ويعوى قائلاً: «أنت يا عبيط يا متدين - أنا مش عاوزك تموت». وينظر إليه بوجه متوتر وعينين تفيضان بالحنان: «مستعجل على إيه يا عجوز، يا ملحد، يا غبى، يا ملعون!! الشيطان مش حايستنى عليك كتير - فكر فينا احنا.. فينا احنا.. فينا احنا..» ثم يبتعد عنه وهو يضرب الأرض بقدميه ويبصق مهمومًا مشمئزًا، بينما يخطو الآخر خارج المطبخ

بملابسه المدهنة - دافئًا هادئًا، وكسرولته فى يده، يرقب بابتسامة الواثق المتعالى «رجله الصغير المجنون» وهو يغلى فى غضبه - فقد كانا صديقين حميمين.

واستلقى مستر بيكر فوق فتحة المخزن الخلفية يستنشق هواء الليل الرطب، ومعه الضابط الثانى، وقال يحدثه: «إن لهؤلاء الزنوج القادمين من الهند الغربية قامة ضخمة ممدودة.. بعضهم.. أف!». أليس كذلك؟ أنه لطيف قوى البنية يا مستر كريتون.. تصوره وهو يتسلق جبلاً! هئ.. أوف.. أظن أنى حاضمه لطقم حراستى». فعلق الضابط الثانى قائلاً فى هدوء، (وكان راقيًا ذا قامة مهيبة، وينبئ وجهه عن عزيمة ثابتة) «هذا ما توقعته تمامًا». وكان يتحدث بشىء من المرارة - مما جعل مستر بيكر يحاول إزالتها بحججه وهو يقبع: «خليك معاى يا أخى.. الشاب. اسمع، لا تكن طماعًا أكثر من اللازم - فأنت أخذت هذا الفنلندى الضخم ضمن رجالك طوال الرحلة - ولهذا فسأكون عادلاً فيما أنوى عمله.. لك أن تأخذ الإسكندناويين وآخذ.. أوف.. أنا.. الزنجى ومعه هذا «العريجى» الصفيق ذا المعطف الأسود. سأعلمه. أوف.. كيف يكون مطيعًا - وإلا تخليت عن اسم بيكر.. أوف.. أوف..» وقبع بشدة ثلاث مرات.

كان ممتلئًا غليظ العنق، يمشى كأنه يتدحرج، وينظر فى ثبات، وفى وجهه الكبير ندبة، وعلى فمه ابتسامة تهكمية، وكان من عادته أن يقبع بين كلماته أو فى نهاية عباراته - وهى حيلة بارعة مؤثرة - كانت تتناسب مع تهديداته، وتتمشى مع هيئته وحركاته - ولكن الرجال كانوا قد اعتادوا هذه الحيلة حتى لم تعد تؤثر فيهم منذ وقت طويل. كانوا يحبونه - لدرجة أن بلفاست (وكان من المقربين إليه) كان يعرفها، وكثيرًا ما كان يقلده دون أن يخفى ذلك عنه. أما تشارلى فكان يقلد مشيته بمزيد من الحيطة، وأصبحت بعض أقواله عبارات معترفًا بها، يقتبسها البحَّارة فى طابقهم يوميًا. وبلغت شعبيته حدًا بعيدًا. زد على ذلك أن البحَّارة جميعًا كانوا على استعداد دائم لأن يشهدوا له بالسرعة والمهارة كلما دعت الظروف.

وكان فى هذه اللحظة يصدر تعليماته الأخيرة: «أوف!.. يا نويلز نادى كل البحَّارة الساعة الرابعة - أنا عاوز .. أوف.. نجر السفينة فوق المرساة قبل وصول

الرفاص. دور عالقبطان - أنا حارقد بيدلتى.. أوف! نادينى لما تشوف الرفاص جاى - أوف!.. أوف.. لازم الراجل العجوز عنده ما يقوله لى لما يطلع على ظهر المركب» قال الجملة الأخيرة موجها حديثه إلى كريتون. «طيب . مساء الخير.. أوف!.. حايكون بكره يوم مليان .. أوف!.. وعشان كده الأحسن ندخل ننام دلوقتى أوف.. أوف..!»

وفجأة سطع شعاع من النور فوق الطابق المظلم، ثم سمع صوت باب يوصد، كان مستر بيكر قد دخل إلى قمرته النظيفة، بينما وقف كريتون الشاب مستندا إلى السور الحديدى ينظر حالمًا إلى ظلام الشرق، وتراءى له على بعد درب ريفى طويل - درب من ورق الشجر المائج وأشعة الشمس الراقصة. وتأمل الغصون تهتز فى الأشجار المسنة وهى تمتد فتكون بجذوعها المقوسة إطارًا حول الزرقة الرقيقة الآخاذة التى تذكره بسماء إنجلترا. ومن خلال القوس مرت فتاة فى ثوب رائق تبتسم تحت مظلة، وكأنها تخطو من السماء الحانية.

وفى الطرف الآخر من السفينة أطفئت المصابيح إلا واحدًا، إذ آوى البحَّارة إلى فراشهم، وخيم على طابقهم فراغ معتم، تتخلله زفرات عالية أو تنهدات قصيرة مفاجئة. وغرقت صفوف الأسرة المزدوجة فى سواد حالك، كأنها مقابر دفنت فيها جثث قلقة. وظهرت فى أماكن متفرقة ستائر مزخرفة تنبئ عن رفاهية مَنْ يرقد خلفها. وارتفعت فوق حافة أحد الأسِرة ساق ناصعة البياض لاحياة فيها - بينما برزت إلى الخارج ذراع تبسط كفًا أسمر بأصابع غليظة نصف مثنية. وعلا شخيران خفيفان غير متجاوبين وكأنما يتعاركان فى حوار مضحك.

ووقف العجوز سنجلتون فى المدخل، وقد تجرد ثانيًا من بعض ملابسه - فقد كان العجوز يعانى كثيرًا من القيظ الشديد - وقف يبرد ظهره، وقد طوى ذراعيه على صدره العارى المغطى بالوشم، وكادت رأسه أن تلمس أرضية الطابق العلوى. أما الزنجى فقد خلع نصف ملابسه وانشغل بحل رباط صندوقه وتنظيم فراشه فى أحد الأسِرة العليا. كان طويلاً هادئًا - يتحرك من مكان لآخر بجواربه، وقد تدلت حمالة سرواله حتى كعبيه. وبين خيالات القوائم وصارى المقدمة، كان دونكن يقضم قطعة من بقسماط السفينة، وقد جلس على السطح بقدمين

مقلوبتين وبعيون قلقة، وكان يرفع البقسماطة إلى فمه بقبضة يده كلها ثم يهجم عليها بفكيه، ووجهه يفيض غضبًا. وسقط بعض الفتات بين ساقيه الممدودتين. ثم هب واقفًا، وسأل بصوت ثابت: «فين برميل المياه المخصص لنا؟» فأشار إليه سنجلتون، بيد كبيرة تمسك بغليون خامد - دون أن ينطق بكلمة واحدة - وانحنى دونكن على البرميل وشرب من «الكوز» وهو يبعثر الماء - ثم استدار حوله ليرى الزنجى ينظر إليه من فوق كتفه بهدوء وتعال - وأخيرًا تحرك جانبًا وهو يتمتم بحرارة: «آهو ده العشا الحقير اللى يعطوه لراجل زيى - لو أعطيته أنا فى بلدى لكلبى ما يرضاش ياكله. هوه ينفع بس لى ولك. وده طابق البحّارة على مركب كبيرة.. ما فيش ولا حتة لحمة واحدة. أنا دورت فى كل الدواليب».

فحملق فيه الزنجى كأنما قد فوجئ بحديث موجه إليه بلغة أجنبية، وهنا غير دونكن لهجته البذيئة، وقال: «أعطينى شوية دخان يا زميلى» ثم تنهد فى سره واستطرد: «أنا اتحرمت كليًا من التدخين والمضغ طوال الشهر - والحرمان ده قرب يطير عقلى - ياللا يا راجل يا عجوز» فرد عليه الزنجى بقوله: «لا تمنع التكليف فى كلامك معى».

فهب دونكن مندهشًا ليجلس على صندوق مجاور. واستطرد جيمس ويت بصوت عميق منخفض: «إحنا ما سبقش ربينا خنازير مع بعض. خد الدخان اللى أنت عاوزه» وبعد أن سكت قليلاً سأله: «إيه المركب اللى كنت بتشتغل عليها؟» فأجاب دونكن بصوت مبهم وهو يقضم التبغ: «جولدن ستيت» وهنا أرسل الزنجى صفيرًا منخفضًا، وسأله باقتضاب: «هربت؟» فأحنى دونكن رأسه بالإيجاب، وقد برز أحد خديه إلى الخارج ثم تمتم قائلاً: «هربت أثناء الرحلة.. بعد ما طلعوا روح جدع طليانى فى الرحلة. وبعدين ابتدوا يعاملونى بنفس الطريقة - وعشان كده هربت هنا» فسأله ويت «وهل تركت متاعك هناك؟» فأجاب دونكن: «نعم متاعى، وفلوسى» ثم رفع صوته قليلاً: «ما بقاش حيلتى حاجة لا هدوم ولا فرش. وأعطانى الجدع الإيرلندى أبو رجلين طويلة اللى بيشتغل هنا بطانية.. أظن أنى حا نام الليلة عند سارية المقدم عشان أوجه المركب..».

وذهب إلى السطح وهو يجر خلفه ركنًا من البطانية، فتحرك سنجلتون جانبًا ليخلى له الطريق دون أن يعيره التفاتًا - أما الزنجى فقد وضع ملابس البر فى صندوقه - ثم جلس على الصندوق بملابس العمل النظيفة وقد مد أحد ذراعيه فوق ركبتيه - وبعد أن حملق طويلاً فى سنجلتون سأله فى لهجة عادية: «يا ترى إيه نوع مركبنا دى؟.. غير متحيزة؟ مش كده؟».

فلم يحرك سنجلتون ساكنًا. وبعد فترة طويلة أجاب دون أن يبدو على وجهه أى شعور:

«المركب!.. المركب بخير.. العيب على الرجال اللى فوقها.. » واستمر يدخن فى سكون عميق. كانت حكمة نصف قرن قضاه وهو ينصت إلى رعد الأمواج، قد انبعث دون وعى من بين شفتيه المسنتين.. وهنا قرت الهرة فوق برميل الرافعة، واعترت ويت نوبة سعال رنان متحشرج، هزت كيانه وتلاعبت به كالإعصار حتى طرحته فوق صندوقه وهو يلهث ويحملق بعينيه. وعندئذ استيقظ كثير من الرجال، وقال أحدهم من سريره قبل أن يفيق تمامًا «أف - إيه الدوشة الفظيعة دى!» فرد ويت وهو يلهث «أنا عندى برد فى صدرى» فاستطرد الرجل متذمرًا: «برد؟ بتسمى كل ده برد؟ أنا أعتقد أنه أخطر من كده بكثير..» فاعتدل الزنجى واسترد نظرته المتعالية وقال: «أوه - تفتكر كده؟» ثم صعد إلى فراشه، وبدأ يسعل باستمرار، وقد أخرج رأسه ليراها كل البحَّارة بوضوح - ولما لم تتبع ذلك اعتراضات أخرى ارتمى بظهره فوق الوسادة وسمع وهو يزفر كمن يعانى ضيقًا فى نومه.

ووقف سنجلتون على الباب، بوجهه للنور وظهره للظلام. وقف وحده فى طابق البحَّارة الموحش المعتم، فبدا أكبر حجمًا، بدأ هائلاً، هرمًا مثل الزمان ذاته، الزمان الذى كان يجدر به أن ينتقل إلى هذا المكان الساكن كالقبر، ليتأمل بعينيه الصبورتين سلطان النوم المحدود - النوم الذى يهدئ المآسى. ومع ذلك لم يكن سنجلتون إلا وليد الزمان، أثر وحيد لجيل فنى وأصبح فى طى النسيان. كان واقفًا، لم يدركه الوهن - وكعادته دائمًا كان مستعدًا خالى البال، له ماض طويل

موحش وليس له مستقبل، يحتوى صدره المزركش ما أخمده الزمن من رغبات الصبا ومشاعر الرجولة. كان الرجال الذين يفهمون سكونه قد رحلوا أولئك الذين عرفوا كيف يعيشون بعيدًا عن دوامة الحياة، وقاب قوسين أو أدنى من الخلود - كانت لهم قوة مَنْ لا تساورهم الشكوك ولا الآمال ومَنْ لا يعرفون الصبر أو الكلل - ويجمعون بين التفانى والتذمر، وبين الإخلاص والتمرد. ولقد حاول البعض عن حسن نية، أن يصوروهم رجالاً يزمجرون كلما اجتمعوا لتناول الطعام. أو (رجالاً) يساقون لعملهم قلقين على حياتهم - ولكنهم فى الواقع كانوا رجالاً مارسوا العمل المضنى، وذاقوا الحرمان، وعرفوا معنى العنف وإشباع الرغبات، من الصعب أن تسوسهم، ومن الهين أن توحى إليهم - لا صوت لهم، ولكن لديهم من الرجولة ما يملأ قلوبهم احتقارًا لذوى الأصوات العاطفية، الذين ينعون مصيرهم القاسى. كان مصيرًا يتفق مع طبائعهم، اعتبروا القدرة على مواجهته حظًا موقوفًا على النخبة المختارة. وعاش جيلهم غير مرموق، ولا غنى عنه. لم يعرف حلاوة الود، ولا السكون إلى الأهل، ومات بعيدًا عن هول القبور الضيقة المظلمة. كانوا الذرية المخلدة للبحر الغامض: أما خلفاؤهم فأطفال شبوا فى عالم متبرم، فجاءوا أقل من أسلافهم شقاوة وأقل براءة، لا يجارونهم فى إلحادهم ولا فى إيمانهم، ولئن حذقوا لغة الحديث فقد عرفوا أيضًا كيف يعوون. وكان الأوائل أقوياء صامتين، تقوست ظهورهم، وطمس الجلد معالمهم - كتماثيل النساء الحجرية تقام لتحمل فى الظلام المبانى الشامخة والأبهاء المتألقة. والآن وقد ولوا فمَنْ ذا الذى يهمه أمرهم؟ فالبر والبحر لا يخلصان لذريتهم، وما هو إلا جيل من الرجال يدخل فى طى النسيان بحقائقه وعقائده، دون أن يبالى به أحد، اللهم إلا تلك الفئة القليلة التى آمنت بالحقائق. واعتنقت العقائد، وأحبت الرجال أنفسهم.

كانت إحدى النسمات تقترب. وتأرجحت السفينة التى لبثت ساكنة فترة فى مياه المد، وفجأة علا صليل الجزء المدلى من السلسلة بين الرافعة والمجرى، ثم انزلق إلى الأمام قليلاً وارتفع ببطء بعيدًا عن سطح السفينة، كأن الحياة دبت فيه فجأة بعد أن كمنت خلسة فى الحديد. ونشأ من تصادم حلقات السلسلة

داخل المجرى صوت يشبه أنات خافتة تنبعث من رجل يتأوه وينوء بحمل ثقيل. ووصل الجذب إلى الرافعة وتوترت السلاسل وعلا رنينها، وتحركت يد مفتاح الفرملة حركات خفيفة. وتقدم سنجلتون خطوة إلى الأمام. كان حتى تلك اللحظة يقف متأملاً، شاردًا، مستكينًا، لا يراوده أمل، ووجهه جامد متجهم، وليد البحر الغامض فى الستين من عمره.

كان فى وسعه أن يسرد خواطر حياته بأسرها فى ست كلمات ـ ولكن أثر تلك الذكريات التى غدت (مثل قلبه النابض)، جزءًا من كيانه، أضفى على وجهه الجامد مسحة من الفطنة واليقظة. واهتز لهب المصباح بينما وقف الرجل المسن ثابتًا، وقد عقد حاجبيه الكثيفين ـ أمام عجلة القيادة وسط حلقة من الأشباح المتراقصة. واستجابة لنداء المخطاف تحركت السفينة قليلا إلى الأمام، فارتخى الحبل المشدود وتدلى متأرجحًا هنا وهناك دون أن يلحظه أحد، ثم هبط فوق الألواح الخشبية الجامدة بصوت مسموع. وأمسك سنجلتون بالذراع العلوى واندفع بجسمه إلى الأمام فدارت العجلة نصف دورة من جديد ـ ثم استرد هدوءه وتنفس ملء رئتيه، ولبث لحظة يحملق فى الآلة المحكمة الرابضة عند قدميه، على ظهر الكاويرتة، وكأنه وحش مروض أو مخلوق عجيب مستأنس ـ وزمجر فيها بلهجة الرئيس، من خلال لحيته الكثيفة البيضاء: «خليكى.. على مهلك!».

(٢)

وفى الصباح خرجت «النرجسة» إلى البحر فى وضح النهار. واكتنف الأفق ضباب خفيف ـ وتلألأت المياه المنبسطة اللانهائية خارج الميناء كأرض رُصعت بالجواهر. وكسماء خاوية تمامًا. وكالعادة سحب الرفاص الأسود القصير السفينة قليلاً تجاه الريح، ثم ترك الحبل يتدلى، وتلكأ لحظة عند ركنها الخلفى وقد سكنت آلاته، فتهادى بدن السفينة الطويل النحيف إلى الأمام بينما خفضت الأشرعة العليا، وانتفخ الشراع العلوى الفضفاض بالهواء فكون حلقات رقيقة بدت كسحب صغيرة بيضاء، وقعت فى شراك الحبال المتشابكة. ثم سحبت حبال القلع إلى الداخل، ورفعت السقالات، فاستحالت السفينة إلى هرم عال وضاء،

ناصع البياض، ينزلق داخل ضباب تتخلله أشعة الشمس. ودار الرفاص حول نفسه قليلاً ليعود إلى البر، بينما اتجهت نحوه ستة وعشرون زوجًا من العيون، ترقب مؤخرة الواطى العريض وهو يزحف بكسل على التموجات التى أثارتها عجلاته الأمامية فى حركتها السريعة وهى تضرب المياه فى عجلة وحشية. كان أشبه بخنفسة مائية ضخمة سوداء اللون فاجأها الضوء، وغمرتها أشعة الشمس، فحاولت جاهدة وبلا جدوى أن تهرب بعيدًا إلى ظلام البر. وخلف الرفاص وراءه بقعة كبيرة من الدخان فى السماء، وخطين متناقضين من الزبد على سطح الماء - وظهرت على المكان الذى وقف فيه بقعة هباب مستديرة سوداء، أخذت تهتز وتتموج، وبقيت هناك أثرًا قذرًا لهذا المخلوق.

ويممت «النرجسة» جنوبًا - بعد أن تركت وحدها - فبدت ساكنة متألقة فوق بحر هائج وتحت شمس متحركة - وكسحت تجمعات الزبد على جانبيها، وكالت لها المياه لطمات برَّاقة متناثرة، بينما انزلقت اليابسة بعيدًا عنها لتختفى ببطء - وصرخت طيور ساكنة الجناح من فوق الصوارى المتمايلة وما لبثت اليابسة أن اختفت، وولت الطيور، وظهر على حافة الأفق الدقيقة، جهة الغرب، شراع مدبب لسفينة عربية تسرع إلى «بومبى». ظهر مثلثًا رأسيًا، وتباطأ قليلاً ليختفى فورًا كالأمل الخادع.

وشقت السفينة، فى وحدة موحشة وطيلة يوم كامل، عباب البحر فى خط مستقيم ممتد، فوق مستوى المياه. واستحالت شمس الغروب المتوهجة فوق سطح الماء إلى لهب قرمزى، تحت سواد السحب الكثيفة الممطرة. وهبت رياح الغروب من الخلف لتتحول إلى طوفان قصير بصفير خافت، تألقت بعده كل أجزاء السفينة، من عجلات الصارى إلى خط المياه، بينما تحولت قلوعها إلى لون قاتم. ودلفت «النرجسة» بسهولة أمام ريح موسمية لطيفة، وصاحبها، محازيًا لها، حفيف الأمواج المستمر الرتيب: يختلط تارة بهمسات البحَّارة الخافتة، (وقد تجمعوا عند مؤخرة السفينة لتسلم نوبات الحراسة). وتارة أخرى بامتعاض بحَّار أحمق يقف فى الدور العلوى، وتارة ثالثة بآهة عالية تنبعث من الرياح بين آن وآخر.

وقبل أن يغلق مستر بيكر باب قمرته وهو يغادرها نادى الاسم الأول بصوت حاد - ليعهد إليه بالكاويرتة (سطح المركب) وجريًا على تقليد بحرى قديم كان على الضابط الأول أن يتولى الحراسة، فى الليلة الأولى من رحلة العودة، من الساعة الثامنة حتى منتصف الليل. ولهذا قال مستر بيكر بعصبية، بعد أن سمع آخر رد بالإيجاب، «حل العجلة وكن يقظًا!» ثم صعد سلم المؤخرة بخطى ثقيلة تجاه الريح. وبعد قليل نزل مستر كريتون وهو يصفر بلطف، ودخل قمرته، وكان الخادم مستلقىً عند عتبة الباب يفكر، وأكمام قميصه مرفوعة حتى إبطيه، وفى قدميه شبشب. وعلى الطابق الرئيسى كان الطاهى يغلق باب المطبخ وهو يتشاحن مع الصغير شارلى على زوج من الجوارب. وسمع وهو يحدثه فى الظلام بلهجة مؤثرة: «أنت لا تستحق أى عطف - أنا وقفت مدة طويلة أنشفهم لك.. ودلوقتى بتشتكى من الخروم. وكمان تشتمنى فى وشى. لو ما كنتش مسيحى زيك يا عيل يا متشرد كنت ضربتك على رأسك بالبونية.. امشى بعيد عنى!».

وعلى جانب سور السطح وسط السفينة وقف بعض الرجال مثنى وثلاث، سارحين - وتحرك آخرون فى صمت. كان اليوم الأول الحافل فى رحلة العودة على وشك الانقضاء. ليتبعه العمل الرتيب بهدوئه الممل. وعند مؤخرة السفينة سمع مستر بيكر يتحرك بخطى ثقيلة مسموعة، ويقبع كلما توقف عن التفكير. وفى المقدمة كان الرجل المكلف بالحراسة يقف منتصبًا بين شعب المخطافين، يهمهم بنغم لا ينتهى، وينظر إلى الأمام نظرات ثابتة خاوية تدل على تفانيه فى أداء واجبه. وزخرت السماء الموحشة بعدد غفير من النجوم أشرقت فى صفاء الليل، وتلألأت كأنها تعيش فوق سطح الماء، ثم أحاطت بالسفينة المسرعة من كل جانب، فجاء بريقها أقوى أثرًا من عيون جماعة يبحلقون، وأكثر غموضًا من أرواح البشر ذاتها.

كانت الرحلة قد بدأت - وسارت السفينة - ولم تكن سوى كسرة انفصلت من الأرض - سارت وحيدة مسرعة كأنها كوكب صغير سيَّار، تلتقى حولها لجتا السماء والبحر فى جبهة يستحيل اختراقها. وتحرك معها ملازمًا لها، ومحيطًا بها، إطار واسع من العزلة - إطار مهيب رتيب، يتجدد دائمًا ولا يتغير أبدًا. وكانت

تظهر على بعد، من آن لآخر، كسرة أخرى، بيضاء هائمة، محملة بالحياة، ثم تختفى بحثًا عن مصيرها المحتوم. وكانت الشمس ترقبها طول النهار، وفى كل صباح ترمقها بنظرات حادة ملؤها الفضول والدهشة. كان لها مستقبلها الذاتى تستمد حياتها من حياة أولئك الذين يطأون أسطحها، ومثل الأرض التى وهبتها للبحر، كانت ترزح تحت عبء ثقيل من الآمال والحسرات. يعيش على سطحها جنبًا إلى جنب الصدق بحيائه، والكذب بقحته وجرأته. ومثل الأرض كانت جميلة للناظر، غير واعية ـ يفرض عليها رجالها مصيرًا وضيعًا. وكانت العزلة المهيبة التى تخيم على مجراها تضفى الرهبة على رحلتها الطويلة وما تثيره من هواجس. واندفعت نحو الجنوب وهى تزيد، كأنما تسرع مستبسلة فى هدى رسالة سماوية تسعى لنشرها وتحقيقها.

وكان البحر بعظمته الباسمة يلتهم الوقت العملاق فيحيله قزمًا. وتسابقت الأيام واحدًا بعد الآخر، سريعة متألقة كومضات الفنار ـ أما الليالى فكانت أشبه بالأحلام العابرة فى قصرها، وتعدد أحداثها.

كان الرجال قد انتقلوا إلى أماكنهم، ودقت الأجراس كل نصف ساعة، تؤقت حياتهم الحافلة بالهموم. وليل نهار شوهد أحد البحارة فى المؤخرة، عند عجلة القيادة ـ برأسه وكتفيه، وكان يحددهما بوضوح شروق الشمس أو بريق النجوم، كان يقف فى منتهى الثبات فوق ضجة البرانق الدائرة. وتباينت الوجوه وهى تمر متتابعة: وجوه فتية، ووجوه ترسل لحاها، وجوه سمراء، ووجوه هادئة ووجوه عصبية. ولكن أخوة البحر كانت توجد بينها جميعا، فتعلوها كلها عيون ساهرة، ترقب البوصلة والشراع بيقظة وعناية.

واعتاد كابتن آليستون السير على المؤخرة طوال النهار ـ كان يسير جادًا وقد لف حول رقبته كوفية حمراء. وكثيرًا ما كان يصعد فى الليل من ظلام السلم كالشبح فوق المقبرة، ويقف تحت النجوم صامتًا مترقبًا، وجلباب نومه يرفرف كالعلم، وبعد قليل يهبط ثانية دون ضجة. كان قد ولد على شواطئ (بنتلاند فيرث)، وحصل وهو شاب على مركز صائد حيتان فى مصايد «بيترهيد»، وكان كلما تحدث عن تلك الأيام تحولت عيناه الرماديتان اليقظتان إلى عينين ساكنتين.

باردتين كالثلج ـ وبعد ذلك عمل فى تجارة الهند الشرقية رغبة فى التغيير ـ وعمل قبطانًا «للنرجسة» منذ بنائها. كان يحب سفينته ويقودها بغير هوادة، ويؤمل سرًا أن يضرب بها يومًا رقمًا قياسيًا فى السرعة فيذكر ذلك فى الجرائد البحرية، وكان ينطق اسم المالك بابتسامة تهكمية، ولا يتحدث مع ضباطه إلا نادرًا، ويؤنب المخطئ بصوت لطيف وبألفاظ جارحة. وكان له شعر برونزى ووجه جامد كالجلد اللامع. واعتاد طوال حياته أن يحلق ذقنه كل يوم فى السادسة صباحًا، ولكنه خالف هذه العادة مرة واحدة، فترك ذقنه ثلاثة أيام متوالية (عندما حاصره إعصار عنيف على بعد ثمانين ميلاً جنوب غربى موريشيوس) ولم يكن يخشى شيئًا سوى الحرمان من مغفرة الله ـ وكان يتمنى أن يختتم حياته بعيدًا عن البحر فى بيت ريفى صغير، تحيط به رقعة من الأرض.

كان الحاكم بأمره فى هذا العالم المصغر، ولم يكن ينزل من علياء غرشه فى المؤخرة إلا نادرًا، ففى الطوابق السفلى ـ تحت قدميه ـ تعيش المخلوقات العادية حياة زاخرة لا يعتد بها. وعلى الطابق الرئيسى كان مستر بيكر يقبع كمتعطش للدماء فى غير خطورة، ويشغلنا بعمل متواصل، لأنه كما قال مرة «مأجور لهذا الغرض بالذات»، وكان الرجال الذين يعملون حول الطابق الرئيسى أصحاء راضين، كغالبية البحّارة عندما يجدون أنفسهم فى عرض البحر، ذلك لأن السلام الإلهى الحقيقى يبدأ فى أية بقعة على بعد ألف ميل من اليابسة، ويرسل سبحانه وتعالى رسله هناك، لا ليصبوا جام غضبهم ضد الجريمة والاغتصاب والرعونة، بل ليطهروا، بروح أبويه، القلوب الساذجة، الجاهلة، التى لا تعرف عن الحياة شيئًا، وتنبض دون حقد أو جشع.

وفى المساء اتخذت طوابق السفينة الخاوية فى هدوئها مظهر الخريف على اليابسة. كانت الشمس تهبط لتستريح وقد التفت بعباءة من السحب الدافئة ـ وإلى الأمام عند نهاية الصوارى الاحتياطية ـ جلس المدير والنجار معًا، وقد عقدا سواعدهما، رجلان قويان، لهما صدران عميقان. وتجمعهما أواصر الصداقة، وبجوارهما جلس صانع الشراع (رجل قصير القامة ممتلئ، كان يعمل من قبل فى الأسطول) جلس يحكى ـ بين نفثات غليونه ـ نوادر مستحيلة عن أمراء الأسطول.

وسار بعض البحَّارة أزواجًا نحو الأمام والخلف، ساروا بخطى ثابتة ودون جهد فى هذا المجال المحدود. وقبعت الخنازير فى حظيرتها المتسعة. واشترك فى الموقف بلفاست، الذى كان يفكر فى سكون، وقد ارتكز بكوعه فوق القضبان، وجلس بعضهم فى قمصان تكشف عن صدور أحرقتها الشمس، جلسوا على حبال الربط وفوق درج سلم البحَّارة، وبجوار الشراع الأمامى اجتمع بعضهم فى حلقة ليبحثوا مقومات «الجنتلمان»، وقال أحدهم: «الفلوس تعملك جنتلمان»، بينما أكد آخر: «لا بطريقة كلامك» وقفز نويلز الأعرج بوجه لم يغسل بعد، وكان معروفًا بالرجل القذر فى طابق البحَّارة - وبأنياب صفراء كشفت عنها ابتسامة ماكرة - ثم أوضح فى مهارة أنه قد رأى سراويل من نسميهم «جنتلمان»، وأنها كانت من الوراء أرق من الورق نتيجة لجلوسهم باستمرار إلى مكاتبهم مع أنها كانت من نوع ممتاز يتحمل سنوات طويلة.. وما هى إلا مسألة مظهر، واستطرد قائلاً: «من السهل جدًا أنك تكون جنتلمان إذا كان لك عمل محترم طوال العمر». وهكذا استمرت المناقشة بإصرار وطيش صبيانى دون نهاية. كانوا يعيدون جدلهم المذهل وهم يصيحون بوجوه محتقنة، بينما كان النسيم العليل يهب على الشراع الضخم الذى امتد أعلى رءوسهم العارية، ليحرك شعورهم المنسدلة على وجوههم، وكأنه يربت عليها بحنان.

كانوا قد نسوا عملهم الشاق - بل نسوا أنفسهم، واقترب الطاهى ليستمع، ثم وقف جانبًا، ووجهه يضىء بما يملأ قلبه من إيمان، كوجه القديس المغرور الذى لا يستطيع نسيان ثوابه العظيم. أما دونكن فقد سار وحيدًا عند رأس عنبر البحَّارة، يفكر فى خطاياه، ثم اقترب قليلاً ليسمع محور المناقشة الجارية تحت، ثم أدار وجهه الشاحب جهة البحر، بينما يتحرك منخاراه لاستنشاق النسيم، وهو متكئ على السور بغير مبالاة. وفى ضوء الغروب بدت الوجوه مشرقة بالاهتمام، والأسنان لامعة والعيون متألقة. وفجأة توقف السائرون، وبدا على وجوههم امتعاض واضح، إذ رأوا رجلاً منحنيًا على حوض الغسيل، رأوه يعتدل وهو يتأمل بإعجاب رغوة الصابون التى تزركش ذراعيه المبللين. وأنصت الكل، حتى الثلاثة جاويشيه، وقد مالوا متكئين إلى الخلف فى وضع مريح، وعلى وجوههم

ابتسامات متعالية. وأمسك بلفاست عن هرش أذن خنزيره المحبوب، وحاول أن يعلق على الموقف، وقد فغر فاه، وظهر الحماس فى عينيه. ثم رفع ذراعيه وقطب وجهه إذ شعر بالعجز. وعلى بعد صاح تشارلى فى الحلقة المتجمعة: «أنا أعرف عن «الجنتلمانات» أكثر من أى واحد فيكم لأنى قعدت معاهم كثير من غير تكليف.. لما كنت بامسح جزمهم». وكان الطاهى قد مد عنقه ليسمع ما يقال بوضوح، ولكنه تقزز مما سمع وصاح فيه: «لا تفتح فمك عندما يتكلم الكبار - أنت يا كافر - يا قليل الأدب!» فرد تشارلى مهدئًا: «حاضر يا هاليلوجا العجوز - أنا سكت». وكلما عبر نويلز القذر عن رأيه بلهجة الماكر الملهم سرت بين الجميع قهقهة لا تلبث أن ترتفع إلى موجة ضاحكة تنفجر فى صخب مروع. كانوا يدقون الأرض بالقدمين معًا، ويرفعون وجوههم الصاخبة إلى السماء. وقهقه كثيرون وهم يضربون أفخاذهم، بينما انثنى واحد أو اثنان لاهثين، وقد لف كل منهما ذراعيه حول جسمه كمن يتلوى من الألم. واهتز النجار والمدير ضاحكين حيث كانا يجلسان، ودون أن يغيرا وضعيهما، وبدا صانع الشراع عابسًا، إذ كان يتوق لسرد إحدى نوادره عن أحد القادة. وكان الطاهى يمسح دموعه بخرقة مدهنة، أما نويلز الأعرج فقد أدهشه ما أحرز من نجاح، فوقف فى الوسط وعلى وجهه ابتسامة هادئة.

وفجأة ظهرت على وجه دونكن علامات الجدية، وكان إلى هذا الوقت مرتكنًا بكتفيه البارزين إلى السور العلوى - إذ انبعث من طابق البحَّارة صوت كأنه حشرجة ضعيفة - ثم تحول إلى همهمة، واستحال أخيرًا إلى تنهدات شخص يتألم. وعندئذ غُطس الغسال ساعديه فى الحوض بسرعة، وبدا الطاهى أكثر يأسًا من فاسق انكشف أمره، وحرك المدير كتفيه بقلق، وقفز النجار واقفًا، ثم سار بعيدًا، بينما ظهر على وجه صانع الشراع أنه قد عدل ذهنيًا عن سرد نادرته - وبدأ ينفث دخان غليونه فى ثبات وقنوط.. وظهر فى ظلمة المدخل وميض لعينين كبيرتين، بيضاوين، شاخصتين. ثم برزت رأس جيمس ويت، وكأنها مدلاة بين يديه اللتين تشبثتا بعمودى الباب على الجانبين. وامتد زر طاقية نومه الصوفية الزرقاء إلى الأمام، وأخذ يتراقص فى مرح فوق جفنه الأيسر. وتعثر

جيمس فى خطوة واسعة، وبدا قويًا كعادته، ولكن ظهر عليه عدم اتزان غريب، مصطنع. وكان وجهه نحيفًا عن ذى قبل، بينما جحظت عيناه بشكل مفزع. وخيل لنا أن ارتداد ضوء النهار المرتحل قد عجل بوجوده، إذ غطست شمس الغروب فجأة كأنما ولت هاربة من وجه زنجى «النرجسة». وانبعث منه غيام معتم، أثر عميق كئيب، شىء بارد مظلم ، خيم على الجو، ثم غطى كل الوجوه كأنه طرحة الحزن.

وهنا انفرط شمل الحلقة، ثم تلاشى الضحك والمرح من الشفاه الجامدة، ولم تبق ابتسامة واحدة بين البحارة، لم ينطق أى منهم بكلمة واحدة، وأدار كثيرون ظهورهم متصنعين عدم الاكتراث، بينما أعرض الآخرون برءوسهم، وهم ينظرون من أركان عيونهم نظرات نصف إرادية. كانوا أشبه بمجرمين يستشعرون ذنوبهم منهم برجال أمناء أذهلهم الشك، وبين هؤلاء جميعا كان اثنان فقط ينظران ببساطة وغباء، وقد انفرجت شفاههما قليلا، وانتظر الكل أن يقول جيمس ويت شيئا، وفى الوقت نفسه بدا عليهم أنهم يعرفون كلماته قبل أن ينطق بها، أما هو فقد أسند ظهره إلى عموده الباب، وأرسل إلينا من عيونه الناعمة نظرة سريعة جمعت بين السيطرة والألم، كأنه طاغية عليل، يبعث الرهبة فى شرذمة عبيد أذلاء ليسوا أهلا للثقة، ولم يذهب أحد من الواقفين بعيدا، بل انتظروا جميعا فى رعب وشغف - وأخيرا قال متهمكا، وهو يلهث بين كلمة وأخرى: «أشكركم .. يا جدعان.. أنتم .. ظرفاء.. و.. هاديين.. نعم.. تصيحوا كدا.. أمام .. الباب.. وسكت فترة أطول نوعا - حرك أثناءها ضلوعه محاولا التنفس بجهد مبالغ فيه.

كان هذا فوق احتمالنا.. فتحركت الأقدام متثاقلة، وانبعثت من بلفاست آهة، ولكن دونكن الذى كان واقفا فى الطابق العلوى حرك جفنيه المحتقنتين برموشهما الخفية، وابتسم فوق رأس الزنجى بمرارة. وعاد الزنجى للحديث بسهولة مدهشة - لم يعد يلهث، بل كان صوته يدوى، عاليا، أجوف، كأنما يتحدث فى مغارة خاوية، كان ساخطا مشمئزا «أنا حاولت أنعس لحظة واحدة، وأنتم عارفين أنى لا أرى النوم ليال كاملة، وتيجوا أنتم تشوشروا جنب بابى مثل شلة من النسوة العجايز الملاعين.. وفاكرين أنكم بحارة طيبين.. فاكرين كده؟.. مالكم

مهتمين كده براجل بيطلع فى الروح!» وهنا لف بلفاست حول نفسه بعيدا عن الحظيرة وهو يرتجف ويصيح.. «جيمى! لو ما كنتش عيان لكنت ـ» وسكت ـ وانتظر الزنجى فترة ثم قال بنغمة كئيبة: «لكنت .. ايه؟ سيبنى وعارك واحد غيرى زيك... سيبنى وحدى ومش حايطول انتظارك. أنا خلاص حا أموت. مافيش فايدة...».

فتسمر الرجال واقفين حوله وهم يلهثون، وعيونهم تنبئ عما يعانون. كان هذا هو نفس ما توقعوه وكرهوا سماعه: فكرة الموت المحتم وهى تلقى إليهم كل يوم مرارا، يلقيها هذا الزنجى المبتلى وكأنه يهددهم ويزهو بها عليهم، حتى هيئ لهم أنه يعتز بالموت ـ الموت الذى كان حتى ذلك الحين يتبعه فى فترات هدوئه فقط. كان هو وحده الذى عرف هذا الرفيق عن كثب. وكان يستعرض أمامنا علاقته به بإصرار عاطفى، جعل وجوده واقعًا لاشك فيه ـ ولو لم تقبله عقولنا. فمن غير المعقول بالمرة أن تقوم علاقة مخيفة كهذه بين أى رجل والموت ذاته. كنا نعجب .. ترى هل كان ضيف جيمس المرتقب فى كل لحظة حقيقة أم خيالاً؟ لقد ترددنا بين العطف عليه والشك فيه ـ كان يهز هيكله الهزيل أمام أعيننا كلما شعر بأدنى استفزاز ـ واعتاد التحدث عن ذلك الموت المحتوم كأنما قد وصل بالفعل، يتمشى على ظهر السفينة، ويوشك أن يدخل ليرقد فى السرير الوحيد الخالى، بعد أن جالس جيمس فى كل وجباته.

هكذا كانت فكرة الموت تتدخل فى كل لحظة من حياتنا: أثناء عملنا، وفى وقت فراغنا، وكلما حاولنا الترويح عن أنفسنا، وحرمنا من الغناء والموسيقى فى المساء لأوجيمى (فهكذا كنا جميعًا ندلله محاولين إخفاء كرهنا لرفيقه) نجح بموته المرتقب فى إقلاقنا جميعًا ـ حتى آرتشى بهدوئه الذهنى المعهود. كان آرتشى صاحب الكونشرتينا ـ ولكنه بعد أن استمع لمحاضرتين لاذعتين من جيمى رفض أن يعزف ثانيًا وقال: «الجدع ده طيب. أنا مش فاهم بالضبط ماله، ولكنى متأكد أنه يقاسى كثيرًا ـ كثير قوى.. لا تحاولوا إقناعى ـ فلا فائدة ـ أنا أرفض أن أعزف». وأصيب المغنون بالحزن لأن جيمى كان يحتضر. ولنفس هذا السبب لم يجرؤ أحد كما لاحظ نويلز أن يدق مسمارًا واحدًا ليعلق عليه ملابسه

البسيطة دون أن يستشعر فظاعة جرمه لإقلاق جيمى فى لحظات احتضاره المستمرة. وفى المساء تلاشت الهتافات المرحة المعتادة مثل «دق جرس واحد - يالّلا اخرجوا - سامعين هناك؟ هيه! هيه! هيه! قوموا! من السراير!» وحلت محلها همسات تنادى الحراس واحدًا بواحد - حتى لا يقلقوا ما قد يكون آخر غفوة لجيمى وهو على قيد الحياة. نعم، لقد كان يقظًا باستمرار، وكلما رآنا ننسحب خارجين إلى ظهر السفينة كان يلقى خلف ظهورنا بتعليق جارح فنشعر بأننا كنا قساة وحمقى معه. وكنا نتحدث فى طابق البحّارة بأصوات خافتة كأننا فى الكنيسة. واعتدنا تناول وجباتنا فى سكون ورعب، إذ كانت لجيمى نزواته عند تناول الطعام، فكان يعلن سخطه بمرارة على اللحم المحفوظ والبقسماط والشاى - كانت جميعها فى نظره أطعمة غير صالحة لإنسان - هذا بالإضافة إلى أنه كان رجلاً يحتضر - كان يقول «ما تقدروش تجيبوا حتة لحم أحسن لراجل مريض يحاول الوصول لبيته يتعالج أو يندفن هناك؟» ثم يتدارك قائلا: «لكن لو أنى لقيت فرصة للعلاج لضيعتوها أنتم على، وسممتونى. شوفوا الأكل اللى اعطيتوه لى!».

كنا نخدمه فى فراشه بحنق وانكسار، كأننا حاشية وضيعة لأمير مكروه، وكان يجزينا على ذلك بنقده المقلق. كان قد اكتشف سر استشارة البشر وما ينطوون عليه من سخف «كان يملك سر الحياة - ذلك الرجل المحتضر الحائر». وبذلك جعل نفسه سيد الموقف فى كل لحظة من حياتنا. وتطرق اليأس إلى قلوبنا ولكننا بقينا مستسلمين له.

واعترت بلفاست الصغير العاطفى نزعتان: كان يوشك أن ينقض عليه تارة، وأن يذرف عليه الدمع تارة أخرى. وذات مساء أسر لآرتشى قائلا: «أنا مستعد أطير رأسه الأسود الرضى بنصف بنس - الغشاش المتمارض!» وتصنع آرتشى المستقيم الدهشة والاستياء. كان هذا الزنجى القادم صدفة من «سانت كيت» فقد أصاب رجولتنا البريئة بسحر جهنمى. ولكن فى نفس الليلة - سرق بلفاست فطيرة الفاكهة المعدة للضباط ليوم الأحد - سرقها من المطبخ ليسيل بها لعاب جيمى المتأفف - وكان واضحا حينئذ أنه بعمله هذا قد خاطر بصداقته الوثيقة

مع الطاهى كما خاطر بمصالحه إلى الأبد، فقد استبد الحزن بالطاهى - ولم يكن يعرف الجانى، ولكنه استنتج أن الخبث والشر كانا مزدهرين، وأن الشيطان كان يعيش على ظهر السفينة بين هؤلاء الرجال، الذين كان يعتبرهم تحت ولايته الروحية. وبلغ به الأمر أنه كلما أبصر ثلاثة أو أربعة منا مجتمعين، ترك موقده وهرول نحونا ليحدثنا ويعظنا. وكنا نهرب منه - أما تشارلى (الذى كان لا يعرف السارق) فكان الوحيد الذى يجرؤ على مواجهة الطاهى بنظرات ثابتة واضحة، وكان هذا يثير حنق الرجل الطيب - فيقول له متأوها، وقد ظهر الأسى على وجهه، وعلى ذقنه بقعة من الهباب: «انت اللى سرقتها على ما أعتقد. أيوه انت. اللى زيك يستحق الحرق - إياك تنشر شراباتك عندى تانى». وبعد قليل انتشرت بيننا إشاعة غير رسمية - بأنه إذا ارتكبت سرقة أخرى مماثلة سيتوقف صرف المربى لنا (نصف رطل تموين إضافى لكل منا). وأوقف مستر بيكر هزاره وشتائمه عن المقربين إليه - وبدأ يقبع فى الجميع بتشكك. ووقف القبطان على مؤخرة السفينة ينظر إلينا بعيون ملؤها الشك، ونحن نتجمع فى زمرة صغيرة فى طريقنا بين السلاسل والأعمدة للقيام بعملية شد الحبال كل مساء. لم يكن من السهل إيقاف هذه السرقات على ظهر سفينة تجارية - وكان يمكن أن تفسر على أنها دليل على كراهية البحارة للضباط، وهى ظاهرة غير مرضية قد تؤدى إلى متاعب لا يعلمها إلا الله. وكانت «النرجسة» دائما سفينة آمنة - ولكن الثقة المتبادلة اهتزت - ولم يخف دونكن اغتباطه لتلك الظاهرة أما نحن فقد ضقنا بها.

ثم وبخ بلفاست المتناقض زنجينا بحنق شديد، مما جعل جيمس ويت يشرق وهو مستند بكوعه على الوسادة - ثم لهث قائلا: «هوه أنا طلبت منك تسرق البتاعة الملعونة دى؟ يحرق فطيرتك المقرفة. دى خلت حالتى أسوأ - أنت يا أيرلندى يا ملحوس. أنت!» فهجم عليه بلفاست بوجه ممتقع وشفاه مرتعدة - وهنا هب كل مَنْ فى طابق البحَّارة واقفين وهم يصيحون - وتبعت ذلك فترة هرجٍ شديد - وصرخ واحد منهم بصوت نافذ قائلاً: «حلمك يا بلفاست!..» وخيل إلينا أن بلفاست سيخنق ويت دون جهد يذكر. وتطاير الغبار، وسمعنا فيه سعال

الزنجى ـ ثقيلاً متفجرًا متطايرًا كجرس الطعام ـ وفى اللحظة التالية رأينا بلفاست يتشبث به ويقول متوسلاً: «لا، لا ياجيم ـ ما تعملش كده ـ ده الملاك نفسه ما يقدرش يستحملك ولو أنك عيان» ونظر حوله إلينا من جانب سرير جيمى، وفمه المضحك يرتعش، والدموع ملء عينيه ـ ثم حاول أن يرتب البطاطين غير المنتظمة.

وملأت همسات البحر الدائمة طابق البحَّارة ـ لم نستطع أن نجزم إن كان جيمس ويت مذعورًا أو متأثراً أو تائبًا ـ كان يرقد على ظهره بدون حراك، وإحدى يديه إلى جانبه ـ كأنما قد وصل ضيفه المرتقب أخيرًا. وحرك بلفاست قدميه بعصبية وهو يكرر متأثرًا: «أيوا ـ إحنا عارفين أن حالتك سيئة، ولكن.. بس اطلب اللى أنت عاوزه و.. كلنا عارفين إنك تعبان ـ تعبان خالص..» لا، قطعا لم يكن جيمس متأثرًا أو تائبًا. والواقع أنه ظهرت عليه بعض الدهشة، فهب جالسًا بسرعة وسهولة لا يصدقها العقل وقال: «آه ـ أنتم .. أنتم فاكرين أنى مريض ـ مش كده؟» قالها وهو مكتئب وبصوت جهورى ترتيلى. كان يتكلم أحيانًا فلا يتبادر لذهن مَنْ يسمعه أن به أى وهن: «أنتم فاكرين كده؟.. إذًا تصرفوا بناء على تفكيركم ده. بعضكم ما عندوش إحساس يجعله يرتب فرش واحد عيان! لأ ياللى هناك سيبه ـ أنا أقدر أموت على كل حال!» فابتعد بلفاست وهو يتعثر وقد ثبطت همته ـ وارتفع صوت دونكن وسط سكون طابق البحَّارة وهو ينطق بوضوح: «والله عال!.. أنا حاطق!» ثم ضحك ضحكة ساخرة مبتذلة. فوجه إليه ويت نظرة ودية هادئة ـ وهنا أسقط فى أيدينا، إذ عجزنا عن التكهن بما يرضى مريضنا الغامض، كما عجزنا جميعًا عن تحمل ما انطوت عليه تلك الضحكة من سخرية واحتقار.

كان وضع دونكن على طابق البحَّارة مميزًا ولكن غير مستقر. كان موضع كره الجميع، نتركه وحيدا، فلا يملك فى عزلته هذه سوى التفكير فى رياح رأس الرجاء الصالح. كان يحسدنا على ما نملك من ملابس تقينا البرد والمياه ـ كانت أحذيتنا البحرية ومعاطفنا المشمع، وصناديقنا المليئة بالملابس مثار حقده المرير ـ فلم يكن هو يملك شيئًا واحدًا منها كلها، وكان يشعر بالسليقة أنه إذا احتاج إليها

فى وقت ما، فلن يجد لدى أحدنا استعداداً لإشراكه فيها. ولهذا فقد كان يتملقنا علناً، بينما يحدث الضباط بوقاحة. وكان يأمل أن يحقق بسلوكه هذا نتائج باهرة ـ ولكنه كان واهماً. فأمثاله من المخلوقات الوضيعة ينسون أن الناس إذا استثيروا بشدة يميلون للقصاص سواء رضوا أم كرهوا. ولهذا أصبحت وقاحة دونكن ـ التى عانى منها مستر بيكر طويلاً ـ أصبحت غير محتملة لدينا ـ واغتبطنا كثيراً عندما عاقبه الربان فى إحدى الليالى المظلمة. فقد تصرف بلباقة وكياسة ودون ضجة. كنا قد استدعينا قبيل منتصف الليل للعمل، وصدرت من دونكن كالعادة تعليقات بذيئة، ووقفنا نحن نغالب النوم فى صف واحد، وفى أيدينا الحبل الأمامى ننتظر الأوامر ـ وسمعنا فى الظلام زحف أقدام، ثم صرخة تعجب، وصوت لطمات ورفسات ثم همسات مكتومة:

«آه.. أنت ناوى تعمل كده؟..»

«لا.. أرجوك.. »

«إذاً لازم تتأدب..»

«آه.. آه..»

وبعد ذلك سمعنا صدمات خافتة، اختلطت بصلصلة حديد، وخيل إلينا أن جسم رجل قد تدحرج عاجزاً على مجرى سلسلة الهلب. وقبل أن نتبين حقيقة الموقف، ارتفع صوت مستر بيكر قريباً منا، وقد نفد صبره «غيروا الاتجاه يا رجاله.. واخفضوا الحبل ده!» وفعلاً نفذنا الأمر بحماس وانشراح، وواصل الربان عمله بانتقاداته اللاذعة كالعادة، وكأن شيئاً لم يكن. ولم يظهر دونكن حينئذ بالمرة، ولم نعبأ بذلك، فلو كان الربان قد ألقى به إلى البحر لما قال أحد أكثر من «بركة! إنه رحل!» والواقع أنه لم يصبه أذى يذكر، ولو أنه فقد إحدى أسنانه الأمامية. لاحظنا ذلك فى الصباح وبقينا صامتين، احتراماً للموقف. ذلك لأن أصول اللياقة فى طابع البحَّارة كانت تملى علينا أن نتصنع العمى والخرس فى حالة كهذه، وكنا نعتز بهذه الأصول أكثر من اعتزاز أهل البر بها. وهتف تشارلى وقد أعوزته اللباقة بدرجة مخزية «أنت كنت عند حكيم الأسنان بتاعك؟» «.. لازم

وجعتك، مش كده؟» وهنا تلقى لكمة على أذنه من أحد أصدقائه المقربين. فدهش الصبى، واستولى عليه حزن عميق، ثلاث ساعات على الأقل، وأسفنا لما حدث له، ولكن الشباب أحوج عادة للتقويم من كبار السن. وكشر دونكن عن أنيابه بمرارة. ومنذ ذلك اليوم تجرد قلبه من الشفقة، وقال لجيمى إنه الخداع الأسود، وصدرت منه تلميحات بأننا جماعة وقحة، تتأثر يوميًا بزنجى وضيع. وظهرت على جيمى علامات الارتياح لهذه الشخصية.

وعاش سنجلتون دون أن تمسه أحاسيس البشر. كان هادئًا جادًا - يتنفس بيننا - وكان هذا وجه الشبه الوحيد بينه وبين المجموعة. كنا نحاول أن نكون صبية مهذبين، ولكننا وجدنا ذلك شاقًا للغاية - ولهذا تذبذبنا بين حبنا للفضيلة وخوفنا من السخرية. وأردنا أن نتحاشى وخز الضمير، ولكننا لم نقبل أن نضعف أمام عواطفنا. وخيل إلينا أن رفيق جيمس المقيت قد أثار بأنفاسه الفاسدة فى أغوار قلوبنا مفاهيم لم تخطر على بالنا من قبل. كنا مضطربين جبناء - وعلى علم بذلك - ولكن سنجلتون بدا كأنه لا يعلم ولا يفهم شيئًا. وكنا إلى هذا الوقت نظنه رزينًا كما تنبئ هيئته، ولكننا جرؤنا بعد ذلك على الشك أنه قد أصبح غبيًا بسبب تقدمه فى السن. وفى أحد الأيام وقت العشاء، بينما كنا نجلس على صناديقنا حول صينية معدنية كانت مثبتة على السطح داخل دائرة أقدامنا، عبر جيمى عن احتقاره للناس ولكل شىء بكلمات تثير الاشمئزاز. فرفع سنجلتون رأسه، ولذنا جميعًا بالصمت. وقال الرجل المسن موجهًا حديثه إلى جيمى: «أنت بتموت؟» فاعترى جيمس الذعر والارتباك والدهشة لسؤاله بهذه الكيفية - وكانت مفاجأة مذهلة لنا جميعًا - فظلت الأفواه فاغرة، وخفقت القلوب، ورمشت العيون، وعلت رنة شوكة معدنية فى الصينية، ونهض رجل كأنما ينوى الرحيل ثم وقف ساكنًا. وفى أقل من دقيقة استرد جيمس رباطة جأشه وقال مستضعفًا: «وبتسألنى ليه؟ مش شايف إنى باموت؟» فرفع سنجلتون إلى شفتيه كسرة من البقسماط المنقوع (وكان يعلق دائمًا: «أسنانى فقدت حدتها») وقال «طيب - استمر فى موتك». قالها بلطف ووقار «وما تعملش لنا دوشة على الحكاية دى. إحنا ما نقدرش نساعدك». فارتمى جيمس على ظهره فى سريره، وبقى راقدا

فى سكون فترة طويلة يجفف العرق من ذقنه - وأزاح الكل صحون العشاء بسرعة. وناقشنا الحادث على السطح فى همسات، وظهرت على بعض الوجوه علامات ارتياح لدرجة الضحك المكتوم، بينما علا الحزن وجوه الآخرين - وحاول واميبو بعد أن بحلق وسرح طويلاً أن يصطنع بعض الابتسامات. وفى نوبة الحراسة الثانية اجترأ أحد الإسكندناويين الصغار - بعد أن أقلقه الشك طويلا - على الاقتراب من سنجلتون (ولم يكن الرجل العجوز يشجعنا كثيرًا على الاقتراب منه) وسأله بحرص: «أنت تظن أنه حا يموت؟» فرفع سنجلتون عينيه إلى أعلى وقال بتمعن «بتسأل ليه - طبعًا حا يموت». وبدا هذا حتميًا - وبلغ الخبر للجميع سريعًا، بفضل الفتى الذى استفسر من «النبى». وكان ينهض واقفًا ويقول بخجله وتشوقه «سنجلتون العجوز قال إنه حا يموت» ووجدنا فى ذلك راحة نفسية - فقد تبين لنا أخيرًا أن عطفنا عليه لن يذهب هباء. واستطعنا أن نعاود الابتسام دون شكوك - ولكن دونكن لم ينضم إلينا. فقد أعلن أنه «مش عاوز أية صلة بالأجانب القذرين دول» وعندما جاءه تيلسن بالخبر: «سنجلتون بيقول إنه حايموت» رد عليه بغيظ قائلاً: «وأنت كمان حاتموت يا ألمانى يا أبو راس تخينه. يا ريتكم تموتوا كلكم. بدل ما تيجوا تأخذوا أموالنا لبلدكم اللى حا تموت من الجوع». وجزعنا جميعا لذلك. فقد تبين لنا أن إجابة سنجلتون لم تكن ذات مغزى - وبدأنا نضمر له الكره لأنه يسخر منا، وفقدنا تدريجيًا كل ما لدينا من يقين - فأصبح الشك يشوب علاقاتنا بضباطنا، وكان الطاهى قد فض يده منا لضلالنا، ووصل إلى آذاننا رأى المخزنجى فينا أننا «شلة من ضعاف القلوب» وتشككنا فى جيمى، وفى بعضنا البعض، وحتى فى أنفسنا، وأسقط فى أيدينا. ففى كل جولة تافهة من حياتنا كنا نلتقى بجيمى بقامته الفارعة التى تسد الطريق - جنبًا إلى جنب مع رفيقه المرعب المقنع - كانت عبودية مريعة.

وبدأ ذلك بعد أن تركنا بومبى بأسبوع، ثم استفحل تدريجيًا كأى شر محقق. كان الكل قد لاحظوا أن جيمى منذ بدء الرحلة يقصر كثيرًا فى عمله، ولكننا اعتبرنا ذلك مجرد نتيجة طبيعية لنظرته للحياة. وقال له دونكن: «انت مش بتشد الحبل كفاية» فنظر إليه بازدراء بينما صاح فيه بلفاست يستثيره وقد

استعد للعراك «وانت اللى بتموت نفسك يعنى ـ يا راجل يا عجوز؟» فرد عليه بمنتهى الاحتقار قائلا؛ «أنت مستعد؟» مما جعل بلفاست يتراجع. وفى صباحٍ يوم بينما كنا ننظف طوابق السفينة ناداه مستر بيكر قائلا: «جيب مقشتك عندى هنا يا ويت» فسار نحوه فى خطى ثابتة متكاسلة، فقبع مستر بيكر وقال «أوف ـ اتحرك ـ جرى إيه لرجليك الخلفية؟» فتوقف فجأة، وبحلق ببطء بعينين جاحظتين، وعلى وجهه تعبير حزين جرىء وقال : «العيب فى رئتى مش فى رجلى» وأنصت الكل وتساءل مستر بيكر «إيه.. أوه.. مالهم؟» ووقف جميع الحراس على الأرض المبللة ممتعضين، وفى أيديهم المكانس والجرادل. ورد ويت بحزن «بينتهوا ـ أو انتهوا فعلاً مش شايف أنى راجل بيموت؟ أنا متأكد! » فاشمأز مستر بيكر وقال له: «طيب ليه طلعت معانا على المركب دى؟» فأجابه «أنا لازم أعيش لغاية ما أموت، مش كده برضه؟» فزادت الامتعاضات حتى أصبحت مسموعة، وقال مستر بيكر وقد أسقط فى يده «انزل من على السطح ـ ابعد عن وشى» كانت تجربة فريدة. إذ أطاعه جيمس ويت، فرمى المكنسة وسار ببطء إلى الأمام. وانفجرت خلفه ضحكة . ثم ضحك كل الرجال.. ضحكوا.. للأسف.

وأصبح مصدرًا لعذابنا فى كل وقت. كان أفظع من الكابوس. ولم تكن لتتبين به أى سوء ـ فوجه الزنجى لا ينبىء عما خلفه، وبطبيعة الحال لم يكن بدينًا فوق العادة، ولكنه لم يكن هزيلاً أكثر من غيره ممن عرفناهم من الزنوج ـ كان يسعل كثيرًا، ولكن المتحامل عليه كان يلاحظ أنه يسعل فى أغلب الأحيان طبقًا لأغراضه. وامتنع أو عجز عن أداء عمله ورفض أن يجلس فى فراشه.

كان يقفز يوميًا إلى سطح السفينة مع أحسنهم حالا، وفى اليوم التالى نضطر أن نخاطر بحياتنا لننقل جسده الضعيف إلى تحت.. وكتبت فيه شكاو. وحاسبوه وعاتبوه وهددوه وحاضروه ـ ثم دعى لقمرة القبطان لمقابلته ـ وانتشرت إشاعات جريئة: فقال البعض إنه سخر من الرجل العجوز، وقال آخرون إنه خوفه، وقرر تشارلى أن القبطان «قد باركه وهو يبكى وأعطاه علبة مربى». أما نويلز فقد بلغه من الخادم أن جيمى العجيب كان قد تأوه ثم ترنح بين أثاث القمرة. وشكا من

القسوة والإلحاد السائدين، واختتم المقابلة بأن سعل كثيرًا على كل النشرات التى كان الرجل العجوز قد بسطها على المنضدة. وعلى أية حال عاد ويت مستندًا إلى ذراع الخادم، الذى رجانا بصوت ملؤه الألم والدهشة قائلاً: «يا جماعة ـ واحد منكم يمسكه! ولازم يرقد فى سريره». وشرب ويت قدحًا كاملاً من القهوة، وبعد أن عنف هذا مرة، وذاك أخرى، أوى إلى فراشه ـ ولبث به أغلب الوقت، ولكنه كان يخرج إلى السطح، ويظهر بيننا كلما عن له ذلك. كان شاردًا مشمئزًا، وكان ينظر بعيدًا إلى البحر. وعجز الجميع عن فهم مغزى هذا الرجل الأسود، الذى ينتحى جانبًا وهو مسترسل فى تفكير عميق وساكن سكون التمثال، ورفض بانتظام أخذ الدواء، وكان يلقى بالساجو والبليلة إلى البحر، حتى سئم الخادم تقديمها له. وطلب مسكنًا، فأرسلوا له زجاجة كبيرة تكفى لتسميم عدد كبير من الأطفال، فاحتفظ بها بين وسادته والحائط. ولم يحدث بالمرة أن رآه أحدنا يأخذ منها جرعة واحدة. وكان دونكن يسبه فى وجهه، ويوبخه وهو يلهث. وفى نفس اليوم يعيره ويت قميصًا صوفيًا. وحدث أن ضايقه دونكن مرة لمدة نصف ساعة، وأنَّبه على ما سببه تمارضه من زيادة واجبات غيره من الحراس، وختم حديثه بأن سماه «الخنزير أبو وش أسود». وهنا استولى علينا الذعر متأثرين بضلالنا اللعين، ولكن بدا بوضوح أن جيمى كان يبتهج لهذا السباب، فقد كان البشر يطفو على وجهه عند سماعه. وحصل دونكن فى مقابل ذلك على زوج قديم من أحذية البحر ـ ألقاها إليه ويت وهو يقول: «خذ ـ يا لمامة الحى الشرقى ـ تقدر تأخذ ده».

واضطر مستر بيكر أخيرًا أن يحيط القبطان علما بأن جيمس ويت يعكر صفو السفينة، إذ قبع وهو يقول: «إنه مصمم على أن يضرب بالنظام عرض الحائط.. نعم مصمم. أوف» . وفى الواقع كان حارس الجانب الأيمن من المقدمة على وشك الامتناع عن أداء واجبه، إذ أمره الضابط الإدارى يومًا أن يمسح طابق البحَّارة، ويبدو أن جيمى اعترض على الأرض المبللة ـ وكنا فى ذلك الصباح تحت تأثير نزوة عاطفية، فاعتبرنا الضابط قاسيًا، وقلناها له فعلاً وبصراحة. ولم يحل دون حدوث عركة حامية سوى لباقة مستر بيكر ورقة حديثه. فلم يعتبرنا

جادين، واقترب منا مهرولاً، وأمطرنا بسيل من الشتائم ولكن بلهجة حبية وبروح البحّار، حتى بدأنا نخجل من أنفسنا وكنا فى الواقع نعتبره بحّارًا طيبًا للغاية، لدرجة أننا لا يمكن أن نتعمد إساءته. ثم أن جيمى قد يكون مضللاً بالفعل ـ وكان هذا مرجحًا.

وتم تنظيف طابق البحّارة ذاك الصباح، ولكن بعد الظهر تحولت حجرة السطح إلى مصحة: كانت قمرة صغيرة نظيفة تشرف على سطح السفينة وبها سريران. ونقلت أمتعة جيمى هناك، ثم جيمى نفسه رغم اعتراضاته.. وكان قد أعلن أنه لا يقوى على السير، فحمله أربعة رجال على بطانية، وحزنا عليه ولو أننا ابتهجنا لنقله من طابقنا. وواصلنا السهر على راحته كعادتنا، ولما كانت حجرته مجاورة للمطبخ فقد كان الطاهى يباشره عدة مرات كل يوم. وأصبح ويت أكثر ابتهاجًا ـ وأكد نويلز أنه سمعه يقهقه ضاحكًا، ورآه آخرون يتمشى على ظهر السفينة أثناء الليل. واعتاد أن يترك بابه مواربًا ويثبته بشنكل طويل، وكان مخدعه الضيق معبقًا دائمًا بدخان التبغ. وكنا كلما مررنا عليه أثناء انشغالنا بعملنا نكلمه من شرخ الباب ضاحكين، وأحيانًا ننطق ببعض الشتائم. كنا مأخوذين به، لم يكن يدعنا نتحرر من شكوكنا، وكان يخيم على السفينة بأسرها لا يمسه أذى لقرب أجله، يستخف بكرامتنا، ويشهدنا يوميًا على افتقارنا للشجاعة المعنوية، ويشيع الوهن والارتباك فى حياتنا ـ ولو كنا عصبة من الملاعين المخلدين، لا يساورها أمل ولا خوف، لما استطاع أن يؤثر علينا هكذا بتأكيده الدائم لامتيازه الرفيع دون أن يشفق علينا.

(٣)

وفى تلك الأثناء كانت النرجسة تمضى فى طريقها بأشرعة مبسوطة، تاركة خلفها رياح الخماسين المواتية. ودلفت ببطء وهى تتأرجح حول البوصلة أمام رياح هادئة سادت بضعة أيام ـ وكان الرجال يبدون امتعاضهم وهم يلفون الأشرعة من جانب لآخر تحت رذاذ دافئ قليل. وأمسكوا الحبال المشبعة بالماء وهم يتأوهون ويتنهدون، بينما واصل ضباطهم المبللون المتعضون إصدار

أوامرهم دون انقطاع. وبأصوات لا تعرف الكلل. وفى فترات الراحة القصيرة كانوا ينظرون بتأفف إلى بطون أكفهم المتصلبة وقد برح بها الألم، ويتساءلون بمرارة: «من ذا الذى يختار عمل البحَّار وفى وسعه أن يعمل فلاحًا؟» كانت الأمزجة قد تعكرت جميعًا، ولم يعد أحد يكترث بما يقول. وفى أمسية حالكة الظلام، وبعد أن قضى الحراس بين الحبال أربع ساعات مضنية ومميتة. يلهثون من الحر ويكادون أن يغرقوا فى المطر. أعلن بلفاست أنه «بطل إلى الأبد يشتغل بحَّار مركب، وحا يشتغل على باخرة» وكان هذا بلا شك تجاوزًا للحدود. أما كابتن أليستون فكان يحدث مستر بيكر وهو يتمتم بحزن، وبكثير من ضبط النفس: «ليس الأمر سيئًا لهذه الدرجة» وكان قد وفق بعد جهود مضنية فى دفع سفينته الأنيقة ستين ميلاً فقط فى أربع وعشرين ساعة كاملة. وعلى عتبة القمرة الصغيرة وقف جيمى، ذقنه فى يده، يرقب جهادنا المرير بعيون جريئة مكتئبة. كنا نحدثه برقة، ثم نتبادل خلسة ابتساماتنا اللاذعة خلف ظهره.

ثم مضت السفينة بنا ثانية تطوى المسافات جنوبًا تحت سماء صافية ورياح مواتية. فمرت خارج مدغشقر وموريتانيا، دون أن نلمح أثرًا للبر. وزودت الصوارى بحبال إضافية وكشف البحَّارة على فتحات عنابر البضاعة، وتولى الخادم وعلى وجهه علامات القلق، تثبيت الألواح الخشبية على أبواب القمرات، فى وقت فراغه. وقام غيره بثنى الشراع العملاق بعناية. وتطلعت الأبصار القلقة تجاه رأس العواصف. وبدأت السفينة تخفض شراعها المنتفخ تجاه الجنوب. وفوق رءوسنا استبدلت سماء المناطق الاستوائية بضيها الخافت بريقًا متزايدًا يومًا بعد يوم، وبدت فوق السفينة كقوس عال، متذبذب شاحب، وكأنها قبة هائلة من الصلب تدوى بصوت الرياح المنعشة. ولمعت الشمس الباردة على الثنايا البيضاء فى الموج الأسود. وأمام قوة الأعاصير الغربية خفضت السفينة شراعها وتباطأت مترددة بين العند والاستسلام. فتحركت من جهة لأخرى فى محاولة دائبة لشق طريقها خلال الرياح العنيفة غير الخفية. كانت تندفع بطولها إلى أغوار مظلمة ملساء، ثم تكافح لترتفع فوق رءوس الثلوج المدببة، التى تغطى بحرًا مائجًا شاسعًا، ثم تتلوى فى قلق، من جنب لآخر، كأنها مخلوق يتألم. وكانت

تستجيب لدعوة رجالها فى بسالة وصمود، بينما بدت صواريها المشوقة وهى تهتز دائبة فى حركة نصف دائرية مقتضبة، كأنها تلوح مستجدة بالسماء الصاخبة دون جدوى.

لقد كان الشتاء قاسيًا تلك السنة خارج مدينة الكاب، وكان ماسكو الدفة بعد انتهاء دورتهم يهرولون وهم يرفرفون بسواعدهم، أو يجرون بخطى ثقيلة وهم ينفخون فى أصابعهم الحمراء المتورمة. أما حارس السطح فكان يقفز هنا وهناك استحاشى لذعات الرذاذ القارس، أو يختبئ منحنيا فى أحد الأركان المحمية، يرقب باستياء كيف يهاجم الموج العاتى السفينة دون هوادة، مرة بعد أخرى، وبثورة لا تخمد. واستحالت المياه المتلاطمة فوق أبواب طابق البحّارة إلى شلالات ـ وكان عليك أن تندفع خلال واحد منها لتصل إلى سريرك الرطب. وكان الرجال يدخلون مبللين ويخرجون متصلبين، ليواجهوا ما يفرضه مصيرهم المجيد المطموس، من واجبات تهدى ولا ترحم. وبعيدًا نحو المؤخرة كنت ترى الضباط من خلال ضباب الرذاذ، يرصدون اتجاه الريح بحرص ويقظة. كانوا يقفون منتصبين صامدين بجوار سور المرصد، يلمعون فى معاطفهم الطويلة، وأحيانًا، أثناء الغطسات غير المنتظمة للسفينة المغلوبة على أمرها، كانوا يظهرون فى القمة، منتبهين ساكنين، يرتفعون ويهبطون بعنف تحت خط الأفق الرمادى الملبد بالغيوم.

ولبثوا يرقبون السفينة والجو كما يرقب أهل البر فرص الحظ الخاطفة ـ فلم يغادر كابتن أليسون السطح بتاتًا، وكأنه جزء لا يتجزأ من أجهزة السفينة ـ وبين آن وآخر كان الخادم يكافح وهو ينتفض ـ ولكن دائمًا فى قميصه الخفيف ـ ليقدم له قدحًا من القهوة الساخنة، تذهب الرياح بنصفه قبل أن يصل إلى شفتى الريس، فيشرب وهو مهموم ما تبقى فى جرعة واحدة طويلة، بينما يتساقط الرذاذ الثقيل بطنين عال على معطفه المشمع، ويرتطم الموج القاصف برقبة حذائه العالى، دون أن يرفع عينيه أبدًا عن السفينة. كان يرقب كل حركة تأتى بها، ولبث مصوبًا نظرته الفاحصة نحوها كما يفعل الرجل المحب وهو يرقب امرأة ضعيفة البنية، تعانى متفانية من آلام المخاض، ويتوقف على خيط حياتها

الرفيع كل معانى الحياة ومسراتها. كنا كلنا نرقبها. كانت جميلة ولها نقطة ضعف. ولو لم يقلل ذلك من حبنا لها. فامتدحنا خصالها علناً، وتفاخرنا بها فيما بيننا كما لو كانت خصالنا نحن، وكتمنا إحساسنا بضعفها فى أعماق قلوبنا.

كانت قد ولدت فى عاصفة من زعابيب الدخان الأسود، ودوى المطارق على الحديد، تحت سماء داكنة، على ضفاف نهر كلايد. واعتاد النهر الصاخب المظلم أن يمنح الحياة لأجسام جميلة، تبحر بعيدًا حيث الشمس المشرقة ليولع بها الناس هناك. وكانت «النرجسة» واحدة من هذا السرب، لم تكن فى كمال غيرها من السفن، ولكنها سفينتنا، ولهذا لم يكن لها فى نظرنا مثيل. كنا فخورين بها، وكان أهل البر البسطاء فى بومبى يشيرون إليها بقولهم «هذه السفينة الرمادية الجميلة» «جميلة!» يا له من مديح بخس! كانت فى نظرنا أروع مركب نزلت البحر. وحاولنا أن ننسى أنها أحيانًا، كسائر سفن البحر الجيدة - معرضة للجنح أو الانقلاب - وكانت تفرض علينا الكثير - فهى تحتاج إلى عناية فى التجميل والقيادة، ولم يكن واحد منا يعلم بالضبط أى قدر من العناية يكفيها. وتلك نقائص البشر. أما هى فكانت تعلم ما لا نعلمه، وكانت تتولى أحيانًا تقويم قصورنا كبشر بنظام التخويف المفيد. كنا قد سمعنا قصصًا مقبضة عما أصابها من نحس فى سفريات ماضية. وكان الطباخ (وهو رسميًا رجل بحر ولكنه فى الواقع ليس بحّارًا) كلما اعتل مزاجه بحادث ما، مثل انقلاب آنية الطهى، يبرطم فى وجوم وهو يمسح الأرض قائلاً: «آهيه، شوفوا عملت إيه! مصيرها تغرق الكل فى سفرية من سفرياتها! بكرة تشوفوا لو ما حصلش ده!» ويرد الخادم على هذا لحظة دخوله المطبخ ليلتقط نفسه من العجلة والهموم التى تتسم بها حياته، يرد متفلسفًا: «على كل حال اللى يشوفوا مش حا يعيشوا لغاية ما يحكوا. أنا شخصيًا مش عاوز أشوف!» وكنا نستنكر مخاوفهم هذه - إذ كانت قلوبنا مع الرجل العجوز وهو يضغط بشدة ليجعل السفينة تحفظ توازنها، وتفيد من كل بوصة تكسبها جهة الريح، ثم تبطئ فى حذر لتقفز منحرفة على الأمواج الهائلة.

وانعقد شمل الرجال نحو المؤخرة فى مجموعة متأهبة بمجرد سماعهم أول أمر حاد يصدره ضابط تقدم ليتولى زمام السطح فى الجو الردىء: «كونوا

مستعدين لأى طارئ!» ووقفوا جميعا يتأملون بسالتها بإعجاب ـ كانت عيونهم ترمش مع الريح، وانهمرت على وجوههم المظلمة قطرات ماء أكثر ملوحة ومرارة من دموع البشر، وتدلت لحاهم وشواربهم المبللة وهى تقطر ماء كأعشاب البحر الدقيقة ـ واستحالت هيئتهم إلى صورة خيالية: يلبسون أحذية برقاب طويلة، وقبعات كالخوذات، ويتمايلون بضعف، وقد تصلبت أجسامهم وتضخمت فى معاطف لامعة من المشمع ـ كانوا أشبه برجال يتهيئون لمغامرة أسطورية: وكلما ارتقت السفينة بسهولة قمة البحر الأخضر اندفعت الكيعان فى الضلوع، وتألقت الوجوه، وتمتمت الشفاه: «ألم تتحرك بمهارة؟» وتلتفت الوجوه جميعًا كوجه واحد لتنظر بشماتة إلى الموجة المغلوبة، وهى تزأر متراجعة إلى جانب السفينة المحمى من الريح. ثم تبيض وهى ترغى وتزبد فى ثورة عارمة. أما إذا لم يسعف السفينة الوقت وتلقت ضربة قوية، ومالت تهتز تحت وقعها تشبثنا جميعًا بالحبال، ونظرنا إلى أعلى نحو البقية الباقية من الأشرعة المشدودة المشبعة بالمياه، وهى تلوح بيأس إلى أعلى، ثم نحدث أنفسنا «لا عجب ـ يا للمسكينة!».

وبدأ اليوم الثانى والثلاثون بعد رحيلنا عن بومبى بظروف غير مواتية. ففى الصباح حطمت الأمواج أحد أبواب المطبخ فاندفعنا مخترقين البخار الكثيف لنجد الطاهى مبللاً وفى منتهى الاستياء من السفينة: «دى حالتها بتسوء من يوم ليوم. آهى بتحاول تغرقنى جنب فورنى!» كان فى شدة الغضب، فهدأنا من روعه، ونجح النجار فى إصلاح الباب رغم أن المياه أغرقته ودفعته بعيدًا مرتين. ولهذا السبب تأخر إعداد عشائنا، أما كابتن آليستون، الذى بدا أكثر صلابة ومثابرة وصمودًا عن عهدنا به فى أى وقت مضى، فقد لازم الأشرعة الرئيسية والأمامية، ورفض أن يعترف بالحقيقة وهى أن السفينة بعد أن كلفت بما لا طاقة لها به بدت لأول مرة منذ عهدنا بها فى حالة يأس تام: فكفت عن محاولة الارتقاء إلى السطح، وأخذت تمخر عباب البحار وهى عابسة. وبعد أن جرت مرتين كأنما عميت أو ضاقت بالحياة، زجت برأسها عامدة فى موجة عالية اكتسحت الأسطح من أدناها لأقصاها. وكان الضابط الإدارى محقًا حين قال فى استياء ملحوظ يرقبنا نغطس برمتنا محاولين إنقاذ صنبور لا قيمة له: «كل شىء

على المركب الملعونة حايقع فى البحر بعد الظهر». أما سنجلتون الوقور فقد خرج عن صمته المعتاد وقال وهو ينظر إلى أعلى: «الراجل العجوز غضبان من الجو، ولكن ما فيش فايدة من الغضب من رياح السماوات»: وكان جيمى قد أغلق بابه طبعًا، وكنا على يقين أنه مستريح ودافئ فى قمرته الصغيرة. وعلى طريقتنا السخيفة ارتحنا لهذا اليقين لحظة لتضيق به فى اللحظة التالية. أما دونكن فقد تلكأ دون خجل، وكان قلقًا حقيرًا. وبرطم قائلاً: «أنا باموت بره من البرد فى هلاهيلى «اللعينة» المبلولة، والضيف الأسود قاعد ناشف على صندوق «ملعون» مليان هدوم «ملعونة». طلعت روحه السودا!» ولم نعره انتباها فلم نكن نملك التفكير فى جيمى ولا صديقه المقرب. لم يكن لدينا وقت للتأمل العاطفى: إذ طارت الأشرعة طليقة وتفكك كل شىء. وغسلتنا الأمواج ونحن نعانى من البرد والبلل على السطح، نحاول إصلاح ما تلف.

وهزت الأنواء السفينة بعنف فأخذت تعلو وتهبط كأنها لعبة فى يد مجنون. وعند الغروب اندفع الكل لخفض الشراع إذ توجسنا خيفة من سحابة صقيع مظلمة. وهنا هبت ريح عاتية بوحشية كأنها تكيل اللكمات للسفينة التى تلقتها بشجاعة بعد أن تحررت من قلعها فى الوقت المناسب: وبعد أن استسلمت كارهة للهجوم العنيف ارتفعت وفورة عاتية، لتشكم بصواريها أسنان الرياح الصاخبة. هنا فاضت أغوار السحاب الأسود المطل على رءوسنا بصقيع أبيض تساقط على السفينة، ورددت أجهزتها دقاته الخفيفة. ثم انزلق فى حفنات على ألواحها ليرتد ثانية إلى السطح على شكل كرات دقيقة، تألقت فى الضوضاء كأنها سيل من اللؤلؤ - ثم انتهت. ولفترة قصيرة صوبت الشمس الشاحبة، فى خطوط أفقية، أشعتها الأخيرة المقبضة على تلال الأمواج المنحدرة المتدافعة، وهجم ليل موحش ليطرد بعوائه المدوى البقية المقيتة ليوم عاصف.

ولم نذق النوم على ظهر السفينة تلك الليلة. وأغلب رجال البحر يذكرون من حياتهم ليلة أو ليلتين من تلك التى تبلغ فيها العاصفة أوجها - وحينئذٍ يهيأ للمرء كأن لم يبق من الكون بأجمعه شىء سوى الظلام والضجيج والغضب - والسفينة. وهذه تهيم، كالأثر الأخير لخليقة محطمة. تحمل البقية الحزينة من البشرية

الآثمة. يغمرها الأسى والألم والضجيج من رعب الانتقام. ولم ينم أحد فى عنبر البحَّارة. وتدلى مصباح الغاز المعدنى بدوبارة طويلة يرسل دخانه فى دوائر واسعة، وظهرت على الأرض اللامعة أكوام داكنة من الملابس المبللة، وتحركت طبقة رقيقة من الماء هنا وهناك. واستلقى الرجال بجوار الأسرة على كيعانهم وبأحذيتهم دون أن يغمض لهم جفن. وتأرجحت سترات المشمع. المبللة للداخل والخارج، بحيوية وهرج، وكأنها أشباح طائشة لبحَّارة طارت رءوسهم، ترقص فى عاصفة. ولم يتكلم أحد وأنصت الكل، وسمع فى الخارج أنين الليل وعويله مصحويًا بضوضاء مستمرة كطبول عديدة تدق على بعد. وسرت خلال الهواء صرخات نافذة، وأخذت هبات واسعة من الرياح الراكدة تهز السفينة وهى ترزح تحت عبء البحار المترنحة فوق سطحها. وكانت ترتفع أحيانًا بسرعة كأنها تُغادر هذا العالم إلى الأبد، ثم ترتمى فى غور لفترات لا نهائية، وتقف قلوب كل مَنْ عليها، إلى أن تعيدهم للحياة صدمة مريعة ـ متوقعة وفجائية، تتلوها خبطة عالية. وكان واميبو، الذى تمدد بطوله، ووجهه على الوسادة، يتأوه قليلاً بعد كل هزة مثيرة للسفينة، وكأنه يشارك الكون المعذب آلامه. ومن آن لآخر يمر جزء غير محتمل من الثانية، ترتكز فيه السفينة على جانبها بانفجار صاخب مرعب، وتتذبذب فى سكون أفظع من أعنف حركاتها. وهنا تسرى رعشة فى جميع الأجسام المنبطحة، تلك هى قشعريرة الشك. ويمد أحد الرجال، بدافع الاستطلاع، رأسه وعينيه البرَّاقتين إلى نطاق الضوء الساطع، ويحرك البعض أرجلهم كأنما يستعدون للقفز للخارج. ولكن يبقى أكثرهم مستلقين على ظهورهم دون حراك وقد تشبثوا بإحدى اليدين بحواف الأسرة، يدخنون فى عصبية وبنفثات سريعة، ويحلقون إلى أعلى ـ ملتمسين السلم فى شغف يشل حركاتهم.

وعند منتصف الليل صدرت الأوامر بلف الشراعين الأمامى والخلفى، فزحف الرجال، بجهود مضنية، إلى أعلى، فى كفاح مرير حتى أنقذوا الشراع، ثم زحفوا عائدين، منهوكى القوى، ينصتون لاهثين إلى لطمات البحار القاسية، وربما لأول مرة فى تاريخ البحرية التجارية لم ينفذ الحارس الأمر بالنزول وبقى على السطح، كأنما سحرته روعة القوة الغاشمة. وبعد كل لفحة ثقيلة من الريح كان

الرجال يتهامسون، وقد تكوموا جميعًا: «ما فيش أقوى من كده أبدًا!» وهنا تبادر الريح لتكذيبهم بصرخة نافذة تعيد أنفاسهم ثانية إلى حلوقهم. ثم هبت زوبعة مريعة لتفتت بانفجارها الكتلة السميكة من الأدخنة السوداء. وهنا انبعثت من القمر العالى، خلال شعب السحب الممزقة، ومضات خاطفة، اندفعت خلفا عبر السماء، بسرعة مريعة لتستقر فى عيون الريح. وبعد قليل تماسكت السحب. واحتوى العالم ثانية ظلام دامس. صاخب. أخذ يعوى وهو يرمى السفينة فى وحشتها بالصقيع والرذاذ المالح.

وحوالى السابعة والنصف استحالت الظلمة الحالكة حولنا إلى لون رمادى شاحب، فعلمنا أن الشمس قد طلعت. ولم يكن لهذا الضوء الغريب الكئيب - الذى تبين فيه بعضنا البعض عيون جاحظة ووجوه واجمة - لم يكن له من أثر سوى إضافة عبء جديد على كاهلنا. وبدا الأفق كأنه يطبق على السفينة من كل جانب وعلى بعد ذراع واحد منها - وكانت البحار الهائجة تزحف إلى تلك الدائرة الضيقة، تكيل الضربات ثم تنحسر. وتطايرت القطرات الثقيلة المالحة فى خطوط مائلة كالضباب. وكان لابد من بسط الشراع العلوى - فاستعد الكل فى استسلام وقنوط، للصعود مرة ثانية. ولكن الضباط هتفوا واندفعوا للخلف. ففهمنا أخيرًا أنه لن يسمح لرجل آخر بالصعود إلا عند الضرورة القصوى. ولما كان من المحتمل فى أية لحظة أن تقفز الصوارى أو تطير فى البحر، فقد استنتجنا أن القبطان لم يشأ أن يرى كل رجاله يسقطون دفعة واحدة. وكان هذا معقولاً. وبدأ الحرَّاس العاملون حينئذٍ يكافحون ليصعدوا فوق الحبال. وكانت الرياح تهب فتسطحهم على السلم، ثم تهدأ قليلاً حتى يصعدوا درجتين لتعود بهبة مفاجئة فتثبت كل الزاحفين على القلاع فى أوضاع المصلوبين.

وقفز حرَّاس آخرون إلى الكاويرتة ليناولوا الشراع، وكانت رءوس الرجال تعلو وتهبط والماء يدفعهم من جانب لآخر. ووقف مستر بيكر فى وسطنا، يقبع مشجعًا، ويتحرك فى حيوية ونشاط.

وبفضل فترة ركود كئيبة لا يعول عليها، أمكننا إنهاء العمل دون أن نفقد أحدًا من على السطح. وحينئذٍ خيل إلينا أن الريح بدأت تتحرك، وأن السفينة وقد

استشعرت بالجميل لما بذلنا معها من جهود مضنية، استعادت شجاعتها وأفادت من الرياح المواتية.

وفى الساعة الثامنة انتهز بعض الرجال فرصة انتهاء نوبتهم فأسرعوا يلتمسون قسطًا من الراحة فوق السطح الغارق بالمياه. أما النصف الآخر من البحَّارة فقد بقوا عند المؤخرة ليؤدوا دورهم فى «الأخذ بيدها لاجتياز متاعبها بسلام، على حد قولهم، وحاول الضابطان إقناع الريان بالنزول للراحة. فقبع مستر بيكر فى أذنه قائلاً: «أوف.. طبعًا.. الآن أوف.. يمكنك أن تعتمد علينا أوف.. ولم يبق هنا مجال للعمل.. فهى أما أن تقف أو تسير. أوف.. أوف..» «أما مستر كريتون الفتى الطويل، فقد قال وهو يبتسم مبتهجًا».. دى ماشيه زى الساعة! ما تريح شويه يا ريس «فنظر الريان إليهم بجمود وعيون حمراء ساهرة. كانت جفونه محتقنة الحواف، وكان يحرك فكه حركة مستمرة بجهد بسيط كأنه يمضغ قطعة من المطاط. وهز رأسه بالرفض وعاد يقول «لا تفكروا فىَّ، فعلىَّ أن آخذ بيدها.. علىَّ أن آخذ بيدها من مأزقها».. ولكنه وافق على الجلوس لحظة وهو ملتفت بوجه ثابت تجاه الريح. وبصق البحر فى وجهه حتى انهمر الماء عليه وكأنه يبكى. وعند المؤخرة كان الحرَّاس يحاولون تبادل كلمات التشجيع وهم معلقون على الحبال السفلى وعلى بعضهم البعض. ووقف سنجلتون يهتف أمام العجلة: «حاسبوا على روحكم» فهزهم صوته الذى وصل إلى آذانهم مجرد همسات محذرة.

وخرج من الضباب بحر عال مرتفع يكسوه الزبد، اتجه نحو السفينة وهو يزأر بوحشية، وبدا فى هجماته شريرًا مخيفًا، كمجنون يحمل فأسًا، وهنا صرخ واحد أو اثنان منهم وهم يتشبثون بالحبال. أما غالبيتهم فقد تسمروا حيث كانوا، تكاد أنفاسهم المكتومة أن تخنقهم. وحشر سنجلتون ركبتيه تحت صندوق العْجلة، وأدار الدفة بتؤدة مع اتجاه السفينة، دون أن ينقل عينيه عن الأمواج المقبلة. وارتفعت هذه كالأبراج قريبة وعالية ـ وكأنها حائط من الزجاج الأخضر يعلوه الثلج. فقفزت السفينة إليها ـ كأنها تحلق بأجنحة، ولبثت لحظة مرتكزة على الزبد، كطائر بحرى عظيم. وقبل أن نلتقط أنفاسنا تعرضت لضربة قوية من ريح

عاتية، تبعتها موجة عالية أخرى جعلتها تميل فجأة حتى أغرقت المياه سطوحها، فقفز كابتن آليستون إلى أعلى ثم وقع، وتدحرج فوق آرتشى وهو يصيح «إنها تعلو» ومالت مرة ثانية فغطست العيون السفلى، وطارت أقدام الرجال فتعلقوا فوق المؤخرة المنحدرة وهم يرفسون. ورأوا السفينة تميل بجانبها فى الماء فصاحوا جميعًا «إنها تهبط!» وفى المقدمة انفتحت أبواب عنبر البحَّارة، ورؤى الحراس يقفزون الواحد بعد الآخر وقد رفعوا سواعدهم إلى أعلى ليقعوا على أيديهم وركبهم، ثم زحفوا على أربع إلى الجانب المرتفع من السطح، وكان أشد انحدارًا من سطح المنزل. وارتفعت الأمواج من جانب السفينة غير المعرض للريح فبدأ عليهم البؤس وهم يكافحون فى يأس كالديدان والطيور البحرية تولى هاربة أمام الفيضان.

وتدافع الكل يصعدون سلم المؤخرة الواحد تلو الآخر ـ يحلقون بوحشية ـ وهم نصف عراة. وبمجرد أن صعدوا اندفعوا مجموعات نحو الجانب المحمى من الريح، وقد أغمضوا عيونهم، وكانت كمية المياه الضخمة التى اندفعت إلى الأمام قد دهمت باب البحَّارة ففتحته على مصراعيه. ورأوا صناديقهم ووسائدهم وأغطيتهم وملابسهم تخرج عائمة فوق سطح البحر. فنظروا باستياء وهم يكافحون ليعودوا جهة الريح. وعامت أسرة القش إلى أعلى وتموجت البطاطين المنبسطة، بينما انقلبت الصناديق بعد أن ملأتها المياه، لتتغرس بثقل كأنها أجسام سفن فقدت صواريها قبل أن تغرق. ومر معطف آرتشى الكبير بذراعين ممدودين فبدا أشبه ببحَّار غريق طفا جسمه وغطست رأسه تحت الماء. وكان الرجال ينزلقون إلى تحت وهم يحاولون حشر أصابعهم بين الألواح ـ والتصق آخرون بالأركان وقد اتسعت حدقات عيونهم المبحلقة. وكان الجميع يهتفون دون توقف! «الصوارى ـ وطوها. وطوها..» وسمع عواء ريح سوداء تهب على السفينة التى نامت على جانبها وقد ارتفع ذراعا مقياس الريح يشيران إلى السحب، بينما مالت الصوارى حتى كادت توازى الأفق فبدت أطول من أن تقاس. وأفلتت يد النجار فتدحرج على السلم، وبدأ يزحف إلى مدخل القمرة، حيث أعدت فأس كبيرة من قبل لمثل هذا الخطر المفاجئ. وفى تلك اللحظة انفصل قماش الشراع

العلوى وطارت السلسلة الثقيلة فى صخب إلى أعلى، فلمع سيل من الشرر الأحمر خلال الرذاذ المتطاير. ورفرف الشراع مرة بالتواءة قوية انخلعت معها قلوبنا. وتحول فى لحظة إلى باقة من الأشرطة الرفيعة المتطايرة. تشابكت فى عقد ثم هدأت على طول الصارى المائل. وكافح كابتن آليستون حتى استطاع أن يقف بوجهه قريبًا من السطح الذى كان الرجال يتأرجحون على الحبال فوقه. وكأنهم يسطون على عُش طائر فوق سطح صخرة بحرية. وكان يقف بإحدى قدميه فوق صدر شخص ما، بوجه قرمزى وشفاه متوترة. وكان هو الآخر يهتف. وهو ينحنى «لا! لا وزأر مستر بيكر وإحدى ساقيه على قاعدة صندوق البوصلة» «أنت قلت لا؟ ما نوطيش؟» وهز الأول رأسه بحركة هستيرية لا! لا!» وسمعه النجار وهو يزحف فتداعى مستلقىً بطوله فى زاوية السلم. وتداولت الأصوات صيحته «لا الا» ثم سكن الجميع وهم ينتظرون أن تنقلب السفينة برمتها وتبعثرهم جميعًا فى البحر.

ومع صخب الرياح والبحار الثائرة لم ينبس هؤلاء الرجال بهمسة امتعاض واحدة ولو أن كلا منهم كان يتوق، مهما كلفه ذلك من سنى حياته، أن يرى «هذه العصى» الملعونة «ملقاة في البحر» وكان الكل يعتقدون أنها فرصتهم الوحيدة للنجاة، ولكن رجلاً ضئيلاً، ذا وجه جامد، هز رأسه الشايب وصاح «لا» دون أن يعيرهم نظرة واحدة. فسكتوا وهم يلهثون. وقبضوا على القضبان وكانوا قد لفوا أطراف الحبال المجدولة تحت سواعدهم، وتشبثوا بالحلقات، وزحفوا فى أكوام حينما وجدوا مكانًا لأقدامهم، وتعلقوا بسواعدهم، واتخذوا من كيعانهم وذقونهم وحتى أسنانهم خطاطيف يثبتون أنفسهم بها فى مواجهة الريح. وشعر بعضهم ممن عجزوا عن العودة زحفًا من حيث ألقت بهم الريح، (شعروا) بالبحر يزحف إليهم ويضربهم فى ظهورهم يكافحون للصعود. وكان سنجلتون قد التصق بالعجلة - وتطاير شعره فى الهواء فخُيل لنا أن الإعصار يجذب غريمه الأبدى من ذقنه، ويهز رأسه المسن. ولكنه رفض أن يستسلم وبعد أن ثبت ركبتيه فى قضبان العجلة أخذ يعلو ويهبط كأنه يتأرجح على غصن شجرة.

ولما ظهر لهم أن رسل الموت لم يصلوا بعد بدءوا ينظرون حولهم. وكانت قدم دونكن قد علقت فى ثنية حبل فتدلى تحتنا برأسه إلى أسفل ووجهه إلى السطح

وهو يهتف: «وطى! وطى!» فانحنى رجلان نحوه بحرص وشد آخرون الحبل، ثم لقفوه ودفعوه إلى مكان آمن وأمسكوه، وكان يسب الربان بأعلى صوته، ويلوح له بقبضة يده بوقاحة متناهية. ويحدثنا بألفاظ نابية: «وطى! ولا يهمك كلام قتال القتلة الأبله! اخفض! انت وهو!» وهنا كال له أحد منقذيه بظهر يده لكمة فى فمه، جعلت رأسه يرتطم بالسطح. وفجأة سكن تمامًا، وشحب وجهه وهو يتنفس بصعوبة وسالت قطرات الدم من شفتيه المقطوعة.

وفى جانب السفينة المحمى من الريح شوهد رجل آخر ممددًا، كمن ضرب على رأسه فخر مغشىً عليه. ولولا اللوح الواقى لسقط على جانب السفينة. ولم يكن هذا سوى الخادم. واضطررنا لرفعه إلى أعلى كالجوال، إذ كان الفزع قد شله على الحركة، وكان قد اندفع خارج المقصف عندما شعر بالسفينة تميل، ثم انحدر فى عجز إلى تحت وقد قبض بقوة على قدح من الصينى. وبقى الأخير سليما لم يكسر. وخلصناه من يده بعناء وعندما رآه فى أيدينا أخذته الدهشة وأخذ يسأل بصوت متوتر: «منين جبتوا البتاع ده؟» وكان قميصه قد استحال إلى قصاقيص، وأخذت أكمامه الممزقة تخفق كالأجنحة. فربطه رجلان بحبل لفوه عليه مرتين فبدأ أشبه بحزمة من الهلاهيل.

وزحف مستر بيكر على طول صف الرجال يتفحصهم ويسأل «انتو كلكم موجودين؟» فأغمض البعض عيونهم بضعف، وهز آخرون رءوسهم بغصة، ووقف واميبو برأسه مدلى على صدره، وتنفس الكل أنفاسًا ثقيلة وهم فى أوضاع مضنية، بين جرحى ومنهكين وملتصقين بالأركان، وكانت شفاههم الممطوطة تنفرج استعدادًا للصياح مع كل حركة سقيمة للسفينة المقلوبة. وردد الطاهى بدون وعى صلواته وهو يحتضن عامودًا خشبيًا. وكلما سكنت الضوضاء الجهنمية سمع صوته وهو واقف بطاقيته وشبشبه، يبتهل إلى رب الخلق أن يحميه من الفتنة. وبعد لحظة سكت هو الآخر. وفى هذا الجمع الغفير من الرجال الذين كانوا يعانون من الجوع والبرد وينتظرون الموت العنيف فى إعياء، لم يسمع صوت واحد. كانوا صامتين ينصتون للوعيد المرعب للإعصار وقد استغرقوا فى تفكير عميق.

ومرت الساعات.. كانوا يحتمون من الريح فى ميل السفينة الشديد، وكانت تهب على رءوسهم بأنين طويل متصل. ولكن سيول المطر الباردة كانت أحيانًا تغمرهم فى مأواهم الهادئ. وهنا تصطك الأسنان، وينكمش زوج من السواعد متأثرًا بهذا اللون الجديد من العذاب.

ثم انقشعت السحب عن السماء فأشرقت على السفينة شمس ساطعة. وكانت أقواس قزح الزاهية الزائغة تتكسر فى الرذاذ المتطاير حول بدن السفينة الهائم، بعد كل هجمة للبحار العاتية. وقارب الإعصار نهايته بضربة واضحة بُراقة قاصفة كالسكين. وكان شارلى يقف بين بحَّارين مسنين ملتحيين،وقد ربطه أحدهم بكوفيته الطويلة إلى إحدى الحلقات. وكان ينتحب بهدوء بدموع ضنينة انتزعتها منه مشاعر الدهشة والجوع والبرد والبؤس الشامل. ولكزه أحد جاريه فى ضلعه وهو يسأل بجفاء: «ما لخدك ياجدع؟ ده أنت فى الجو المعتدل ما حدش يقدر عليك». ثم استدار بروية وخلع معطفه وألقاه على الصبى. واقترب جاره الثانى وهو يبرطم: «حاتخرج منها راجل داهية يا بنى» ثم طرحوا بسواعدهم إلى أعلى وكبسوه بها. أما شارلى فقد رفع قدميه إلى أعلى وانسدلت جفونه. ولما تبين للرجال أنهم لن «يغرقوا بسرعة» سمعت تنهداتهم وهم يلتمسون أوضاعًا أكثر راحة.

ورقد بيننا مستر كريتون وقد زم شفتيه - إذ كانت ساقه قد أصيبت - وحاول بعض الرفاق من طاقم حراسته أن يساعده على اتخاذ وضع أفضل - فرفع ذراعيه الواحد بعد الآخر مستسلمًا ليسهل مهمتهم دون أن ينبس بكلمة أو يلقى نظرة، بل دون أن تتحرك عضلة واحدة فى وجهه الصارم الفتى. وسألوه فى شغف «دلوقتى أحسن يا سيدى؟»

فأجاب باقتضاب: «كفاية كده». كان ضابطًا فتيًا قويًا، ولكن الكثير من رجاله اعتادوا أن يقولوا إنهم يحبونه كثيرا «لطريقته الراقية عندما يشتمنا فوق وتحت السطح» أما الآخرون ممن لم يلمسوا فيه تلك اللمحات الراقية فكانوا يحترمونه لوجاهته.

ولاول مرة منذ مالت السفينة على جانبها ألقى كابتن آليستون بنظرة عاجلة إلى رجاله. كان منتصبًا تقريبًا - بقدم على فتحة السلم وركبة على السطح، وقد علق نهاية حبل الشراعين إلى وسطه فأخذ يتأرجح إلى الأمام والخلف، ولكن نظراته بقيت مصوبة إلى الأمام، فى حالة انتباه كرجل يتلمس إشارة معينة. وكانت السفينة أمام عينيه وقد غطس نصفها فى الماء، تعلو وتنخفض على البحار المائجة، التى هجمت من تحتها فتطاير رذاذها فى الشمس المشرقة. وظننا أنها تستطيع أن تطفو وتستعيد وضعها بإعجوبة. وسمعت أصوات ملؤها الثقة تصيح: «حاتنجح يا أولادا» وصرخ بلفاست بحدة: «أنا أتنازل عن أجرة شهر عشان نفس واحد من البيبها» ومر واحد أو اثنان بألسنة جافة وشفاه مملحة وهم يتمتمون بكلمات عن «جرعة ماء». فزحف الطباخ كأنما نزل عليه الوحى، ووصل بصدره إلى برميل الماء ونظر داخله. كان فى القاع قليل من الماء. فهتف وهو يلوح بذراعيه. وبدا رجلان يزحفان بقدح إلى الأمام والخلف - وشرب كل من حولهم ملء فمه. ولكن الريان هز رأسه بعصبية رافضًا. ولما وصل القدح إلى شارلى صاح أحد جاريه: «الواد الملعون نايم». وكان مستغرقًا فى النوم كأنما أعطى مخدرًا. فتركوه وشأنه. وتعلق سنجلتون بالعجلة وهو يشرب وينحنى ليحمى شفتيه من الريح. وكان علينا أن نهتف ونهز واميبو ليلحظ القدح المرفوع أمام عينيه. وقال نويلز بحكمة «دى كانت تبقى أطعم بشوية خمرة» وقبع مستر بيكر قائلاً «شكرًا» وأحنى مستر كريتون رأسه بعد أن شرب. وابتلع دونكن الماء بشراهة وهو ينظر عبر حافة القدح. واضحكنا بلفاست عندما صاح بفم ممتعض قائلاً: «فوتوه هنا. احنا هنا كلنا مقاطعين الخمرةا» وعندما قدم القدح ثانية للريان بيد رجل يزحف ويصرخ فى وجهه قائلاً: «إحنا كلنا شربنا يا كابتنا» مد يده يتحسسه دون أن يحول نظره عن الأمام. ثم سلمه ثانية بجمود كأنه لا يملك أن يحرم السفينة من نصف نظرة. ثم تألقت الوجوه. وصحنا جميعًا فى الطاهى: «برافو يادكتور» وكان يجلس مستندًا الى البرميل فى الجانب المحمى من الريح، يردد هتافات عديدة، ولكن البحار كانت ترعد، فلم يصلنا من هتافاته سوى القليل مثل «القدرة الإلهية»، «ولدنا من جديد».كان قد عاد للوعظ، هوايته

القديمة. فأشرنا إليه بحركات ودية فيها بعض العتاب. وكان يرفع أحد ذراعيه وهو مرتكز على الثانى ويحرك شفتيه. كان متجهًا إلينا بمشاعره وهو يصيح جادًا بأعلى صوته، ويغرق رأسه فى الرذاذ.

وفجأة صاح أحدهم:«فين جيمى؟» فعاودنا الأسى والهلع. وصاح الضابط الإدارى بصوت متوتر: «ماحدش شافه بره؟» وصرخت أصوات باستياء «غرق؟ يا ترى.. لا .. فى قمرته.. يا إلهى!.. اتحبس زى الفار الملعون فى المصيدة... ماقدرش يفتح الباب..آى .. هى انقلبت بسرعة والميه هجمت على جوه.. الشحات المسكين.. مالقيش حد يساعده.. تعالوا نروح نشوفه..»وهنا صرخ دونكن: «الله يلعنه.مين يقدر يروح؟..» فصاح فيه رجل بجواره: «ماحدش فكر أنك حاتروح.. أنت شىء حقير ما عندكش إحساس». وسأل رجلان أوثلاثة فى نفس واحد: «فيه أية فرصة للوصول له؟» وحل بلفاست رباطه بتعجل أعمى، واندفع نحو الجهة المحمية من الريح أسرع من البرق. فصحنا جميعًا باستياء، ولكنه هتف يطلب حبلا وهو معلق وساقاه مدليان للخارج. ولم يكن ليرعبنا فى محنتنا شىء. ولهذا اعتبرناه مضحكًا وهو يرفس هناك وقد استولى الرعب على وجهه. وبدأ واحد يضحك، فانفجر كل هؤلاء الرجال المرهقين يضحكون وكأنما سرت فيهم عدوى صياح ومرح هستيرية. كانوا يضحكون بعيون جاحظة كجمع من المعتوهين ربطوا إلى حائط. وحاول مستر بيكر أن يساعده بجزء من قاعدة صندوق البوصلة ولكنه انكمش فى فزع،ودعا علينا بألفاظ مريعة أن «نذهب للشيطان!» فقبع مستر بيكر قائلا: «أنت.. ياكريك.. أوف.. أنت واطى وطويل اللسان....» فأجابه وهو يتلعثم باستياء بالغ: «ماتشوف يا ريس.. الملاعين الواطيين! بيضحكوا على زميل حايقع فى البحر، وبيسموا أنفسهم رجاله.. كمان!» ولكن الضابط الإدارى صاح من المؤخرة: «تعال عندى» فزحف بلفاست بعيدًا بسرعة ليقابله. وكان الرجال الخمسة قد تعلقوا بحافة مؤخرة السفينة، وأخذوا يحلقون بحثًا عن أفضل طريق يتخذونه. وبدا عليهم التردد. وكان الآخرون يتلوون فى اندفاعهم ويدورون بألم، وينظرون بشفاه منفرجة. ولم ير كابتن آليستون شيئًا: وبدا كأنه يشد السفينة إلى أعلى بجهد مركز فوق طاقة

البشر. وصرخت الرياح بصخب فى أشعة الشمس. ارتفعت أعمدة الرذاذ الى أعلى، وتقدم الرجال بحرص خلال تألقات أقواس قزح المنكسرة على بدن السفينة المرتجف. ثم اختفوا عن الأنظار بحركات متعمدة.

وأخذوا يتأرجحون متنقلين بين الخطاطيف والنتوءات الخشبية فوق البحار التى مافتئت تلطم سطح السفينة المغمور بنصفه فى الماء. وكانت أصابع أقدامهم تحتك بالألواح الخشبية،ونفحات من المياه الخضراء الباردة تتساقط فوق السور وعلى رءوسهم. وتعلقوا لحظة على سواعدهم وقد أغمضوا عيونهم وتوقفت أنفاسهم، ثم تركوا أحد الذراعين يتدلى، ووازنوا أجسامهم برءوسهم المنكسة يحاولون أن يمسكوا بأى حبل أو عامود إلى الأمام. وكان الضابط الإدارى بجسمه الرياضى وذراعيه الطويلين يتأرجح بسرعة ويمسك بالأشياء بقبضة من حديد، وقد تذكر فجأة فقرات من آخر خطاب وصله من «الست الكبيرة».. أما بلفاست الصغير فقد تلعبط فى ثورة عارمة وهو يبرطم «الزنجى الملعون!» وعقد التوتر لسان واميبو، وأخذ آرتشى الجرىء المتزن يرقب فرصة للحركة بهدوء وفطنة.

ولما وصلوا فوق الجزء السكنى تدلوا الواحد بعد الآخر فوقعوا بثقل على الأرض ثم تمددوا وأخذوا يضغطون بطون راحاتهم إلى الخشب الناعم. وكانت الأمواج الصاخبة ترغى وتزيد خلفهم. وبطبيعة الحال تحولت كل الأبواب إلى أبواب مسحورة. وكان أولها باب المطبخ، الذى امتد أمامهم من جانب لآخر. واستحالت طرطشة البحر فى أسماعهم إلى أصوات جوفاء. وكان الباب التالى هو باب حجرة النجارة. فرفعوه ونظروا تحته ليروا الحجرة وكأنما دهمها بركان. فقد انقلب كل ما فيها رأسا على عقب وتجمع عند الحاجز المواجه للباب. وكان جيمى. خلف هذا الحاجز. أما ميتا أو حيا. ورأوا دكة النجار. وكانت خزانة لحم لم يكتمل صنعها. والمناشير والشواكيش وعصى الأسلاك والأزاميل والفئوس... إلخ رأوها كلها مكومة وقد تناثرت عليها المسامير. وبرزت منها فارة حادة لامعة تألقت كأنها ابتسامة شرير خطير. فأمسك الرجال بعضهم ببعض وهم يتحلقون. وأوشكت هزة مريرة ماكرة من السفينة أن تلقى بهم كتلة واحدة الى البحر.

وهنا عوى بلفاست «اديله!» ثم قفز إلى تحت وتبعه آرتشى بروية وهو يمسك بالرفوف التى كانت تتخلع فى يده. ثم استند إلى كومة من الخشب ولم يكن المكان ليتسع بالكاد لحركة ثلاثة رجال. وظهر - من فوق - وجه الضابط الإدارى المظلم الملتحى ووجه واميبو الشاحب من الهلع، وكانا يرقبان ما يحدث من فتحة الباب المربعة الزرقاء المضاءة بأشعة الشمس.

وصاح الجميع معًا فى صوت واحد: «جيمى! جيمى!» واشترك الضابط الإدارى من فوق بصوت عميق «انت!... يا ويت!!» وتوسل إليه بلفاست فترة بقوله «جيمى... يا حبوبى. انت حى؟» وقال الضابط الإدارى: «كمان مرة .. كلنا مع بعض يا أولاد!» وهتف الجميع بحدة، وأصدر واميبو أصواتًا تشبه نباح الكلب، وأخذ بلفاست يطبل بحديدة على جانب الحاجز. ثم توقف الجميع فجأة. واستمر صوت الصياح والدق رقيقًا واضحًا كصوت «الصولو» بعد «الكورس» .. كان حيًا!!. وكان يصرخ ويدق بيده بلهفة من أغلق عليه قبره قبل حلول أجله.

وبدأنا نعمل - فهجمنا يائسين على الكومة المربعة من الأدوات الثقيلة الحادة، وكان من الصعب تداولها. وزحف الريس بعيدًا ليبحث عن طرف حبل - وبقى واميبو فوقنا يبحلق، وقد شله صراخنا عن الحركة. كنا نصيح فيه «أوعى تنط.. ماتجيش هنا - يا أبو عقل ملخبط» وكانت عيونه تبرق وحوافره تلمع وشعره مهدل وكأنه شيطان أهوج مندهش، ينظر باستمتاع إلى ثورة طارئة من فئة مغضوب عليها. واستحلفنا الضابط أن «نشد حيلنا» ودلى حبلا ربطنا فيه الأشياء، وبدأت تدور وهى تصعد ثم تختفى إلى غير رجعة، واعترتنا نوبة إلقاء الأشياء إلى البحر وكنا نعمل بانفعال، ونجرح أيدينا، ونكلم بعضنا بحدة. وواصل جيمى صخبه المذهل - فقد أرسل صيحات نافذة بدون أنفاس كامرأة معذبة، وكان يخبط بيديه وقدميه. وأذابت مظاهر هلعه قلوبنا لدرجة أننا تقنا لتركه وشأنه لنخرج من هذه البئر العميقة التى أخذت تتمايل كالشجرة. ووددنا لو استطعنا الابتعاد عن صوتها، عائدين إلى المؤخرة، لننتظر الموت باستسلام، وبراحة لا تقارن. وصحنا فيه «أسكت.. بالله عليك!» ولكنه ضاعف صياحه، ويبدو أنه خيل إليه أننا لا نسمعه - وغالبا لم يكن هو يسمع من صياح نفسه إلا

همسا خافتًا ـ رأيناه فى الظلام متشبثا بالسرير العلوى، ويدق الحائط بقبضتيه، وقد فتح فمه عن آخره وواصل صياحه. وسئمنا هذه اللحظات.. كانت السحب تمر عبرالشمس فتعتم المدخل وتتبئ بالخطر.. وزادت كل لحظة من آلامنا، فازدحمنا معًا لدرجة أن عجزنا عن التنفس، واعترانا دوار مريع وهتف الريس إلينا «شدوا حيلكم.. شدوا حيلكم.. إن ما استعجلتوش حاتكسحنا الميه من هنا إحنا الاثنين» وهجم البحر ثلاث مرات على جانب السفينة التالى فصب على رءوسنا مايملأ بضعة جرادل من الماء ـ وكان جيمى كلما هزته المفاجأة يصمت لحظة ـ متوقعًا غرق السفينة كمايبدو ـ ثم يعاود الصراخ أكثر دويًا، كأنما شحنته نوبة الفزع بطاقة جديدة وكانت المسامير تبدو فى القاع على شكل طبقة سمكها بضع بوصات ـ ثم رأينا منظرًا مريعًا ـ كان دكان النجار يحوى مسامير من كل الأنواع، لم تستعمل بعد ـ كانت أمامنا من كل شكل ـ بقايا المخازن منذ سبع رحلات. مسامير رسم ومسامير رفيعة (حادة كإبر الخياطة) ومسامير برءوس كبيرة ومسامير بدون رءوس (مفزعة!) ومسامير فرنسية ممشوقة ولامعة ـ كانت جميعها ملقاة فى كتلة صلدة أكثر تنفيرًا من القنفذ.. وترددنا.. وددنا لو حصلنا على جاروف، بينما واصل جيمى صراخه كالمسلوخ، ثم غرسنا أصابعنا فيها بآهات ملؤها الألم ـ ولما جرحنا بشدة نفضنا أيدينا فتناثرت المسامير مع قطرات الدم ثم مررنا قبعاتنا مليئة بالمسامير المشكلة إلى الريس الذى ألقاها بطول ذراعه إلى البحر الهائج، وكأنه يقوم بأحد الطقوس الغامضة المهدئة.

وأخيرًا وصلنا إلى الحاجز وكان مصنوعًا من ألواح قوية ـ كانت (النرجسة) سفينة متقنة الصنع فى كل صغيرة وكبيرة ـ وخيل إلينا أنها أقوى ألواح ثبتت فى جدار سفينة. ثم اكتشفنا أننا قد ألقينا، فى لهفتنا، بكل أدوات النجارة إلى البحر.

وحاول بلفاست الأرعن أن يكسر الحاجز بثقل جسمه، فقفز إليه كالغزال المذعور بكلتا قدميه، وهو يلعن صناع السفن على نهر كلايد لأنهم أتقنوا عملهم فلم يتركوا ثغرة واحدة فى الحاجز. ثم صب جام غضبه على شمال بريطانيا بأسره، والأرض والبحار كلها، وجميع زملائه. وأقسم: وهو يقفزبكل ثقله على

كعبيه، ألا يصاحب أبدًا مرة أخرى أى أبله «لا يفرق بين كوعه وركبته». وأفزع تخبيطه جيمى حتى طير ما بقى من عقله، وسمعناه (موضع عطفنا) يندفع ذهابًا وجيئة، بعد أن انحبس صوته ولم يعد فى طاقته إلا أن يصوى ببؤس. ثم شعرنا برأسه أو ظهره يحتك بالألواح هنا وهناك بطريقة تحير. وكان يصوى كلما شعر بالخبط دون أن يرى أحدًا.

وآلمنا عواؤه هذا أكثر من هتافاته. وفجأة حصل آرتشى على عتلة ومعها أزميل صغير... فعوينا من شدة الامتنان. ثم طرق طرقة عاتية طيرت جزيئات الخشب إلى عيوننا. وصاح الباشريس «خلى بالك! خلى بالك هناك - أوعى تقتل الراجل، بهوادة». وتعلق واميبو مقلوبًا برأسه إلى تحت وهو يكاد يجن من الانفعال، وأخذ يحثنا بحدة «هو - خبطتوه - هو - هو!» وخشينا أن يقع على واحد منا - فيقتله. فبادرنا بالتوسل إلى الضابط أن «يرمى الفنلندى الملعون فى البحر» ثم هتفنا جميعًا بصوت واحد إلى جيمى خلف الألواح: «انزل تحت وقرب!» وأنصتنا فلم نسمع سوى همهمة الرياح وتحيبها، وزئير البحار الذى اختلط بصفيرها، وكأنما استولى اليأس على السفينة فأخذت تتمايل وكأنها تحتضر، ودارت رءوسنا مع حركتها غير الطبيعية. وصاح بلفاست: «وحياة ربنا يا وحش يا أسود يا ملعون! خبط!» ولكن جيمى كان هادئًا هدوء الميت فى قبره حتى شعرنا كأننا نقف على قبر وأوشكنا على البكاء.

ولكننا كذلك شعرنا بالاستياء والإجهاد والإرهاق، واستبد بنا «الشوق لإنهاء العملية والخروج للرقاد فى مكان ما حيث نتبين مانحن فيه من خطر ونتنفس. وصاح آرتشى «وسعوا لى!» فتكومنا خلفه نحمى رءوسنا وأخذ يضرب مجموعة الألواح مرة بعد أخرى.

وأخيرا انشرخت.. وانحشر نصف العتلة فى شق مستطيل، ولابد أن رأس جيمى قد نجت منها بأقل من نصف بوصة - فسحبها آرتشى بسرعة، بينما هجم الزنجى المريع على الفتحة، ووضع شفتيه عليها وهمس فى صوت يكاد يكون خامدًا: «النجدة!» وزج برأسه محاولاً فى جنون أن ينفذ من الفتحة التى لاتزيد عن بوصة عرضًا وثلاث بوصات طولاً. وبسبب اضطرابنا أسقط فى يدنا إزاء

حركته هذه، إذ بدا من المستحيل أن ندفعه بعيدًا عن الفتحة وحتى آرتشى فقد هدوءه أخيرًا وصاح متوعدًا: «إن ما رحتش بعيد حاضرب العتلة فى راسك». وكان يعنى ما يقول، ويبدو أن لهجته الجدية أثرت على جيمى فاختفى فجأة. وعدنا إلى كفاحنا مع الألواح بلهفة من يحاولون الوصول إلى عدو مميت، بدافع الرغبة فى تقطيعه إربًا. فطقطق الخشب ثم انشرخ واستسلم. وقفز بلفاست برأسه وكتفيه الى الداخل، وأخذ يتحسس ما حوله بحدة ثم صاح «أوه - أهو هنا .. ده هرب .. أنا مسكته.. مسكته!.. شدوا رجلى.. شدوا!» وواصل واميبو صراخه دون توقف. فصاح الريس بتوجيهاته: «أمسكه من شعره يابلفاست، شدوا لفوق أنتو الاثنين.. شدوا جامد!». «فشدينا جامد!» وشدينا بلفاست للخارج عنوة - وألقيناه على الأرض بازدراء فسقط فى وضع الجالس وهو ينتحب فى يأس ويقول «إزاى أقدر أشده من فروته اللعينة القصيرة؟» وفجأة ظهر رأس جيمى وكتفاه. وانحشر فى منتصف الطريق، ثم اتجه نحو أقدامنا وهو يرغى ويزبد. وحدقات عينيه تدور.

فاندفعنا نحوه بفروغ صبر فظيع، ومزعنا قميصه من ظهره. وجذبناه من بين أذنيه، وأخذنا «نلهث» فخرج إلى أيدينا مرة واحدة. وكأن شخصا ترك ساقيه فجأة.

وبنفس الحركة ودون توقف، قلبناه إلى أعلى. فسمعنا صفير أنفاسه وكان يركل وجوهنا المرفوعة، ثم تشبث بزوجين من السواعد فوق رأسه. وتلعبط بسرعة لدرجة بدا لنا مؤكدًا أنه سيفلت من أيدينا كالكيس الملىء بالغاز.

وتجمعنا فوق الحبل كالنحل، وكنا نتصبب عرقا، وعندما خرجنا فى الهواء البارد لهثنا كمن يقفز فى ماء مثلج. وسرت فى أجسامنا حتى النخاع قشعريرة، بينما كانت وجوهنا متوهجة. كانت تجربة فريدة فى حياتنا - فلم يحدث من قبل أن واجهنا ريحًا أعتى أو بحرًا أكثرجنونًا أو أشعة شمس أقسى وأكثر سخرية، أو وضع سفينة أكثر فظاعة وقنوطًا.

كانت كل حركة تأتى بها السفينة تنبئ بنهاية عذابها وبدء عذابنا. وتعثرنا مبتعدين عن الباب، ثم اهتزت فجأة فذعرنا، ووقفنا معًا ككتلة واحدة. وبدا لنا

جانب البيت أملس من الزجاج، وأكثر انزلاقا من الثلج. ولم يكن أمامنا ما نتشبث به إلا شنكل نحاس صغير، يستعمل أحيانًا لتثبيت الباب مفتوحًا - فتشبث واميبو به، وتشبثنا بدورنا بواميبو، وفى قبضتنا جيمى، وكان حينئذ قد تداعى تمامًا، وبدا كأنه لا يقوى حتى على قبض يده.

ومن خوفنا التصقنا به دون أن نراه. ولم نكن نخشى أن تفلت يد واميبو (إذ تذكرنا أن الوحش كان أقوى من ثلاثة رجال على السفينة) ولكننا خشينا أن يفلت الشنكل نفسه - كما اعتقدنا حينئذٍ أن السفينة قد قررت أخيرًا أن تنقلب. ولكنها لم تفعل.. وبدلاً من ذلك هاجمنا بحر كاسح فصاح الريس متلعثمًا «على فوق وبعيد: هناك لحظة سكون. ابعدوا إلى المؤخرة أو حانلاقى أجلنا هنا». ووقفنا حول جيمى نتوسل إليه أن «يشد حيله ويصبر على الأقل» - فبحلق فينا بعيون جاحظة وفى صمت السمكة وقد فقد كل قوة، ورفض أن يقف أو حتى أن يقبض على رقابنا - كان قد استحال إلى كيس بارد من الجلد الأسود محشو بقليل من القطن الناعم. وتأرجحت ذراعاه وساقاه بطراوة وبدون أثر للمفاصل، وأخذت رأسه تدور حوله وتدلت شفته السفلى ضخمة وثقيلة. فازدحمنا حوله مشغولين مغمومين، وأخذنا ونحن نحاول الحفاظ عليه نتأرجح كتلة واحدة هنا وهناك - وعلى حافة الخلود تعثرنا كلنا معًا بحركات مضحكة، وكأننا حشد من السكارى مرتبكين بجثة مسروقة.

وكان لابد من عمل شىء ما - كان علينا أن نوصله الى المؤخرة - فربطناه بحبل تحت أبطه. وخاطرنا بحياتنا حتى علقناه على حابس الشراع الأمامى - ولم يصدر أى صوت، بل بدا مؤلمًا ومضحكًا فى نفس الوقت، كدمية فقدت نصف حشوها من النشارة. ثم بدأنا رحلتنا الخطرة على السطح الرئيسى ونحن نجر بحرص هذا الحمل المسكين. الكسيح، الكريه.

ولم يكن ثقيلاً جدًا، ولكن نقله كان أشق مما لو كان يزن طنا. وكنا نمرره من يد لأخرى بمعنى الكلمة - ومن آن لآخر كنا نضطر لتعليقه على مسمار قريب لنلتقط أنفاسنا ونصلح طابورنا. ولو أن المسمار انكسر لكان وقوعه فى المحيط الجنوبى محققًا. ولكن كان لابد من المجازفة - وبعد هنيهة، عندما بدا عليه أنه

تبين خطورة الموقف. بدأ يئن بضعف، ثم همس ببضع كلمات بجهد ملحوظ: وأنصتنا إليه بشوق: كان يؤنبنا على إهمالنا بتعريضه لمثل هذا الخطر: «دلوقتى بعدما خرجت بنفسى من هناك». وتنفس بضعف. وهو يقصد «بهناك» قمرته. وقد أخرج نفسه منها!!» وهكذا لم يكن لنا فى نظره على ما يبدو - دخل فى هذه العملية!!.. ولم نبال بكلامه.. بل واصلنا العمل دائبين للإبقاء على حياته. ولم يكن فى وسعنا - بكل بساطة - أن نفعل غير ذلك. فرغم إننا كرهناه فى هذه اللحظة أكثر من أى وقت مضى، وأكثر من أى شىء تحت السماء بأسرها - إلا اننا لم نشأ أن نفقده.

كنا حتى هذه اللحظة قد أنقذنا حياته - وكان الموقف قد تطور إلى صراع شخصى بيننا وبين البحر، فقررنا أن نقف بجانبه حتى النهاية. ولو كنا (على أسخف الفروض) قد تحملنا هذا الهم والعناء من أجل دلو خاو لأصبح هذا الدلو، عزيزًا علينا بقدر ما أصبح جيمى - وأعز فى الواقع - إذ لن يكون لدينا فى هذه الحال ما يدعو لكره الدلو. بينما كنا نكره جيمس ويت لم نستطع التخلص من الشك بأن هذا الرجل الأسود المريع يدعى المرض. ويدعيه بإصرار وقلب جامد أمام اشمئزازنا وكدنا. وصبرنا. وأنه مازال يتمارض الآن أمام تفانينا بل أمام الموت نفسه. وهز هذا الشك مبادئنا الخلقية الغامضة الناقصة - فشعرنا باشمئزاز من كذبه الصبيانى - ولكنه ثبت على موقفه برجولة مدهشة. لا...! شكنا هذا مستحيل - لقد كان فى أسوأ حال حقًا. وما ضيق خلقه هذا إلا نتيجة لعجزه المثير عن التغلب على هذا الموت الذى يشعر بملازمته له ولابد لأى إنسان آخر أن يغضب من رفيق متسلط كهذا. ولكن إذا كان الأمر كذلك فأى نوع من الرجال نحن بشكوكنا هذه؟ وتنازع الشك والاستياء فى قرارة أنفسنا فى صراع تنكر لأرق مشاعرنا. وهكذا كرهناه لسوء ظننا وشكوكنا. ولم نقو على احتقاره باطمئنان، ولا على الرثاء لحاله دون المساس بكرامتنا: كان كل هذا سر كرهنا له...

ولبثنا نمرره من يد لأخرى ونصيح: «مسكته؟» «أيوا». «كويس - سيبه» وهكذا كان يتأرجح من عدو لآخر دون أن يبدى من الحيوية أكثر مما يبدو من وسادة

قديمة ـ وبدت عيناه فى وجهه الأسود كشقين ضيقين بيضاوين، وكان يتنفس ببطء فيخرج الهواء من بين شفتيه بضجة كصوت المنفاخ.

وأخيرًا وصلنا إلى سلم المؤخرة. فرقدنا لحظة على هيئة كومة، مرهقين نلتمس قليلاً من الراحة.. إذ شعرنا بأمان نسبى هناك. ولكن جيمى بدأ يبرطم وكنا دائمًا على أحر الشوق للإنصات لما يقول. وكان هذه المرة يتشاجر: «أنتو غبتو علىَّ كتير ـ لغاية ما بدأت أظن أن الشلة الراقية كلها وقعت فى البحر إيه اللى آخركم؟ هيه؟ ـ الخوف؟» ولم نرد عليه، ولكننا عاودنا جره من جديد ونحن نئن ونتأوه. وكنا نود سرًا، ومن أعماق قلوبنا، أن نكيل له اللكمات فى رأسه بلؤم. ولكننا كنا نتداوله فعلاً بكل رقة كما لو كان هشا مصنوعًا من الزجاج. وكانت عودتنا للمؤخرة أشبه بعودة «أهل الكهف». فاتجهت العيون تتفحصنا ببطء، وسمعت همسات خافتة: «جبتوه بعد كل ده».

وبدت الوجوه المعروفة غريبة ومألوفة فى نفس الوقت : إذ كانت باهتة مسودة، تفيض بالإرهاق والشوق. وخيل إلينا إنها غدت فى غيبتنا أكثر نحافة، وكأن أصحابها قد تضوروا جوعا لفترة طويلة. وهم ينتظرون الغرق فى أوضاعهم المضنية.

ولكن الكابتن لم يتوقف لحظة عن محاولاته جذب السفينة. بل استمر غير مبال بأحد، وكأنما نسى نفسه فى الجهد الجبار الذى تستلزمه محاولاته.

وكان يهتز بوجه بارد متصلب، وقد لف الحبل حول معصمه، ومال على إحدى ركبتيه، بينما بقيت عيناه يقظتين.

وتابعنا جيمس ويت فى مكان أمين، وكان مستر بيكر قد تحرك ليعاوننا وتمتم مستر كريتون وهو راقد على ظهره، شاحب الوجه «برافو!» ثم رمقناه وجيمى ويت والسماء بأسرها بنظرة احتقار وأغمض عينيه ببطء وتحرك بعض الرجال قليلاً، ولكن أكثرهم لبثوا فى أوضاعهم غير مبالين، وكانوا يتمتعون وهم يرتعدون. ومالت الشمس للغروب. كانت شمسًا ضخمة، حمراء بلا سحب، وأخذت تقترب من الأرض كأنها تنحنى لتتفرس وجوههم. واخترقت الرياح

بصفيرها أشعة الشمس الباردة المتألقة، وكانت هذه تسقط رأسية على الحدقات المتسعة فى العيون المبحلقة، دون أن تغمضها. واتخذت لحاهم وشعورهم المتشابكة لونًا رماديًا بفعل ملح البحر. أما وجوههم فكانت فى لون التربة. بينما امتدت الهالات تحت العيون حتى الآذان، وظهرت تجاويف الخدود الغائرة فى سواد داكن. وازرقت الشفاه الرقيقة وهى تتحرك بصعوبة كأنما التصقت بصمغ فى الأسنان. وأخذ البعض يجزون على الأسنان بحزن وأسى وهم يرتعدون من البرد فى ضوء الشمس بينما بقى غيرهم ساكنين مكتئبين.

وانبعثت من عينى تشارلى نظرات مخيفة عندما غلب على أمره بعد أن اكتشف فجأة أن لا حول له ولا قوة رغم شبابه، أما النرويجيان فكانا بوجوههما الناعمة أشبه بطفلين كسيحين يبحلقان بغباء.

وعلى حافة الأفق فى الجهة الأخرى، انقضت البحار السوداء على الشمس الساطعة - فهبطت هذه ببطء مستديرة متألقة، بينما تناثرت قمم الأمواج على حافة الدائرة المضيئة.

وظهر على وجه أحد النرويجيين أنه رآها، وبعد أن أهتز بعنف بدأ يتكلم، فأفزع صوته الآخرين حتى دبت فيهم الحياة من جديد.

فتحركت الرءوس المتصلبة، وتلفتت بصعوبة لتنظر إليه فى دهشة أوخوف أو سكون مهيب.

وأخذ النرويجى يحدث الشمس الغاربة وهو يحنى رأسه، والبحار العاتية تتدحرج عبر الأسطوانة القرمزية - وعلى بعدأميال من المياه الصاخبة كسحت الأمواج العالية وجوه الرجال بجحافل الظلام المسرعة. وانكسرت موجة مدببة عاتية بزئير وصفير طويلين، ثم اختفت معها الشمس فجأة وكأنها انطفأت. وهنا تلعثم صوت المتحدث واختفى كليًا مع الضوء المنحسر. ثم تبعته تنهدات.

وفى فترة الهدوء المفاجئ التى تلت تفتت الموجة المنكسرة قال رجل فى إعياء «شوفوا النرويجى الملعون عقله قرب يطير». وأخذ أحد البحَّارة - وكان مربوطًا

من وسطه ـ يدق السطح بيده المبسوطة دقات سريعة متواصلة. وشوهد جسم ضخم كبير يتحرك بحرص.

كان مستر بيكر يمر على طابور الرجال وهو يقبع مشجعًا كلاً منهم. ويتحسس أربطتهم. وكان البعض ينفخون وعيونهم نصف مفتوحة كمن أرهقهم الحر. وأجابه آخرون آليًا وبأصوات حالمة: «آى. آى. يا سيدى» وسار من واحد للآخر وهو يقبع «فاضل شوية لسه على ما تطمنوا على سلامتها» وفجأة انفجر فى نويلز يشتمه بغضب وبصوت عال، لأنه فصل قطعة طويلة من الرافعة: «أوف ـ مش مكسوف من نفسك ـ دى الرافعة ـ هيه دى خبرتك؟ أوف وبحّار قدير كمان ـ أوف!» فانهار الرجل الأعرج وهو يتمتم «كنت باجيب حاجة أربط نفسى فيها يا سيدى» فرد مستر بيكر «أوف! تربط نفسك؟ أنت سباك والا بحّار؟ ايه أوف ـ جايز نحتاج للرافعة دى حالاً ـ أوف! دى أفيد للمركب من جتتك العرجة ـ خليها ـ مادام كسرتها». ثم زحف مبتعدا ببطء، وهو يتمتم لنفسه أن بعض الرجال «ألعن من الأطفال».

أما نحن فقد ارتحنا للشجار ـ إذ سمعت بعض التعليقات الخافتة «أهلاً .. أهلاً ..» وشهق بعض من كانوا يتألمون وهم ناعسون: «الريان إيه..؟ فيه إيه؟» وجاءت الإجابات بابتهاج غير متوقع: «الريان بيغلس مع جاك الأعرج عشان حاجة!» «لأ؟ هو عمل إيه؟» ووصل الأمر بأحدهم أن قهقه عاليًا. كان الحادث مثل بارقة أمل، أو ذكرى من أيام الأمان. وفجأة انتعش دونكن، وكان من قبل مذهولاً من الخوف، وبدأ يصيح: «أنتم سامعينه؟ آهى دى الطريقة اللى بيكلمونا بها ـ ليه ما ضربوش؟ هو أو أى واحد منكم؟ اضربوه ـ عامل ريان علينا ـ وإحنا مش أقل منه ـ كلنا رجاله ـ وكلنا رايحين فى داهية حالاً ـ إحنا متنا من الجوع على المركب النتنه دى ـ ودلوقتى حانغرق لأجل خاطرهم وقلوبهم السودا!! اضربوه!» كان يصرخ وسط الوجوم الشامل، ثم يتلعثم وينتحب، ليصرخ ثانيا: «اضربوه اضربوه!» وهكذا أثر فزعه وغضبه، لهضم حقه فى الحياة، على القلوب الصامدة أكثر من تأثير أشباح الليل الخطيرة التى أقبلت خلال صيحات العاصفة المستمرة.

وسمع مستر بيكر يصيح من المؤخرة: «ماحدش منكم يا رجاله راح يسكته؟ لازم آجى أنا؟» فعلت أصوات مختلفة، أصوات منهكة ترتعد من البرد: «أخرس! اسكت خالص» وقال بحّار غير ظاهر، بنبرات مرهقة" «حتأخذ ضربة منى على مخك - مش حاخلى الريان يتعب نفسه» وهنا كف دونكن عن الصراخ، ثم رقد ساكنًا فى بأس.

وأشرقت النجوم فى السماء السوداء، فتألقت على بحر داكن كالمداد، منقط بالزبد الأبيض، أخذ يعكس إليها أضواء شاحبة باهتة من الأمواج السوداء الهائجة. وبعيدًا عن ضجة الأرض تلألأت النجوم فى الهدوء الخالد - باردة جامدة - وأحاطت بالسفينة المغلوبة من كل ناحية، فبدت أكثر قسوة من عيون الرعاع المنتصر، وأبعد منالا من قلوب البشر.

وأخذت رياح الجنوب المثلجة تعوى بحدة تحت السماء الرائعة المظلمة وهز البرد الرجال بعنف لا يقاوم، وكأنه يحاول تفتيتهم - فسرت على الشفاه المتصلبة تأوهات قصيرة غير مسموعة - وشكا البعض وهم يتمتعون، أنهم «مش حاسين بوسطهم التحتانى» بينما تصور آخرون، كانوا قد أغمضوا عيونهم، أن كتلاً من الثلج تجثم على صدورهم. وأخذ غيرهم، ممن فقدوا الإحساس بأيديهم - يضربون السطح بخوف وعند وانهاك. وبحلق واميبو بعينين حالمتين، وأخذ الإسكندناويان يتمتمان بأصوات بدون معنى وأسنانهما تصطك. وتحكم السكوتلانديان، بجهد ملحوظ، فى فكيهما السفليين ليمنعاهما من الحركة. ورقد رجال الغرب بأجسامهم الضخمة جامدين ممتعضين بشدة. وأخذ أحد الرجال يتثاءب ويشتم على التوالى - وتنفس آخر بحشرجة فى حنجرته - ورقد بحّاران قديمان مربوطين جنبا الى جنب، كانا يتهامسان بأسى عن مضيفة تسكن فى صندرلاند وكانا يعرفانها. فأثنيا على أمومتها وكرمها - وحاولا التحدث عن فخذ اللحم والمدفأة الكبيرة فى مطبخها بالطابق السفلى. وكانت الكلمات تموت على شفاههم لتستحيل الى تنهدات خافتة، وعلا صوت مفاجئ فى الليل البارد: «آه يا إلهى!» ولكن لم يغير أحد وضعه أو يعير الصيحة أى انتباه. ومرر واحد أو

اثنان أيديهما على وجهيهما بحركة مكررة غامضة، ولكن أغلبهم لبثوا فى أماكنهم دون حراك.

وكانوا فى سكونهم الجسمانى المميت مرهقين للغاية بخواطرهم التى أخذت تتوارد بسرعة الأحلام ووضوحها. وأخذوا، بين حين وآخر، يجيبون على التحية الروحية لخيال ما، بصيحة مقتضبة مثيرة، ثم يعاودون فى سكون تأمل صور وجوه معروفة وأشياء مألوفة. أخذوا يستعيدون صور زملائهم من البحّارة المنسيين وينصتون لأصوات ربابنة رحلوا وماتوا. ويتذكرون ضوضاء الشوارع المضاءة بمصابيح الغاز، وحرارة حجرة المشروبات ببخارها الكثيف، أو أشعة الشمس المحرقة فى أيام البحر الهادئة.

وترك مستر بيكر مكانه الخطر، وزحف بحذر محازيًا المؤخرة، فبدا وهو يزحف على أربع فى الظلام كأنه وحش يبحث عن فريسة بين جثث الموتى. وعند الدفة نظر إلى الكوبرته. وخيل إليه أن السفينة تتأهب للارتفاع قليلاً. ولاحظ أن الريح قد هدأت بعض الشئ، ولكن البحر كان عاليًا جدًا.

وكانت الأمواج تزيد بحدة حتى اختفى جانب الكوبرته المحمى من الريح تحت بياض وصفير يشبهان غليان اللبن. وصدرت من اهتزاز التركيبات نغمة عميقة متذبذبة، وكانت الريح كلما اهتزت السفينة إلى أعلى، تهجم بين الصوارى بصراخ مستمر.

وأخذ مستر بيكر يرقب الموقف فى سكون تام. وفجأة بدأ رجل، بالقرب منه، يتلعثم بصوت عال كأنما سرى البرد فى جسمه بعنف. وواصل لعثمته: «با - با - بر - بر - با - با» فصاح فيه مستر بيكر «اسكت» وهو يتحسس طريقه فى الظلام.

ووجد تحت يده فى الظلام ساقًا فأخذ يهزها. وهنا ناداه بلفاست بلهجة من أوقظ فجأة: «خيرًا يا سيدى؟» إحنا هنا بنفوق جيمى فرد مستر بيكر «صحيح؟ أف! طيب ماتعملوش الدوشة دى - مين ده اللى جنبك؟» فبرطم رجل الغرب: «أنا الريس، يا سيدى.. إحنا بنحاول نحافظ على الشيطان الغرقان ده. «فقال مستر بيكر» آى - آى - أعمل اللى بتعمله من غير دوشة والا ما تقدرش؟ «فواصل الريس.

حديثه باستياء»: ده عاوزنا نشيله فوق الدرابزين.. بيقول مش قادر يتنفس هنا تحت بلاطينا». وقال صوت آخر: «إذا شلناه حايقع فى البحر. إحنا مش مالكين أيدينا من البرد».

وهنا صاح جيمى ويت بصوت واضح «وأنا ذنبى إيه؟ أنا حاتخنق!». ورد الآخر «لا يا بنى - أنت مش حاتموت إلا لما نموت كلنا فى الليلة البديعة دى». وقال مستر بيكر ضاحكًا: «أنت لسه حاتشوف أكثر من ده بكثير». فأجابه الريس «ده مش لعب عيال يا سيدى - بعضنا هنا عند المؤخرة فى حالة سيئة جدًا» وقال شخص ما وهو يتنهد: «إذا كنا كسرنا العصيان الملعونة منها كان زمانها دلوقتى بتجرى زى أى مركب محترمة - وكان انكتب لنا عمر جديد» وهمس آخر «الراجل الكبير مش موافق - آدى محافظته علينا» فصاح فيه مستر بيكر بغضب: «يحافظ عليكم ليه؟ أنتم ركاب من الحريم عشان يحافظ عليكم؟ إحنا كلنا هنا عشان نحافظ على المركب - وفيكم ناس ما ينفعوش للشغلة دى - أوف إيه الأعمال الباهرة اللى عملتوها عشان يحافظ عليكم؟..أوف.. فيكم ناس ما يقدروش يتحملوا نسمة صغيرة من غير ما يعيطوا».

فاعترض بلفاست على قوله بصوت تهزه الرعشات: «كفاية كده يا سيدى - إحنا مش وحشين بالدرجة دى. مش وحشين.. بررر». فصاح مستر بيكر وهو يقبض على جسمه الذى بدا كالطيف: «تانى!..من تانى! إيه ده أنت بالقميص بس؟ عملت إيه؟» فرد بلفاست متظلما: «أنا حطيت البلطو والجاكتة على البربرى اللى حايموت ده - بيقول إنه حايتخنق» وهنا انفجر جيمس ويت قائلاً بحرارة: «لو ماكنتش باموت ماكنتش تجرؤ تسمينى بربرى - أنت يا أيرلندى يا شحات!» فرد بلفاست وهو يرتعد «أنت... بررررر... عمرك ما حاتبقى أبيض مهما تحسنت صحتك.. أنا حاخنقك... بر رررر.. لما الجو يتحسن... برررررر ... حاخنقك وأنا رابط يدى ورا ظهرى برررر....» فلهث الثانى بإغماء وكأنما انهار فجأة: «أنا مش عاوز هلاهيلك دى.... أنا عاوز هوا».

كان الرذاذ يتطاير - يدندن ويصفر - وأخذ الرجال الذين أقلق نعاسهم الصياح والشجار، يئنون ويتمتمون بالشتائم. وزحف مستر بيكر قليلاً للجهة المحمية من

الريح حيث ظهر برميل المياه وأمامه شيء أبيض. ثم قال: «أنت هنا يا بودمور؟ واضطر لتكرار السؤال مرتين قبل أن يلتفت الطباخ وهو يسعل بضعف: «أيوا يا سيدى ـ أنا كنت بادعى فى سرى ربنا ينجينا بسرعة ـ وأنا مستعد لأى نداء من ربى. أنا ..» فقاطعه مستر بيكر «اسمع هنا يا طباخ ـ الرجاله حايهلكوا من البرد» فقال الطاهى بحزن: «برد؟ دول حايدفوا بعد شويه». فسأله مستر بيكر وهو ينظر إلى الرذاذ المتطاير عبر السطح: «إيه؟ فاستطرد الطاهى بجدية، ولكن بصوت متوتر: «دى شله لئيمة مذنبة ـ تقريبا زى بحًارة أى مركب فى العالم المذنب ده. دلوقتى أنا ..» ثم ارتعد لدرجة عجز معها عن الكلام. كان مكانه مكشوفًا، وكان يلبس قميصًا قطنيًا، وسروالاً رقيقًا، وقد وضع ركبتيه تحت أنفه. وأخذ يرتعد وهو يتلقى قطرات الملح القارسة. وبدا صوته منهكًا. «دلوقتى أنا ـ أى وقت.. أكبر أولادى يا مستر بيكر ولد شاطر. وآخر يوم أحد قضيته على البر، قبل الرحلة دى، مارضيش يروح الكنيسة يا سيدى. فقلت له «روح طهر نفسك ـ والا أنا حاعرف السبب!».

وتفتكر عمل إيه؟.. البركة يا مستر بيكر ـ وقع فى البركة بأحسن هدومه يا سيدى... حادثة؟.. وقلت له ساعتها مافيش حاجة حاتنجيك ـ ولا حتى تعليمك العالى. حادثة!.. وفضلت أضربه يا سيدى لغاية ذراعى ما وجعنى، واهتز صوته فى تأثر ثم كرر قوله وأسنانه تصطك «أنا ضربته». وبعد لحظة صدر منه صوت حزين بين الأنين والغطيط فهزه مستر بيكر من كتفيه وقال «إيه يا طباخ ـ شد حيلك يابودمور ـ قل لى ـ عندك أى مياه حلوه فى خزائن المطبخ؟ أظن المركب بتتعدل، أناحاحاول أروح لهناك ـ شويه مياه حاتصلح حالهم ـ وداعا ـ خد بالك خد بالك!» ثم اتجه نحو المطبخ ولكن الطاهى قاومه قائلاً «مش انت يا سيدى ـ مش انت» وبدأ يتحرك جهة الريح وهو يصيح «المطبخ شغلى أنا» فقالت أصوات عديدة «الطباخ بدأ يتجنن دلوقتى». ولكنه هتف فيهم قائلا: «أنا أتجنن؟ أنا مستعد للموت أكثر من أى واحد منكم ـ بما فيكم الضباط ـ شوفوا: «طول ما هى عايمة أنا راح أطبخ». أنا حاجيب لكم قهوة». فصاح بلفاست بقوله: «يا طباخ أنت جنتلمان» ولكن الطاهى كان قد وصل إلى السلم ثم توقف لحظة ليصيح عند

المؤخرة «طول ما هى عايمة أنا راح أطبخ» ثم اختفى كليًا كأنما سقط فى البحر. فهتف كل من سمعه من الرجال بتحية دوت خلفه كأنها عويل أطفال مرضى.

وبعد ساعة أو أكثر قال أحدهم بوضوح: «يظهر إنه مش راجع» ووافقه الريس بقوله «جايز قوى! ده حتى فى الجو المعتدل كان بيمشى بيتمختر على السطح زى البقرة الحلوب فى أول مشوار لها. حقنا نروح نشوفه» ولكن أحدًا لم يحرك ساكنًا.

ومرت الساعات تجر أذيالها ببطء خلال الظلام. وكان مستر بيكر يزحف جيئة وذهابا بحذاء المؤخرة. وخيل لبعض الرجال أنهم سمعوه يتبادل بعض همسات مع الريان. ولكن كانت تدور، فى ذاكرتهم حينئذ، أمور أوضح بكثير من أى شىء واقعى. ولم يكن فى استطاعتهم أن يجزموا ما إذا كانت هذه الهمسات قد سمعت حينئذ أم منذ سنوات عديدة. ولم يحاولوا استيضاح الأمر: فالهمسات مهما زادت أو نقصت غير مهمة.

وكان البرد أشد من أن يسمح لهم بالاستطلاع أو بالأمل. واستحوذت رغبتهم الملحة فى الحياة على أذهانهم وكل ما يجول فيها من خواطر. وساعدتهم تلك الرغبة على البقاء أحياء صامدين غير مبالين، رغم قسوة البرد وإصرار الريح. وكانت قبة السماء السوداء المرصعة بالنجوم تدور ببطء حول السفينة التى لبثت مثقلة بصبرهم وغذابهم فى وحدة البحر العاصفة.

وتصور لهم وهم مكومون فوق بعضهم أنهم وحدهم تمامًا. وسمعوا أصواتًا عالية مستمرة، ثم عاودوا صمودهم ليتحملوا ألم البقاء فى سكون عميق، عبر الساعات الطويلة. كانوا يتخيلون أشعة الشمس فى ظلام الليل الدامس، ويستشعرون الدفء رغم البرد القارس. وفجأة يفيقون ليتذكروا أن الشمس لا تشرق أبدًا فوق عالم مثلج متجمد. وسمع بعضهم ضحكات، وأنصتوا لبعض الأغانى، ووصلت إلى أسماع آخرين قرب نهاية قلعة المؤخرة. صرخات آدمية عالية ودهشوا إذ سمعوها حتى بعد أن فتحوا عيونهم. ولو أنها صرخات ضعيفة جدًا وبعيدة. وقال الريس «يظهر أن الطباخ بينادى من المقدمة». ولكنه لم يقو

على تصديق كلماته نفسها، ولا على التعرف على صوته هو. ومضى وقت طويل قبل أن يبدو على الرجل الراقد بجواره أية بادرة حياة. فقرص جاره الثانى بشدة وقال: «الطباخ بيزعق» فلم يفهمه كثيرون. ولم يبال به آخرون. ولم تصدقه الأغلبية. ولكنه أوتى من الجرأة هو ورجل آخر ما جعلهما يذهبان بعيدًا الى الأمام ليتبينا الموقف.

وبدا للآخرين أن ساعات عديدة قد انقضت على ذهابهما حتى أوشكوا أن ينسوهما. وفجأة استحال هؤلاء الرجال، الذين عانوا الأمرين من اليأس والاستسلام، استحالوا إلى مخلوقات استبدت بها الرغبة فى الإيذاء. فأخذوا يتبادلون اللكمات. وكانوا يضربون بإصرار فى الظلام أى شىء طري يجدونه بجوارهم. وفجأة همسوا بجهد أكثر مما يلزم لصيحة عالية: «دول جابوا شوية قهوة سخنة... الريس جابها.. لا؟ صحيح؟.. فين؟...» «آهى جايه! الطباخ عملها». وتأوه جيمس ويت وتزاحم دونكن بلؤم دون أن يعبأ أين يرفس. وكل اهتمامه مركز على ألا يحصل الضباط على شىء منها. وجاءت القهوة فى إناء. فأخذوا يشربون منه بالدور، كانت ساخنة تلسع لثاهم المتعطشة. ومع ذلك بدت شيئًا خياليًا لا يصدقه العقل.

وكان الرجال يتحسرون لترك القدح لغيرهم ويقولون متعجبين: «ده عملها إزاى!» ويصيح آخرون «برافو - عليك نور يا دكتور».

كان قد عملها بطريقة ما - وبعد ذلك أعلن آرتشى أن المسألة كانت «معجزة». ولبثنا نتعجب بضعة أيام، وأصبحت موضوع الحديث الوحيد الشيق حتى نهاية الرحلة. وعندما اعتدل الجو سألنا الطاهى عن شعوره عندما وجد موقده مقلوبًا - واستفسرنا منه عندما هبت الرياح التجارية، وفى الأمسيات الهادئة، إذا كان قد اضطر للوقوف على رأسه ليعيد أمتعة المطبخ إلى أماكنها، ورجحنا أنه استعمل طاولة الخبز كعوامة، وأنه استطاع بذلك أن يقلب النار فى الفرن. وبذلنا جهودًا مضنية لنخفى إعجابنا وراء ستار من اللباقة والسخرية الرقيقة.

أما هو فقد أكّد لنا أنه لا يعرف شيئًا عما حدث، وعاتبنا على استهتارنا، وأعلن أنه كان موضع الهام وعفو سماوى خاص لإنقاذ أرواحنا الملعونة! ولاشك

أنه كان أساسًا على حق، ولكن لم يكن هناك داع لتأكيد الأمر بهذه الدرجة المثيرة. ولم يكن الموقف يستحق أن يلح مرارًا - إننا كنا من الهالكين حتمًا إن لم يكن هو معنا، هو الطاهر المثاب، ليتلقى الوحى والقوة لإنقاذنا. ولو كنا أنقذنا بمهارته أو باستهتاره لقبلنا الحقيقة فى النهاية، ولكن ذلك كان صعبًا علينا صعوبته على آية جماعة بشرية أخرى.

كان صعبًا أن نعترف بأننا مدينون بحياتنا لمجرد فضيلة شخص ما وتقواه، وككثير من الخيرين من بنى الإنسان كان الطاهى جادًا فى تصوره، وكان جزاؤه أن فقد احترامنا. ومع ذلك لم نكن جاحدين - فقد بقى فى نظرنا بطلاً - وأصبح قوله - أو حكمة حياته - مضرب المثل فى أفواه الرجال، تمامًا كأقوال الفاتحين والحكماء.

ومنذ ذلك الحين، أصبحنا، كلما أسقط فى يدنا عند أداء عمل ما، وينصحنا البعض بتركه جانبًا، نعبر عن تصميمنا على المثابرة والنجاح، بالشعار «طول ماهى عايمة أنا راح أطبخ».

وهكذا ساعدنا المشروب الساخن على الصمود فى الساعات المعتمة قبيل الفجر - واصطبغ الجزء السفلى من السماء قرب الأفق بألوان رقيقة من البمبى والأصفر، وكأنه قلب قوقعة نادرة - وإلى أعلى حيث تحلت السماء بثوب لؤلؤى. ظهرت سحابة سوداء، كجزئ منسى من الليل، صيغ فى إطار من الذهب البرّاق، وتراقصت الأشعة على قمم الأمواج، واتجهت عيون الرجال شرقًا، فغمرت الشمس وجوههم المنهكة، وكانوا مستسلمين للإرهاق كأنما نفضوا أيديهم من عملهم إلى الأبد.

وأخذت آثار الملح الجاف تلمع على معطف سنجلتون المشمع كأنها قطرات ندى متجمدة. وكان مازال منكبًا على عمله بجوار العجلة، ينظر بعيون مفتوحة لا حياة فيها.

وواجه كابتن آليستون الشمس المشرقة دون أن ترمش له عين، وتحركت شفتاه ثم انفرجتا، لأول مرة فى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، وصاح بصوت حازم حاد:

«ارفعوا القلوع على المركب». فهزت النبرات الآمرة الحادة كل هؤلاء الرجال الناعسين، كأنما أصابتهم بسياط مفاجئة لاذعة. وبحكم العادة ردد بعضهم الأمر بهمسات خافتة تكاد لا تسمع، وهم ساكنون حيث يرقدون. فرمق كابتن آليستون طاقمه بنظرة جعلت الكثيرين منهم يحاولون تنفيذ الأوامر بأصابع زائغة وحركات يائسة. ثم كرر الأمر بلهجة من نفد صبره: «ارفعوا القلوع ـ تقدم الرجال يا مستر بيكر ـ إية اللى دهاهم؟ ارفعوا القلوع ـ سامعين يا للى هناك؟».

وفجأة رعد قائلاً: «ارفعوا القلوع». وبدا كأنما انتشر صوته ليبدد سحرًا مميتًا. فبدأ الرجال يتحركون ويزحفون، وصاح الريان بصوت عال جدًا: «عاوزكم ترفعوا شراع الصارى الأمامى بإتقان، وإن لم تستطيعوا رفعه وأنتم واقفون، فارفعوه وأنتم راقدون».

هذا هو كل ما أريده منكم ـ تعاونوا ـ ساعدونا! وحفزهم الريس بقوله: «هيا بنا نعطى الوليه العجوزة فرصة ثانية» فهتفت أصوات متوترة: «آى! آى!! ارفعوا القلوع!» ثم استعد رجال قلعة المقدمة للتحرك أماما بوجوه ممتعضة، واندفع مستر بيكر على أربع، وهو يقبع، ليدلهم على الطريق فتبعوه فوق حاجز الأمواج ـ ورقد الآخرون ساكنين، يؤملون من أعماق قلوبهم ألا يكلفوا بالتحرك إلى أن ينقذوا أو يغرقوا بسلام.

وبعد قليل ظهروا عند رأس قلعة المقدمة، واحدًا بعد الآخر، فى أوضاع غير آمنة. كانوا يتشبثون بالقضبان، أو يتسلقون المخاطيف أو يعانقون رأس الرافعة، أو يضمون الونش اليدوى بشوق إلى صدورهم. ونمت حركاتهم الغريبة عما يعتريهم من قلق فلوحوا بسواعدهم، أو ركعوا على ركبهم أو انبطحوا على الأرض أو تعثروا، فبدوا كأنهم يحاولون جاهدين أن يقعوا فى البحر.

وفجأة رفرفت بينهم خرقة بيضاء صغيرة من الشراع ما لبث أن اتسعت وهى تهتز فتضرب وجوههم، وارتفع رأسها الضيق بحركات سريعة، ثم هدأت منتفخة ومثلثة فى ضوء الشمس. وهنا صاحت الأصوات من المؤخرة «آهم عملوها!» ودلى كابتن آليستون الحبل الذى يلفه حول رسغه ثم دار إلى الجانب المحمى من

الريح. وشوهد وهو يخلع الحبال الرئيسية من مساميرها بينما الأمواج تتلاطم حوله - ثم صاح فينا قائلًا: «خفضوا القلع الرئيسى» فأخذنا نحدق فيه مندهشين وترددنا فى الحركة مما جعله يصرخ وهو نصف غارق هناك: «الحبل الرئيسى يا رجاله - شدوه - شدوه بأية طريقة - ناموا على ظهركم وشدوا». ولم نكن نؤمن باستطاعتنا تحريك القلع الرئيسى، ولكن الأقوياء وغير اليائسين منا حاولوا تنفيذ الأمر. وساعد آخرون بدون حماس، بينما تأججت عينا سنجلتون فجأة وهو يقبض من جديدعلى برانق العجلة. واتخذ كابتن آليستون طريقه تجاه الريح بجهد شديد وهو يصيح: «شدوا يا رجالة! حاولوا تحركوه - شدوا وساعدوا المركب» وكان وجهه الجاد مغمورًا ثائرًا، ثم صاح محدثًا سنجلتون: «يا ترى ابتدت تتحرك يا سنجلتون؟» فرد البحّار العجوز بصوت أجش مخيف: «ولا حركة يا سيدى». فقال القبطان بسرعة واللعاب يتطاير من فمه: «لاحظ الدفة يا سنجلتون»... شدوا يا رجاله - جرى إيه؟ انتو عاملين زى الفيران؟ شدوا واشتغلوا بذمة».

ورمشت عينا كريتون وهو راقد على ظهره بساق متورمة ناصع البياض، ثم اختلجت شفتاه المزرقتان.

وكان الرجال فى تدافعهم يزحفون نحوه أو يمرون فوق ساقه المصابة أو يركعون على صدره. وبقى فى سكون تام، دون أن يئن أو يتأوه. وكانت حماسة القبطان وصيحات هذا الرجل الصامت مصادر إلهام لنا - فجذبنا الحبل وتعلقنا به فى تجمعات كالعنقود. وسمعناه يحدث دونكن بعنف، وكان هذا متمددًا على بطنه بلؤم: «أنا حاكسر رأسك بالحديدة اللى فى إيدى إذا ما مسكتش الحبل» فرد «ضحية الظلم الإنسانى» وهو يتأوه: «انت ناوى تقتلنا دلوقتى؟» وبدأ يمسك بالحبل فى يأس مفاجئ. وكان الرجال يتنهدون ويصيحون ويتأوهون. أو يسرون بكلمات غير ذات معنى. وتحركت الأوتاد حتى ثبتت رأسية على الريح التى كانت ترسل صيحات عالية عبر القلوع وصاح سنجلتون: «آهى بتتحرك يا سيدى - ابتدت الوقت حالا» فصرخ الكابتن «لفوا الحبل ده. لفوا الحبل» وبذل كريتون جهدا جبارا وهو عاجز عن الحركة ويكاد يختنق، حتى نجح فى جذب الحبل بيده

اليسرى ثم صاح أحدهم: «كلكم شدوا جامد» فأغمض عينيه كمن أصيب بإغماء، بينما تعلقنا جميعا حول الحبل مذعورين نرقب السفينة وما عساها أن تفعل حينئذ.

ورأيناها تعلو ببطء كما لو كانت متعبة يائسة مثل من عليها من الرجال، ثم تحركت تدريجيًا فكتمنا أنفاسنا حتى كدنا نختنق وأخذت تستعين على الحركة بالرياح فخفقت لذلك قلوبنا ـ وكان رهيبا أن نراها، وهى شبه مقلوبة، تبدأ فى شق طريقها وتجر الغاطس منها خلال المياه.

وأخــذت تركيباتها تشق عباب البحر الهائج، وامتلأ نصف السطح السفلى بدوامات عنيفة، وكنت ترى الخط الطويل الأسود لسور الجانب المحمى من الريح يظهر من آن لآخر، فى ساحة من الزبد ناصع البياض كحقل مغطى بالجليد.

وراحت الريح تصرخ بين الصوارى بصوت مبحوح ـ وكنا مع أقل حركة لها، نتوقع أن تنزلق جانبًا من تحت ظهورنا إلى القاع.

وعندما هدأت الريح قامت بأول محاولة ظاهرة لترتفع فشجعناها بصيحات متنافرة وضعيفة، وجرى نحو مؤخرها بحر عال حلق فوقنا لحظة ـ بقمة متموجة، ثم تفتت وهو يهبط وانتشر على الجانبين ليستحيل إلى طبقة متسعة من الزبد المتفجر.

وعلا صوت سنجلتون فوق صفيرها الحاد وهو يقول: «دى بتدور» وكان قد ثبت قدميه بعزم على القضبان فدارت العجلة سريعًا وهو يريح الدفة. وهنا نادى القبطان بصوت عال وهو يتعثر على قدميه: «حول الاتجاه للشمال وهدى المركب» وكان أول من نهض من كومة الرجال المنبطحين على الأرض. وصاح واحد أو اثنان بنشوة: «دى بتعلى».

وبعيدًا عند المقدم شوهد على الأفق مستر بيكر وثلاثة أخرون ـ كانوا منتصبى القامة يرفعون سواعدهم وقد فغروا أفواههم كأنهم يصيحون فى وقت واحد.

واهتزت السفينة فى محاولة للارتقاع بجانبها ـ ثم مالت إلى الخلف فبدت كأنها تستسلم بغطسة جريئة. وفجأة، وبلوحة غير متوقعة تأرجحت بعنف جهة

الريح كأنما انتزعت نفسها من قبضة مميتة. وألقت بكمية المياه الضخمة، التى كانت فوق سطحها، برمتها إلى الجانب الأيمن، فسمعت تصدعات عالية، واندفعت الأبواب الحديدية مفتوحة بطرقات رنانة كالرعد. وهجمت المياه فوق سور الجانب الأيمن بقوة نهر ينحدر فوق سد عال. واختلط البحر فوق سطحها بالبحار التى تطوقها من كل جانب بزئير يصم الآذان - أما هى فقد استدارت بعنف فنهضنا واقفين واندفعنا بدون مقاومة من جانب لآخر. وهتف الرجال وهم يتدحرجون «البيت حايقع» دى بتفرغ اللى عليها «وبعد أن ارتفعت بفعل بحر عال كالبرج اندفعت معه لحظة وهى تسكب أنهارًا غزيرة من كل فتحات جوانبها المتصدعة». وهنا اكتسحت الحبال أو انتزعت من مساميرها - فأخذت كل الصوارى تتأرجح من جانب لآخر بسرعة مريعة مع كل هزة للسفينة. وشوهدالرجال، فى المقدمة، يربضون هنا وهناك بعيون هلعة شاخصة إلى أعلى، نحو الصوارى العاتية التى راحت تلف فوق رءوسهم، واكتسحت الرياح الشراع الممزق وأطراف الترس المكسور فبدت كخصل من الشعر المتطاير.

وهامت السفينة فى أشعة الشمس الساطعة فوق ضوضاء البحار المتألقة وصخبها. شعثاء متهورة، كأنها تولى هاربة لتنجو بحياتها وعند قلعة المؤخرة كنا ندور ونترنح فى صخب وذهول، نتحدث جميعًا فى وقت واحد بخرير رفيع، ونبدو فى هيئة العجزة ونأتى بحركات المجاذيب. وأخذت عيوننا تتألق، واسعة منهكة، فى وجوه هزيلة شاحبة كأنها غطيت بطباشير مسحوق. وكنا ندق الأرض بأقدامنا ونصفق بأيدينا، ونشعر باستعدادنا للقفز وللإتيان بأية حركة. والواقع أننا لم نكن نقوى على الوقوف بثبات على أقدامنا.

وراح كابتن آليستون، بقامته الصلبة النحيفة، عند المؤخرة، يلوح بحدة لمستر بيكر وهو يقول: «ثبت الصوارى دى - ثبتها قد ما تقدر» وعلى السطح الرئيسى أخذ الرجال الذين أثارتهم صيحاته يندفعون فى المياه هنا وهناك على غير هدى، والزبد يغمرهم حتى الوسط، وبعيدًا عند المقدم كان سنجلتون العجوز يقف وحده بجوار الدفة، وقد دس لحيته البيضاء عمدًا تحت الزر العلوى فى معطفه اللامع - وقف ساكنًا متصلبًا، يتأرجح على حافة البحار بضوضائها -

والسفينة تندفع بكل بدنها المتصدع أمام عيونه المسنة الرزينة، وقف بوجه منتبه بينما نسيه الجميع. وأمام قامته المنتصبة وحدها أخذ الذراعان يتحركان متقاطعين، على أتم استعداد لإيقاف أو إسراع حركة البرانق الدائرة. كان يقود بعناية فائقة.

(٤)

اعتاد البحر الخالد، مع رجاله ممن يؤجل هلاكهم بعطف مشوب بالازدراء، أن يغدق عليهم الوفير مما يشتهون من قلق ومتاعب. وفى حكمة بالغة يحرص على ألا يتيح لهم الاسترسال فى تأمل مرارة الحياة وتعقيدها، لئلا يتذكروا فيأسفوا لحرمانهم من جزاء ما عانوا من جرعات المرارة، تلك الجرعات التى كثيرًا ما يبدءون فى تذوقها، ثم لا تفتأ أن تسحب من بين شفاههم المتصلبة الكادحة. ولهذا يتعين عليهم دائمًا أن يبرروا وجودهم أمام ملكوت الرحمة الأبدية التى تتطلب جهدا مضنيًا وكدحًا متواصلًا من شروق الشمس لغروبها ومن غروبها لشروقها، حتى يحل محل التتابع المضنى لليل والنهار - وما يخالطهما من صيحات الحكماء العنيدة، يلتمسون النعيم فى سماء خاوية - سكون مطبق من الألم والعمل، وخوف أبكم، وشجاعة خرساء، لجمع من الرجال المنسيين، المتناسين، الصامدين.

وعندما التقى القبطان ومستر بيكر وجهًا لوجه حدق كل منهما فى الآخر هنيهة، بنظرات ملؤها الدهشة العميقة، كأناس التقوا على غير انتظار بعد سنوات عديدة حافلة بالأهوال. كانت أصواتهم قد خفتت، فراحوا يتهامسون فى يأس، وسأل القبطان:

- يا ترى فقدنا حد؟

- لا، الجميع بخير.

وعاد آليستون يستفسر مرة أخرى!

- فيه مصابين؟

ـ الضابط الثانى بس.

ـ حاشوفه حالا .... إحنا محظوظين!

فصدق مستر بيكر بكلمة «جدا» بإعياء، وقد أمسك بالسور وأخذ يتأمل ما حوله بعينين فى حمرة الدم. وبذل الرجل القصير الأشيب جهدًا ليرفع صوته قليلًا، ثم رمق كبير ضباطه بنظرة باردة نافذة كالسهم، وحدثه بلهجة آمرة وهو يحرك شفتيه الجامدتين: ـ انشر القلوع ـ انشر القلوع بأسرع ما يمكن... الريح معانا... بسرعة... بسرعة يا سيدى... ماتعطيش الرجال فرصة يلتقطوا أنفاسهم... والا حايضعفوا ويكسلوا. ونعطل للأبد... لازم نتحرك حالا.

ثم ترنح بشدة على أثر دحرجة قوية انغمس عقبها الدرابزين فى المياه المتوثبة بفحيح مسموع. وتشبث آليستون بالشراع... ثم ترنح عاجزًا فاصطدم بالضابط وهو يقول:

ـ أخيرا... آدى ريح مواتية.... أفرد القلوع...

كانت رأسه تدور من كتف لآخر، ثم بدأت جفونه تختلج بسرعة وهو يقول:

ـ المضخات... المضخات يا مستر بيكر.

كان ينعم النظر فى محدثه وكأن وجهه القريب قد ابتعد نصف ميل... وأخذ يدمدم بصوت ناعس كمن يوشك أن يستسلم إلى النوم.

ثم قال:

ـ حرك الرجالة... عشان نتحرك بها.

ثم استجمع قواه فجأة ليقول:

ـ مش لازم نسكت.... وإلا مافيش فايدة إلى الأبد.

قالها وهو يحاول جاهدًا أن يصطنع ابتسامة.... ثم تراخت قبضتاه.... ومالت السفينة فاندفع إلى المؤخرة يجرى رغمًا عنه، فى خطوات ضيقة إلى أن وصل بالقرب من صندوق البوصلة. وهناك توقف وهو يحلق فى سنجلتون ـ وكان هذا يرقب، فى قلق، مؤخرة ذراع الرافعة. وسأله القبطان:

ـ معدات القيادة شغالة كويس؟

فملأت حلق البحّار العجوز حشرجة عجيبة، كأن الكلمات تتعارك قبل خروجها إلى حيز الوجود ثم قال آخر الأمر: «شغالة ـ .... زى المركب الصغيرة.

كان يتحدث بصوت رقيق مبحوح، ودون أن يعير القبطان ولا نصف نظرة ـ ثم لف عجلة القيادة بيقظة واعتدل ليعيدها مكانها ثانية.

وانتزع كابتن آليستون نفسه من متعة الاستناد إلى صندوق البوصلة، وأخذ يذرع مؤخرة السفينة جيئة وذهابًا، وهو يترنح ويتمايل محاولا الاحتفاظ بتوازنه. وكانت قضبان المضخة تقفز بصرير عال، بينما دارت الحدافات بسرعة وسهولة عند بدء الصارى الرئيسى. وهى تلقى فى تتابع، للأمام والخلف، بمجموعتين من الرجال تشبثوا بمقابضها. كان هؤلاء قد استسلموا لتلك الحركة الرتيبة التى أخذت تهز أردافهم، بينما جمدت وجوههم وتحجرت عيونهم.... وفى تلك الأثناء، كان النجار يصيح من وقت لآخر بلهجة آلية «حركوها لفوق... ساعدوها..».

ولم يقو مستر بيكر على الكلام ولكنه صاح معنفًا.... ونتيجة لتعنيفه التفت الرجال للحبال وجذبوا أشرعة جديدة.... وحملوا الكتل الثقيلة الى أعلى لتدعيم التروس، وهم يشكون فى قدرتهم على الحركة. ثم راحوا يتسلقون الحبال بجهود يائسة وفى تردد.. وكانت رءوسهم تسبح وهم ينقلون قبضاتهم على الحبال، ويتحسسون طريقهم على أعواد القلاع كأنهم يهيمون فى الظلام. وأخذت رءوسهم تدور وهم يلجئون لأول حبل يصادفهم، فى استسلام من خارت قواهم. ولم تكن نجاتهم من هذه المخاطر الدقيقة لتؤثر على دقات قلوبهم البطيئة، وبدا هدير البحر الصاخب لآذانهم واهيا متواصلا، وكأنه ضجيج خافت يأتيهم من عالم آخر... وملأت الرياح عيونهم بالدموع، وهى تحاول اقتلاعهم فيترنحون من أوضاعهم غير الآمنة.

وهكذا لبثوا يتأرجحون بين السماء والأرض، بوجوه باكية وشعور مشعثة.. وقد امتطوا قمم القلوع، أو زحفوا متشبثين بالحبال، أو احتضنوا الصوارى حتى لا يقيدوا أيديهم، أو وقفوا مستندين إلى السلاسل المربوطة.

وترددوا فى قرارة أنفسهم بين حب الراحة وشهوة الحياة، بينما راحت أصابعهم المتصلبة تلقى بالحلقات لتبحث عن المدى، أو تقبض بإصرار لتقاوم ضربات القلوع.

كانوا يحملقون فى بعضهم بوحشية - ويأتون بحركات عصبية بإحدى اليدين بينما يتشبثون بالحياة باليد الأخرى.وأخذوا ينظرون إلى الشريط الضيق من سطح المركب الغارق فى الماء وهم يصيحون فى اتجاه الريح: «اطلع... شد... استعجل!».

كانت شفاههم تتحرك وعيونهم تحملق قلقة حانقة تحاول فهم ما يدور حولها... ولكن الرياح طوحت كلماتهم الخافتة عبر البحار الهائجة.

ولبثوا يعملون بجهد خارق ودون كلل، كمن يطاردهم حلم قاس لا يرحم. ليخرج بهم فى جو مثلج أو متوهج، يكدون فيه ويكدحون. كانوا يكتوون بالحر ثم يقشعرون من البرد على التوالى، فاحتقنت عيونهم كأنها تعانى من دخان آتون هائل من اللهب، وأوشكت رءوسهم أن تنفجر مع كل صيحة، وبدوا كأن أصابع قاسية تضغط على نحورهم. ومع كل رجة للسفينة كان يلح عليهم خاطر واحد: «خلاص - لازم أسيب أيدى - دى حاترمينا كلنا فى البحر». حتى إذا ما اندفعوا إلى أعلى صاحوا معًا بهلع: «خد بالك هناك - امسك فى الطرف... ميل شوية... لف المكعب ده.....».

كانوا يومئون فى يأس، ويهزون وجوهًا حانقة ويصيحون: «لا....الا....! من تحت لفوق!» وبدوا وكأن كلاً منهم يكن لزملائه كراهية مميتة - واستولى على قلوبهم حنين للانتهاء من كل هذا الجهاد، بينما تأجج فى صدورهم الحرص على إتقان عملهم.... وأخذوا يلعنون طالعهم... ويحتقرون حياتهم.... ويضيعون أنفاسهم الأخيرة فى اتهام بعضهم بعضًا.

وراح صانع القلوع يعمل بنشاط محموم، وقد كشف رأسه الأصلع، ونسى نوادره وعلاقاته الوثيقة مع أمراء البحر. أما الريس فأخذ يتسلق التركيبات ممسكًا بالمخارز ولفائف الغزل... ثم يركع على الصوارى ليدور عند وسط السفينة. وكانت

تلوح أمام ناظريه. فى تلك الأثناء، رؤى خاطفة لزوجته العجوز وصغاره حيث يقيمون فى قريتهم بالأراضى العشبية. وكان مستر بيكر يشعر بضعف تام، وأخذ يقبع كعادته ويترنح هنا وهناك فى إصرار كأنه رجل حديدى. كان يكمن فى طريق القادمين من أعلى يلهثون، ويصدر إليهم أوامره مشجعًا أو مؤنبًا:

- دلوقتى روحوا على القلع الرئيسى.... دا عليكم... مش عاوزكم تقفوا هناك ساكتين. فيزمجر البعض قائلين «هو إحنا مالناش حق فى الراحة؟» فاستدار نحوهم بقسوة واستياء قائلا:

- لا مفيش راحة لكم الغاية ما ينتهى العمل.... لازم تشتغلوا لغاية ما تعجزوا... ده واجبكم هنا.

وهنا ضحك بحَّار عجوز بجواره ضحكة قصيرة، ثم قال بصوت أجش تشوبه المرارة «العمل أو الموت» ثم بصق فى راحتيه العريضتين ورفع ذراعين طويلين ليمسك بالحبل فوق رأسه، وأخذ يحث الرجال بصيحة حزينة أن يتعاونوا جميعًا على جذبه. وفجأة ارتفع البحر بحزاء السطح فطرح الجميع يزحفون جهة الريح وعامت طواقيهم وعصيهم فوق الماء.... وفى غمرة هذا الخضم الزاخر من الزبد الأبيض الفحاح برزت هنا وهناك أيد تتقبض وأقدام ترفص ووجوه تطرطش.

وكان مستر بيكر، الذى طرح أرضا مع الباقين، يصيح فيهم ما نسيبوش الحبل ده - امسكوا فيه!.. اجمدوا». ورغم ما أصابهم من رضوض أليمة بفعل هذه الدفعة القاسية فقد تشبثوا بالحبل وكأنه رحيق حياتهم.

ومرقت السفينة تتدحرج بثقل، بينما أطلت قمم الأمواج برءوسها البيضاء عليها، شرقًا وغربًا. وقام الرجال بحل المضخات وتثبيت الأربطة، ونصب القلوع الثلاثة الرئيسية والقلع الأمامى... فأنسابت السفينة فوق الماء بسرعة متزايدة، وراحت تسابق الأمواج المتلاحقة مخلفة وراءها صخب البحار العالية، ليملأ الهواء برنينه العاتى، متوعدًا السفينة المدبرة.

وهكذا اندفعت السفينة شمالاً وهى محطمة متداعية جريحة، ترغى وتزبد وكأنها تستمد الشجاعة من وحى رسالة جليلة عليا.

وكان عنبر البحَّارة قد أصبح رطبًا مقفزًا .... ونظر الرجال إلى مأواهم باستياء - كان موحلاً يقطر ماء من كل أركانه، ويردد مع الريح صوتًا أجوف، وقد تبعثر فيه الحطام كأنه كهف نصف غارق فى شاطئ صخرى مكشوف.

كان كثيرون قد فقدوا كل ما يملكون على الأرض - ولكن معظم نوبتجية الجانب الأيمن من السفينة حافظوا على صناديقهم التى كانت تنضح ماء فى نهيرات ضيقة.

وكانت الأسِرة مغمورة بالماء، والأغطية مفروشة بعد أن اشتبكت ببعض المسامير - فإذا سار عليها أحد عصرها عصرًا - وراح الرجال يجرون خرقا مبللة من أركان ذات رائحة كريهة، وبعد أن يعصروها يتعرفون عليها كملابسهم، كان البعض يبتسم بجمود بينما ينظر البعض الآخر حولهم فى صمت وبلاهة، وصدرت من بعضهم صيحات ابتهاج لعثورهم على صديرياتهم القديمة كما علت أنات حزينة ممن وجدوا أشياء فقدت شكلها المميز، بين الحطام الأسود من بقايا الألواح والحوامل. واكتشف أحدهم مصباحًا مضغوطًا تحت عمود مائل. وأجهش شارلى بالبكاء بينما راح نويلز يعرج هنا وهناك، يشم الأركان المظلمة ويفحصها بحثًا عما يمكن إنقاذه، وأفرغ من أحد الأحذية ماء قذرًا ثم جدَّ فى البحث عن صاحبه، أما الذين فوجئوا باكتشاف خسائرهم فقد جلسوا أمام باب العنبر بكيعانهم فوق ركبهم وأيديهم مقبوضة تحت خدودهم يحجمون عن النظر إلى أعلى.

ودفع نويلز الحذاء تحت أنوفهم وهو يقول: «آدى بوط كويس - بتاعك؟» فأجابوه باستياء «لا ... حل عننا» وصاح فيه أحدهم «خذه معاك على جهنم» فتساءل «ليه؟ ده بوط كويس؟» ثم تذكر فجأة أنه فقد كل غرزة فى ملابسه فألقى بالحذاء جانبًا، وراح يلعن ويسب.. واصطدمت أصواتهم ببعضها وهم يتشاحنون فى الضوء الخافت. ودخل فى العنبر رجل، وبعد أن ألقى ذراعيه إلى أسفل وقف ساكنا وهو يقول «وآدى بق خمرة قديمة ملعون! آدى بق خمرة قديمة ملعون، وأخذ بعضهم يبحث بشوق عن التبغ فى الصناديق الغارقة بالماء - كانوا يتنفسون بجهد، ويتصايحون برءوس منكسة - ثم قال أحدهم والدموع ملء عينيه،

وهو يرفع بين يديه سروالاً يقطر ماء «شوف ده ياجاك..«شايف يا سام كسوة البر خسرت خالص! ».

ولم يعره أحد اهتماما... ودخل القط من مكان ما فلقى استقبالاً حافلاً: اذ تخاطفوه من يد لأخرى، وأخذوا يحضنونه ويدللونه، وهم يعجبون كيف اجتاز الأزمة بسلام. ثم بدءوا مناقشة حامية. وهنا دخل رجلان إلى عنبر بسطل من الماء القراح، فتزاحم الكل حوله، ولكن توم وصل أولاً، وهو ينونو، بجسم ضئيل وفروة منقوشة. فشرب قبل الجميع. ثم اتجه رجلان إلى المؤخرة ليحضرا قليلا من الزيت والبقسماط.

وفى الضوء الأصفر راحوا ينتهزون لحظات الراحة من مسح سطح السفينة ليقضموا البقسماط. وبدءوا يتفقون فيما بينهم على استعمال ما تبقى من الأسرة والمعاطف والأحذية بالتناوب وأخذوا ينادون بعضهم بأصوات مبتهجة «يا عمى»، «يا بنى» وتجاوبت أصداء صفاتهم الودية ونكاتهم المتبادلة.

وتمدد واحد أو اثنان منهم فوق سطح السفينة المبلل يتوسدون سواعدهم بينما جلس آخرون فوق الطاقة (باب أرضى) يدخنون، وبدت وجوههم المرهقة فى غلالة رقيقة من الضباب الأزرق، كانت هادئة متألقة العيون. وأطل الريس برأسه من الباب ليصيح فيهم قائلاً: «واحد منكم يستلم العجلة..الساعة ستة. أنا أراهن أن سنجلتون العجوز بيلاحظها من أكثر من ثلاثين ساعة...أما جدعان صحيح! » ثم خبط الباب خلفه وعلق أحدهم: « دى نوبة الضابط الأول على السطح » فصاح ثلاثة أو أربعة منهم بصوت واحد: « ياللا يا دونكن الدور عليك»، وكان هذا قد زحف إلى أحد الأسِر الخالية ورقد ساكنًا فوق الواحه المبللة. وعادوا ينبهونه: «دونكن..دورك عند العجلة» فلما لم ينبس ببنت شفته صاح أحدهم: «دونكن مات» فعلق آخر «بيعوا هدومه العرة... يا دونكن إن ما رحتش للعجلة الملعونة حايبيعوا هدومك.. سامع؟ » وهنا تأوه دونكن فى جحره المظلم، وأخذ يشكو من آلام فى عظامه كلها، وينتحب مستدرًا عطفهم. فلرتفع صوت حانق قائلاً: «مش عاوز يروح - الدور عليك ياديفيز» فنهض البحّار الشاب وهو يبسط كتفيه متألمًا بينما أطل دونكن من السرير برأسه فبدت هشه شاحبة

فى الضوء الأصفر ثم قال مراضيًا ديفيز «أنا حاعطيك رطل دخان أول ما أستلم نصيبى من هناك ـ آخ..الله يكون فى عونى...» فلوح ديفيز بذراعه وظهر يده وابتعد وهو يتوعد دونكن «أنا رايح ـ لكن حاجازيك».

وسار نحو الباب متعثرًا لكن فى إصرار. ولاحقه عواء دونكن وهو يقفز خلفه: «وأنا كمان حاجازيك... ربنا يعيننى... رطل!.. ثمنه ثلاثة شلنات...».

ودفع ديفيز الباب أمامه وهو يقول من فوق كتفه: «أنا حاجازيك بنفسى..بس لما الجو يتحسن».

وبادر أحدهم بحل أزرار معطفه ليلقيه فوق رأس دونكن قائلا: «انت يا دلدول ـ خذ ده يا لص!» فصاح دونكن فى الظلام «متشكر» فارتفع صوته فوق صرير المياه المتسربة وسمعه الآخرون وهو يبلبط فى الماء بعد أن هاجم البحر سطح السفينة بصوت مكتوم. ثم علق عجوز متجهم على ما حدث «آهو أخذ حمام طوالى» وصدق آخرون آى! آى».

وبعد فترة صمت طويلة صدرت من واميبو أصوات غريبة، فقال أحدهم بتذمر« سلامات، جرالك إيه؟» فتولى آرتشى، الذى كان بمثابة مترجم للفنلندى، إيضاح الموقف« بيقول إنه كان مستعد يروح بدل ديفيز» وهنا ارتفعت بعض الأصوات...« صادق... معلهش يا فنلندى... يا بوعقل ملخبط... دورك جى حالاً...عمرك ما تعرف امتى تستريح».

ثم سكتوا جميعًا واستداروا بوجوههم نحو الباب ـ وخطا سنجلتون خطوتين اثنتين ثم مال يمينًا ويسارًا، وسمع خرير البحر وهو يفيض ويرعد، فاهتز عنبر البحَّارة وقد امتلأ بأصوات عميقة. وتوهج لهب المصباح وأخذ يتأرجح كالبندول. وحملق سنجلتون فيهم بنظرة حالمة حائرة كأنه لا يقوى على التميز بين الرجال الساكنين والأشباح المتراقصة. وسمعت همسات صدرت ممن استولى عليهم هول الموقف:

«أهلاً ـ أهلاً. ازى الحال بره ياسنجلتون؟» ورفع الجالسون على الطاقة عيونهم فى صمت، أما البحَّار الذى يلى سنجلتون فى السن فوق السفينة (وكان

الاثنان يفهمان بعضهما جيدًا ولولم يتبادلا ثلاث كلمات فى اليوم الواحد إلا نادرًا) فقد دقق النظر فى صديقه هنيهة، ثم قدم إليه غليونًا من الفخار انتزعه من فمه دون أن ينبس بكلمة. فمد سنجلتون ذراعه ليمسك بالغليون ولكنه لم ينجح، ثم ترنح وسقط فجأة على الأرض، بقامة مديدة صلبة كجزع شجرة اقتلعت من جذورها. وتدافع الكل نحوه وهم يصيحون: ده خلص خلاص»... اقلبوه على الجنب الثانى» «ابعدوا عنه».....

وبين حشد من الوجوه التى روعتها المفاجأة فانحنت تنظر إليه، رقد سنجلتون على ظهره يحلق إلى أعلى بنظرات لاتطاق. وفى هذا الصمت الذى لم يكتنفه نفس واحد، همهم قائلا وهو يقبض يديه: «أنا بخير» وساعدوه على النهوض وهو يتمتم فى قنوط «أنا كبرت فى السن... كبرت...» فاعترض بلفاست بسرعة ولباقة «مش أنت» ثم رفع سنجلتون رأسه وقد اتكأ على زملائه من جانب وهم يسألونه: انت تحسنت؟ » فحملق فيهم بعيون كبيرة سوداء أسفل حاجبيه، ولحيته الطويلة الكثة البيضاء تفترش صدره. ثم كرر فى حزم كلماته «عجوز! عجوز! » واستعان بهم حتى وصل إلى سريره - وكانت تعلوه كومة لزجة، موحلة، ذات رائحة كريهة، مثل ما يظهر فوق شط موحل بمياه راكدة.كان هذا سريره القش وقد أغرقته المياه - فارتمى فيه بجهد ملحوظ، وسمع صوت فى ظلام العنبر وهو يتأوه غاضبًا وكأنه وحش حانق، يفتقد الراحة فى عرينه. ونطق بكلمات متفرقة: «نسمة بسيطة... شوية صغيرة..مش قادر أقف...عجوز! » وأخيرا غلبه النوم - وكانت أنفاسه ثقيلة - وحذاؤه مرفوعا لأعلى، وقبعته فوق رأسه - وسمعت شخشخة. ملابسه المشمع وهو يتقلب فى سريره بأنين عميق.وأخذ الرجال يتهامسون عنه باهتمام وحزن فقال أحدهم «المرة دى حاتخلص عليه» ورد آخر «دا جامد زى الحصان »... وقال ثالث «أيوا - لكن ما عادش زى ما كان زمان...».

وباختصار عبر الكل عن يأسهم من حياته فى همسات حزينة، ومع ذلك فقدعاد لأداء واجبه عند منتصف الليل وكأن شيئًا لم يحدث، ورد بحزن على نداء اسمه بكلمتى «موجود هنا» ولكنه استسلم للعزلة والاكتئاب أكثر من ذى قبل، واعتراه صمت منيع، وظهر الحزن على وجهه. كان قد استمع سنوات طويلة

للرجال ينادونه «سنجلتون العجوز» وتقبل هذا النعت عن طيب خاطر كضرب من الاحترام والتقدير لرجل سبر غور قوته طيلة نصف قرن، بمواجهة البحر فى غضبه ورضاه. ولم يحدث من قبل أن فكر مرة واحدة فى شخصه الضعيف... بل عاش حياته دون أن يمسه أذى، يستسلم لكل ضروب الإغراء، ويتغلب على العديد من العواصف، وكأنه خلق أقوى من الفناء. وطالما لهث فى الشمس الساطعة، وارتعد من البرد القارس، وعانى من الجوع والعطش والفسق، واجتاز العديد من المحن، وعرف كل ضروب الغضب. «عجوزاً». لقد بدا له إنه انتهى أخيرًا، وهكذا أفاق من نومه مقيدًا بسلاسل طويلة من تغاضى المجتمع عنه، وإهماله له سنين عديدة ـ كأنما قيد بها غدرًا وهو نائم. كان عليه أن يضطلع فورًا بعبء كينونته كلها. ووجد هذا فوق طاقته. «عجوز»!

حرك ذراعيه... وهز رأسه... وتحسس أطرافه ـ هل يتقدم به السن حقًا؟ ... وبعد؟ ... ونظر بوعى كامل إلى البحر الخالد وما له من قوة غاشمة... رآه ثابتًا لا يتغير، أسود يرغى ويزيد، تحدق فيه النجوم الأبدية بأشعتها الثاقبة. وسمع صوته الحانق يستدعيه من عالم حافل بالقلق والضجة والرعب. ونظر إليه من بعد فرأى عالمًا معذبًا أعمى، حانقًا متأوهًا، يطالب بكل أيام حياته الصامدة، حتى إذا ما غابت هذه، طالب بجسد عبده المرهق.

وكان هذا آخر عهدهم بالنسيم ـ فسرعان ما اختفى واستحال إلى عاصفة داكنة تهب من الجنوب الشرقى، دفعت السفينة شمالاً نحو منطقة الشمس المرحة المشرقة. وانسابت السفينة سريعة بيضاء تحت سماء زرقاء، وفوق بحر منبسط أزرق ميممة فى خط مستقيم نحو مسقط رأسها ـ وكانت تحمل فوقها حكمة سنجلتون المكتملة، ونقائص دونكن الحساسة وطيشنا وغرورنا جميعًا.

ونسى الكل فى أيام السلم الرقيقة المتألقة، ساعات الصخب غير المجدى ـ فلم يشر أحد بتاتاً إلى اللحظات القاتمة من الرعب والأسى ـ ومع ذلك خيل إلينا أن حياتنا جميعًا قد بدأت من جديد منذ هذا الوقت العصيب، كأننا متنا ثم بعثنا من جديد واستحال الجزء الأول كله من الرحلة. رحلة المحيط الهندى قبل الرجاء الصالح ـ إلى ذكرى باهتة، وكأنه شك، فى وجود سابق لا يمحى. وكان هذا قد

انقضى لتتلوه ساعات من الفراغ، وغشاوة شاحبة زرقاء. ثم عشنا من جديد... فحظى سنجلتون بالحقيقة المرة، وخرج مستر كريتون بساق مكسورة، وكسب الطاهى شهرة مطبقة، ولو أنه أساء بتصرفاته الطائشة، إلى ما اكتسبه من مركز متميز أما دونكن فقد ازداد حنقًا وامتعاضًا. وأخذ يتجول وهو يردد بإصرار قوله « هوه قال إنه حايطير مخى - مش سمعتوه - آهم دلوقتى رايحين يقتلونا على أقل غلطة ».

ونتيجة لذلك بدأنا أخيرا نعتقد أن الأمر أصبح مريعًا - كان قد اعترانا الكثير من الغرور فتفاخرنا بشجاعتنا وكفاءتنا وطاقتنا الهائلة، واستعدنا بعض الحوادث المشرفة التى تثبت تفانينا وصمودنا - وامتلأنا زهوًا بها كما لو كانت حصيلة دوافع فردية تلقائية ثم تذكرنا ما تعرضنا له من ضروب المخاطر المشاق - وسمحنا لأنفسنا أن نتناسى ما اعترانا من رعب هائل.

وأخذنا ننتقد ضباطنا - مدعين أنهم لم يفعلوا شيئًا - وكنا فى كل ذلك ننصت إلى دونكن بلهجته الساحرة المؤثرة، وقدخيل إلينا أنه يحرص على حقوقنا ويهتم بكرامتنا وقد تجرد من أية أثرة أو أنانية. واستعنا فى كل هذا بألفاظ جارحة ونظرات شزرة مشمئزة. كنا نحتقره إلى أقصى الحدود، ومع ذلك لم نكن نملك إلا الإنصات لهذا المنافق الماهر. وراح يؤكد لنا إننا طيبون فيقول «شوية رجالة طيبين محكوم عليهم بالإعدام... مين بيشكرنا؟ ... مين بيفكر فى مظالمنا - إحنا عايشين عيشة الكلاب عشان اثنين جنيه ونص فى الشهر - تفتكروا الأجرة الفالصو دى تعوضنا عن المخاطرة بحياتنا وضياع هدومنا؟ دى كل خرقة حيلتنا ضاعت ». ولبث يصيح بهذه الكلمات المثيرة حتى أنسانا أنه شخصيًا - على أية حال - لم يفقد أى شىء يخصه.

وأنصت الشباب إليه وهم يقولون فى قرارة نفوسهم: «دونكن ده جدع جرىء، ولو إنه مش راجل بمعنى الكلمة» - وأفزعت الإسكندناويين جرأته ووقاحته - أما واميبو فلم يفهم شيئًا. وأما الرجال المسنون فكانوا يومئون برءوسهم وهم يفكرون فتهتز أقراطهم الذهبية الرقيقة وتلمع فى ثقوب آذانهم المشعرة. واستندت وجوه وهنه و مسنة لفحتها الشمس، على سواعد مغطاة بالوشم ، وقد استغرقت فى

تفكير عميق. وأطبقت قبضاتهم السمراء بعروق بارزة على الفخار الأبيض المتسخ فى غلايينهم المتقدة - وأخذوا ينصتون فى سكون تام بظهورهم العريضة وكواهلهم المحنية، ووجوههم الصامتة المتجهمة..

كان دونكن يتحدث بحماس، وكان فى وقت واحد موضع احتقارهم ومصدر إيمانهم. وانسابت بلاغته المؤثرة - على دناءتها - كأنها سيل مضطرب من نبع مسموم. وتراقصت عيناه الصغيرتان كخرزتين، تنظران يمينًا ويسارًا ترقبان بحذر دائم اقتراب أحد الضباط.

وأحيانا كان مستر بيكر كلما تقدم لتفقد الأشرعة العليا يندفع بطريقته الفظة خلال سكون الرجال، وأحيانا أخرى يدخل مستر كريتون، وهو يعرج ليظهر بوجهه الناعم، يافعًا، حازمًا أكثر من قبل، ويمرق فى فترات صمتنا، بنظرات تتبعث كالسهم من عيون قوية صافية. وما أن يدير ظهره حتى يعود دونكن من جديد ليرمقه بنظرات جانبية متلصصة، ثم يقول آدى واحد منهم، فيكم ناس ساعدوه كثير يومها - وماقالش لكم كلمة شكر واحدة... زقوه فى البحر... ليه لا... ده يوفر متاعبنا» ثم يتقدم فى ثقة، معتمدًا على تأثيره القوى - ليهمس تارة ويصيح تارة أخرى وهو يلوح بذراعيه اليائستين الدقيقتين، ويمط عنقه النحيل - ثم يغمز ويغمغم. وفى فترات الصمت التى تخللت خطابه الحماسى كانت الريح تئن بهدوء من فوق، والبحر الغاشم يهمس متوعدًا بحذاء السفينة.

كنا نشعر بكره شديد نحو هذا المخلوق، ولكننا لم نستطع إنكار ما انطوت عليه ادعاءاته من حقائق جلية كان كل شىء واضحًا. فلا شك أننا كنا رجالاً طيبين وكانت حقوقنا كبيرة وأجورنا ضئيلة... وكنا قد أنقذنا السفينة بجهودنا المضنية، ولكنهم أرجعوا الفضل فى ذلك كالعادة للقبطان... ثم تساءلنا عما فعله هو فى هذا السبيل. وسأل دونكن:«كان حايقدر يعمل إيه من غيرنا» ولم نحر جوابًا، إذ غلبنا الشعور بظلم الدنيا، ودهشنا كيف عشنا طويلاً نعانى من وطأته دون أن ندرك سوء حظنا، ثم استأنا واضطربنا لظننا أننا أغبياء لا نقوى على الإدراك أو التمييز وهنا أكد لنا دونكن أن كل هذا يرجع «لطيبة قلوبنا» ولكننا رفضنا هذه السفسطة السطحية، إذ كانت لدينا الرجولة الكافية للاعتراف

بشجاعة، أمام أنفسنا،بقصورنا الذهنى ـ ومع ذلك فقد أحجمنا بعدئذ عن رفسه أو قرص أنفه أو طرحه أرضًا. وكان هذا قد أصبح مصدرًا للهونا فى الفترة الأخيرة بعدأن اجتزنا رأس الرجاء الصالح.

كذلك لم يعد ديفيز يستفزه بالحديث عن العيون المتورمة المسودة والأنوف المفطوسة، وكف تشارلى ـ بعد أن صقلته العاصفة. عن السخرية منه. أما نويلز فقد وجه إليه بلباقة واحترام مثل هذه الأسئلة:يا ترى ممكن كلنا نأخذ أكل زى الضباط؟ممكن نرفض كلنا نطلع على المركب لغاية ما يجيبوا مطالبنا؟ ولو نجحنا فى المحاولة دى نطالب بإيه بعد كده ؟وكان دونكن يجيبه فورا وبيقين يشوبه الازدراء، وأخذ يتبختر بثقة فى ملابس أكبر منه كثيرا، حتى لقد بدا كأنه يحاول التخفى فيها، وكانت أغلبها ملابس جيمى ـ فحقيقة أنه كان مستعدًا لقبول أى شىء من أى شخص ولكن لم يكن لدى أحد سوى جيمى ما يمكن الاستغناء عنه وكان يدين لجيمى بولاء لا حدود له، ولهذا كان يزوغ دائمًا إلى قمرة جيمى، ويسهر على خدمته.وإجابة طلباته ويستسلم لنقده اللاذع، ويشاركه فى مزاحه. ولم يكن يلويه شىء عن واجبه فى زيارة المريض ـ وخاصة حينما يكون هناك عمل شاق على سطح السفينة.

وحدث ـ أن جذبه مستر بيكر، من قفاه، ليخرجه من القمرة، فى مناسبتين، فأثار ذلك سخطًا مكتومًا فى نفوسنا ـ وكنا نهمس باعتراضاتنا «عاوزينا نسيب الجدع العيان وحده» «يعنى لازم يهينونا عشان بنعتنى بزميل بحَّار؟» وهنا يعلو صوت مستر بيكر «إيه؟ ويلتفت متوعدًا نحو مصدر الامتعاض ـ فيتراجع الرجال فورا، فى نصف دائرة، خطوة إلى الوراء ـ ويصدر الربان أوامره بغير هوادة: «ارفعوا الشراع العلوى الأمامى ـ على فوق بسرعة ـ دونكن شد التروس... جيب القلع على هنا ـ شاركوا كلكم بأيديكم».

وبعد تثبيت الشراع يتجه ببطء إلى الخلف ويقف ينظر طويلاً إلى البوصلة، وقد أعياه الهم ـ كان يقف ليفكر ويتنفس عنوة ـ كأنه يعانى من اختناق بسبب

ماسرى فى السفينة من سوء نية ليس له مايبرره. ويسترسل فى تفكيره. «جرى لهم إيه؟ أنا مش فاهم سبب رجوعهم ورا ولا سبب برطمتهم - خصوصًا دى مجموعة كويسة بالنسبة للموجود الأيام دى...».

وكان الرجال على سطح السفينة يتبادلون فى بلاهة أحاديث ملؤها المرارة، تنبعث من ضيقهم بالظلم ويأسهم من علاجه، وعجزهم عن تجاهله. وكانت كلمات دونكن تلح عليهم وتلاحق آذانهم لفترات طويلة بعد أن يتوقف هذا عن الحديث.

ومضى بنا عالمنا الصغير فى مجاله المنحنى المحدد، يحمل أناسًا متطلعين غير راضين. كانوا قد وجدوا ضربًا من الراحة المقبضة فى التحليل الدقيق المستمر لبخس المجتمع قدرهم وحقوقهم وأخذوا - تحت تأثير نظريات دونكن المشرقة بالأمل - يحلمون بحماس، بالوقت الذى يهيأ فيه لكل سفينة وحيدة أن تسير فى أمان فوق بحر هادئ، وهى آهلة بطاقم بحَّارة ينعمون بالثراء ورغد العيش.

وبدا كأن الرحلة ستطول، فبعد أن خلفنا وراءنا الرياح التجارية الجنوبية الشرقية، بخفتها وعدم استقرارها، سارت السفينة عند خط الاستواء، تحت سماء رمادية وطيئة، وفوق بحر مستو كأنه صفحة من زجاج مجروش.

وشوهدت فى الأفق بوادر عواصف رعدية، أخذت تطوق السفينة وهى تزأر فى غضب كقطيع من الوحوش تتوجس خيفة من الانقضاض على فريستها. وأرسلت الشمس المحتجبة، وهى تسرع فوق الصوارى المنتصبة، بقعة ضبابية من ضوء بلا أشعة، ولازمتها، من الشرق إلى الغرب فوق سطح الماء غير المتألق، بقعة مماثلة من بريق باهت.

وفى المساء تسللت، خلال الظلام الكثيف، الذى يطوق الأرض والسماء، رقائق عريضة من اللهب، ومرت لحظة خاطفة برزت فيها السفينة الساكنة، بصواريها وتجهيزاتها، وقد ظهر كل شراع وكل حبل فيها حالك السواد، فى وسط لجة من النيران، وكأنها سفينة متفحمة يحتويها عالم كروى من النار.

ثم عادت تهيم - ساعات طويلة - فى كون شاسع من الصمت والظلمات - كون ترتجف فيه الأشرعة الساكنة - كمن يعتريه رعب مفاجئ - مع الأنات الرقيقة الهائمة هيام الأرواح المعذبة، هنا وهناك - هذا بينما يهتز كفن المحيط على بعد، ليعبر عن إشفاقه فى همسات، وبصوت ضخم، حزين خافت.

وعندما أطفئ المصباح، أخذت تتجلى من الباب المفتوح أمام جيمى وهو يُقلب رأسه على وسادته، خيالات سريعة مكررة، تختفى بعد خط السور المستقيم. كانت أشباحًا سريعة مكررة لعالم خيالى من النيران الرابطة والمياه الساكنة. وأخذ البرق يتألق فى عينيه الكبيرتين الحزينتين، فبدت كأنها تحترق بوهج أحمر فى وجهه الأسود، ليرقد بعدئذٍ أعمى لايراه أحد، فى لجة من ظلام مطبق.

وكان يسمع على سطح السفينة الهادئ وقع أقدام ضعيفًا أو تنفس رجل ينام على عتبة الباب، أو أزيز الصوارى المتمايلة، أو الصوت الهادئ لضابط الحراسة، يتردد قويًا وعاليًا وسط الأشرعة المتأرجحة. وأخذ ينصت بشغف ويلتمس الراحة من سهده المضنى، فى تلقف أبسط الأصوات من حوله. كان يبتهج لسماع شخشخة الحبال، ويطمئن لتحركات النوبتجى وهمساته، ويهدأ بالاً مع التثاؤب البطىء لبحّار مكدود يغالبه النوم، يلتمس تعسيلة، فوق الألواح.

وهكذا بدت له الحياة أقوى من العدم: كانت مستمرة فى الظلام استمرارها فى ضوء الشمس وأثناء النوم، وكانت تحوم بحنان، دون أن يصيبها الكلل، حول ادعائه الباطل بقرب أجله. كانت متألقة كالبرق، وحافلة بالمفاجآت أكثر من الليل الحالك. وكانت تبعث الأمان فى نفسه إذ كانت فى نظرة ثمينة دائمًا، سيان فى ذلك ظلامها الهادئ المطبق وضوؤها الخطير غير المستقر.

ولكن كلما أتى المساء، وأثناء ساعات الحراسة الأولى كانت تجتمع أمام قمرة جيمى زمرة من الرجال - فيستند بعضهم إلى جانبى الباب - فى شوق ووئام - ويجلس آخرون القرفصاء يتجاذبون الحديث، ويقف غيرهم أمام عتبة الباب، أو يجلسون على صندوقه، أزواجًا صامتين - بينما ينظر ثلاثة أو أربعة منهم متأملين من بعيد، فيضىء وجوههم البسيطة الوهج المنعكس من مصباح جيمى.

وكان المكان الضيق، بعد أن أعيد طلاؤه باللون الأبيض، يتألق فى الليل كأنه ضريح من الفضة، لمعبود أسود، يستلقى جامدًا تحت غطائه، ويرمش بعينيه المتعبتين وهو يتقبل فروض ولائنا وإجلالنا. أما دونكن فكان يشرف على الموقف رسميًا، وكأنه يستعرض ظاهرة أو معجزة. بسيطة وغريبة وجديرة بالاهتمام. إذ يلقن الحاضرين درسًا عميقًا لايمحى. وكان يصيح من آن لآخر وهو يشير بيد نحيلة جامدة كمخلب السنجاب «بصوا عليه بس. هو فاهم كل حاجة - ماتخافوش أبدًا» وهنا يبتسم جيمى بتحفظ، وهو راقد على ظهره، ودون أن يحرك ساكنًا. كان حريصاً على إظهار وهنه وضعفه الشديد، حتى يشعرنا أننا، بغيابنا عليه تلك الليلة، وبأنانيتنا وإهمالنا لشئونه قد تسببنا فى «التخليص عليه»، وكان يلذ له أن يتحدث عن تلك الليلة، فيروقنا حديثه هذا بطبيعة الحال. وكان يحدثنا بتأثر شديد، وفى فقرات قصيرة سريعة، تتخللها فترات صمت طويلة، وكأنه رجل مخمور يسير متعثرًا. وكان يقص تجربته بقوله «الطباخ كان لسه عاطينى فنجال قهوة سخنه... رماه لى هناك على صدرى. وخبط الباب وراه.... وحسيت بحركة ثقيلة - فحاولت أحافظ على القهوة فحرقت صوابعى... ووقعت من السرير... المركب انقلبت بسرعة... لدرجة أن الميه دخلت من فتحة الهواء... ماقدرتش أحرك الباب... كأنى فى قبر مظلم... حاولت أتشعبط للسرير الأعلى... الفيران - فأر عض صباعى وأنا نايم... اتهيأ لى أنكم مش حاتيجوا أبدا... فكرت أنكم كلكو وقعتوا فى البحر... طبعًا... ماكنتش سامع حاجة غير الريح... وبعدين جيتم... تدوروا على جثتى... أظن... لو كنتم تأخرتم شوية...؟» وهنا علق آرتشى وهو يسترجع ذكرياته «بس ياراجل أنت كنت عامل دوشة زيادة عن اللزوم هناك» فرد جيمى عليه قائلاً «ياولاد أنتوا كنتو بتخبطوا برجليكم فوق بطريقة فظيعة.. ترعب أى إنسان... وأنا ماكنتش عارف أنتو عاوزين تعملوا إيه... نازلين عزق فى الألواح... راسى... تمام زى ماتكونوا شلة هبل... مفزوعين... ومن غير فايدة لى على أى حال... أنا تمنيت ساعتها أغرق وخلاص» ثم تأوه وهو يضرب أنيابه البيضاء وينظر باحتقار.... ورفع بلفاست عينين حزينتين وابتسم فى أسى، ثم قبض

راحتيه خلسة، بينما أخذ آرتشى ذو العينين الزرقاوين، يداعب، شاربه الأحمر بيد مترددة.

وبحلق المخزنجى وهو واقف عند الباب، ثم ابتعد فجأة وهو يقهقه عاليا. أما واميبو فكان سارحًا.... وتحسس دونكن ذقنه الجرداء بشعيراتها المعدودة ثم قال بفخر وهو ينظر جانبًا إلى جيمى «بصوا عليه: ياريتنى كنت فى نص صحته - ياريت» ثم أشار بإبهامه نحو مؤخرة السفينة وهو يقول بجدية مفتعلة «دى الطريقة الملعونة اللى تنفع معاهم» فرد عليه جيم بصوت لطيف «بلاش هبل ياملعون» أما نويلز فقد قال بلؤم وهو يحك كتفه فى عامود الباب «مانقدرش كلنا نعيا مرة واحدة... ده يبقى تمرد». فهتف دونكن: «تمرد... أيه... مافيش أى قانون يمنعنا من المرض» فأجابه نويلز: «ستة أسابيع أشغال شاقة للامتناع عن العمل.... أنا فاكر مرة شفت فى كارديف بحّارة مركب عليها حمل تقيل... وكان ماشى جنبها على الرصيف راجل عجوز حنين، فى أيده شمسية - فقال للبحّارة وهو يكاد يبكى عليهم «... مش حرام تعرقوا فى الشتاء عشان كم جنيه زيادة فى دخل صاحب المركب؟» وكانت ملابسه محترقة وبعدين البحّارة قالوا أنهم مش مستعدين يغرقوا فى الشتاء، وحايعتمدوا على الراجل ده يدافع عنهم فى المحكمة... لكن أتحكم عليهم بستة أسابيع لأن المركب ماكانتش محملة زيادة عن اللزوم. هم قالوا الكلام ده فى المحكمة - ماكانش فى الحوض ولامركب محملة زيادة. ويظهر أن الراجل ده كان مأجور من ناس طيبين، وماشافش كويس. وحاولت أنا وشوية من اللى بينزلوا معايا فى بيت كارديف، وإحنا بندور على مركب نشتغل عليها، حاولنا نمسك الراجل ده.... لكنه اختفى بمجرد خروجه من المحكمة... لكن البحّارة اتحكم عليهم بست أسابيع أشغال شاقة».

وأنصت الرجال لحديثه كله وقد تملكهم حب الاستطلاع، وكانوا كلما سكت قليلا يشيرون موافقين أو يتأملون مايقول بوجوه خشنة البشرة. وتأهب دونكن للحديث بفتح فمه مرة أو مرتين، ولكنه تمالك نفسه. أما جيمى فكان راقدًا فى سكون وعيناه مفتوحتان دون أن يبدى اهتمامًا. وعلق أحد البحّارة على الحديث

بأن «القضاه الملاعين بعد أن يصدروا مثل هذه الأحكام بيسكروا على حساب الريان» فوافقه الآخرون بقولهم «طبعًا ـ ده شىء واضح» وقال دونكن: «ستة أسابيع مش مشكلة كبيرة... الواحد ينام طوال الليل... اعملوها على مسئوليتى» فسأله أحدهم «أنت متعود عليها ـ مش كدة يادونكن؟» وتنازل جيمس قليلا ليضحك، فابتهج الجميع لذلك بدرجة ملحوظة، وتقدم نويلز ببديهة حاضرة ليقول: «إذا عيينا كلنا المركب تعمل إيه؟» ثم نظر حوله متجهمًا وهو يعرض عليهم المشكلة. وهنا أجابه دونكن على الفور: «تروح فى داهية ـ الله يلعنها... هيه مركبك؟» فتساءل نويلز بلهجة ملؤها الدهشة: «إيه؟... نسيبها وحدها فى مهب الريح؟» وأجابه دونكن بإصرار وعدم اكتراث: «آى ـ تنحرف وتتحرق كمان» ولكن محدثه لم يفهمه فأضاف قائلاً «المخازن تشطب... والمركب ماتوصلش لأى مكان...» ثم قال بيقين واضح «وتعملوا إيه يوم القبض»؟ فأجاب أحدهم «آه ـ جاك يحب يوم القبض» ورد آخر يقف على عتبة الباب «طبعًا ـ لأن البنات ساعتها بيحطوا أيد على كتفه وأيد فى جيبه ويدلعوه ـ مش كده ياجاك؟» وقال ثالث «جاك أنت خطير مع البنات» وأضاف رابع «ده بيمشى مع ثلاثة مرة واحدة ـ زى جرار واتكننز أبو مدخنتين لما يشد وراه ثلاث مراكب» وقال خامس «ياجاك أنت أعرج وملعب» بينما ألح سادس بقوله: «جاك ـ أحكى لنا عن البنت أم عين زرقا وعين سودا، أحكى» ورد آخر معترضًا: «فيه بنات كثير بعين سودا واحدة بنقابلهم فى السكة...» فأضاف محدثه «لا دى واحدة غيرهم كلهم ـ ياللا ياجاك».

وكانت نظرات دونكن حينئذ برمة قاسية ـ أما جيمى فبدا عليه الملل ـ وهز بحار ماهر رأسه الأشيب قليلاً، وابتسم وغليونه فى يده وقد راقه الحديث. أما نويلز فقد دار حوله مشدوهًا ثم أخذ ينظر مترددًا إلى الواحد ثم الآخر وأخيرًا قال: «لا... مستحيل... أنا ماقدرش أحكى على حاجات زى دى وسطكم... إنتو بتحبوا دايما تهزروا» ثم ابتعد فى خجل ـ وهو يتمتم راضيًا. فضحك الآخرون كثيرًا فى الضوء الخافت حول فراش جيمى، حيث أخذ وجهه الأسود المجوف يتحرك فى قلق يمينًا ويسارًا، على الوسادة البيضاء.

وهبت ريح خفيفة جعلت لهب المصباح يقفز، والأشرعة تخفق فى الخارج، وقاعدة الشراع الأمامى تضرب الحاجز الحديدى ضربة مدوية. وصاح صوت من بعيد: دوروا الدفة لفوق وأجابه صوت آخر أكثر وهنًا «على الآخر ياسيدىٰ» ثم سكت الاثنان وهما ينتظران فى ترقب، وخبط البحَّار الأشيب غليونه على عتبة الباب ثم نهض واقفًا - بينما مالت السفينة بهدوء - وبدا البحر كأنه يستيقظ من نوم عميق، ويهمس مغالبًا النعاس. ثم قال أحدهم بصوت منخفض: «آدى نسمة خفيفة جاية» فاستدار جيمى ببطء ليواجه النسيم، وصاح الصوت المنبعث من الليل، عاليًا آمرًا «اسحبوا قلع المؤخرة» فتلاشت الجماعة الواقفة بجوار الباب، وسمع وقع أقدامهم فى المؤخرة وهم يرددون بنغمات متباينة: قلع المؤخرة قلع المؤخرة... سحبنا القلع ياسيدى.

هذا بينما بقى دونكن بمفرده مع جيمى - وساد الصمت فترة انفرجت فيها شفتا جيمى ثم انقبضت عدة مرات وكأنه يبتلع جرعات من الهواء النقى، ثم حرك دونكن أصابع قدميه العارية وهو ينظر إليها متأملا. وسأله جيمى بقوله «مش حاتروح تساعدهم فى سحب القلع؟» فرد دونكن بصوت عميق ملؤه الملل، وكأنه يتكلم من قاع حفرة: «لا. إذا كان ستة منهم مش كفاية عشان يسحبوا القلع الملعون ده يبقوا مايستحقوش يعيشوا».

وهنا نظر جيمى متأملاً باهتمام بالغ جانب وجه دونكن المخروطى، وكان كوجه الطائر - كان قد مال من سريره قليلاً، وبدت على وجهه ملامح من يفكر ويدبر وسيلة يقبض بها على مخلوق عجيب دون أن يتعرض للدغة أو عضة. ثم اكتفى بقوله «الضابط حايدور عليك وحايعمل دوشة». فنهض دونكن ليخرج وهو يقول له من فوق كتفه: «أنا حاوريه بس فى ليلة ضلمة - بكره تشوف». فرد عليه جيمى على الفور «أنت زى البغبغان - البغبغان اللى بيصرخ». فتوقف دونكن ومال برأسه جانبًا وهو ينصت، بينما ظهرت أذناه شفافة، بارزة العروق، وكأنها أجنحة خفاش رقيقة - فاتجه نحو جيمى وهو يقول: «إيه؟» فرد عليه جيمى «أيوا - ارغى بكل الكلام اللى تعرفه زى - زى البغبغان الأبيض القذر».

فتمهل دونكن قليلاً... كان يسمع أنفاس غريمه طويلة وبطيئة ـ أنفاس رجل يعانى من عبء مرهق على عظام صدره ـ ثم سأله بهدوء:

«أنا أعرف إيه؟» فرد جيمس:

« ـ إيه؟... اللى باقول لك عليه... مش كتير. أنت عاوز إيه؟... عشان تتكلم عن صحتى بالطريقة دى؟».

ـ دى حيلة ملعونة ـ حيلة نتنة ملعونة ـ ولكن ماتخيلش علىَّ أنا... مش علىَّ أنا».

وبقى جيمس ساكنًا ـ أما دونكن فقد وضع يديه فى جيوبه واقترب من السرير بخطوة وئيدة واحدة، ثم قال:

ـ أنا باتكلم، فيها إيه. اللى هنا دول مش رجاله ـ دول غنم شوية غنم ينساقوا ـ أنا باساعدك... ليه لأ.... أنت غنى....

ـ أيوه ـ أنا ماشكيتش من الفقر...

ـ وريهم أنك غنى ـ علمهم راجل زيك يقدر يعمل إيه ـ أنا عارف كل حاجة عنك...

فألقى جيمى بنفسه على الوسادة بعيدًا عن دونكن، ومط الأخير عنقه النحيف وأدار وجهه مقتربًا منه كأنه طير ينقر عينيه، ثم قال:

ـ أنا راجل ـ ومستعد أشق بطن أى واحد فى المستعمرات، قبل ما أتنازل عن حقوقى...

فرد عليه جيمى بضعف:

ـ «أنت ربيب سجون».

ـ ده صحيح... وافتخر به كمان... أنت... أنت ماعندكش شجاعة، وعشان كده فكرت فى الحيلة دى.....

وسكت قليلاً ثم قال بتأكيد وروية:

ـ أيور، أنت مش عيان ـ أنت عيان؟

فأجابه جيمى بحزم: «لا» ـ ثم تمتم وقد خفت صوته فجأة

«السنة دى كل شوية ماليش مزاج ـ أغلب الوقت.

فأغمض دونكن إحدى عينيه ونظر إليه متبسطًا ملاطفًا ثم همس:

ـ أنت عملتها قبل كده مرة ـ مش كده؟

فابتسم جيمس ـ ثم استسلم وكأنما عجز عن المقارنة:

ـ أيوا ـ المركب اللى قبل دى ـ كنت تعبان طوال الرحلة.

شايف ـ كانت الحكاية سهلة... قبضت فى كلكتا ـ والريان ماقالش حاجة... قبضت فلوسى كلها. ورقدت ثمانية وخمسين يوم الجماعة الهبل ـ ياإلهى! ـ الهبل دفعوا لى على طول.

وأخذ يضحك بتشنج ـ ومشاركة دونكن وهو يقهقه، ثم سعل جيمى بعنف، وقال بمجرد أن أستطاع التقاط نفسه: «أنا بصحة جيدة كالعادة».

وهنا أتى دونكن بحركة ساخرة وقال: «طبعًا ـ ده شىء ظاهر للجميع» فقال جيمى وهو يلهث كالسمكة: «هم مش شايفين كده» وأضاف دونكن مؤكدا: «هم مستعدين يقبلوا أية حكاية» فقال جيمى بصوت منهك:

ـ ماتقولش حاجات زيادة عن اللزوم.

فقال دونكن باشمئزاز ظاهر:

ـ «أنت مش بتفكر إلا فى نفسك طول ماأنت صح...».

وإزاء هذا الاتهام بالأنانية جذب جيمس ويت الغطاء إلى ذقنه، ورقد ساكنًا بعض الوقت ـ وامتدت شفاهه الغليظة السوداء بهيئة تعبر عن استيائه الدائم.

ثم سأل بقليل من الاكتراث:

ـ أنت متحمس كده ليه عشان خلق المشاكل؟

فرد دونكن على الفور:

ـ عشان ده عار كبير ـ دول بينصبوا علينا.. أكل وحش وماهية واطية... أنا عاوز نعمل خناقة حامية تخليهم يفتكرونا! دول نازلين ضرب فى الناس!... يكسروا راسنا... ماشاء الله... إحنا مش رجاله ولا إيه؟

كان يتحدث والشرر يتطاير من عينيه فى ثورته المزعومة لكرامته.

ثم أضاف فى هدوء:

ـ أنا كنت سالف هدومك دى.

فقال جيمى بأسى:

ـ طيب جيبهم هنا.

فرد دونكن بود وطمع:

ـ هات مفتاح صندوقك وأنا أرجعهم لك فيه.

فأجاب جيمس ويت بعنف:

ـ جيبهم هنا ـ أنا حارجعهم فى الصندوق بنفسى.

فنظر دونكن إلى الأرض وهو يبرطم... وسأله جيمس بقلق:

ـ «بتقول إيه؟ بتقول إيه؟».

فأجاب دونكن بصوت مرتجف:

لا شىء. الليلة الهوا جاف؟ خليهم معلقين بره للصبح.

كان صوته عجيبًا يهتز كأنه يكتم الضحك أو يخفى الغضب. وبدا على جيمي الاقتناع، ثم حدثه قائلاً:

ـ ناولنى شوية ميه فى الكوز ده، لأجل الليل.

فخطا دونكن خطوة واسعة نحو الباب وهو يقول بلهجة فظة:

ـ ناول نفسك ـ أنت تقدر تجيب الميه إلا إذا كنت عيان.

فرد ويت على الفور:

ـ طبعًا أقدر أجيبها بس.....

فقاطعه دونكن بلؤم:

ـ يااللا... جيبها. مادام تقدر تحافظ على هدومك تقدر تحافظ على نفسك.

ثم تركه وانصرف إلى ظهر السفينة دون أن ينظر خلفه.

ومد جيمى يده إلى الكوز ولكنه لم يجد فيه قطرة واحدة ـ فأعاده لمكانه بهدوء، وهو يتنهد فى ضعف، ثم أغمض عينيه وأخذ يفكر:

بلفاست العصبى ده حايجيب لى ميه لو طلبت منه ـ الأهبل ـ أنا عطشان قوى....

كانت القمرة حارة جدًا، وبدت كأنها تدور ببطء، لتنفصل عن السفينة، وتتأرجح بهدوء فى مجال متألق، تشرق فيه شمس سوداء تدور بسرعة شديدة. ولم يكن هناك ماء! ليس هناك ماء! وهذا شرطى له سحنة دونكن يشرب كوبًا من البيرة بجوار بئر جافة، ثم ينطلق بعيدًا وكله حيوية. وهذه سفينة تمتد قلوعها إلى السماء وتفرغ حمولتها من الحبوب، بينما الرياح تذرو قشورها فى دوامات على طول الرصيف، والحوض بدون ماء. وشعر بنفسه يلف بخفة وإعياء شديد، فى دوامات كما تلف القشور ـ خيل إليه أنه أصبح أجوف. وأخف من القشور المتطايرة وأكثر منها جفافًا ـ ثم بسط صدره الأجوف فاندفع الهواء داخله مكتسحًا مايعترض طريقه من أجسام غريبة تشبه المنازل والأشجار والناس وأعمدة النور... هذا يكفى... لم يعد هناك هواء ـ ولم يكن قد انتهى من أخذ نفس طويل. لابد أنه كان فى السجن كانوا يحبونه فى الداخل. وسمع خبطا على الباب ـ ولف المفتاح مرتين ـ ثم ألقوا بسطل من الماء عليه ـ يوه... لماذا؟

وفتح عينيه وهو ينتظر أن يكون وقع السطل شديدًا على رجل أجوف خاو ـ خاو ـ خاو. كان فى قمرته لم يغادرها. آه. طيب. كان وجهه يتصبب عرقًا،

وذراعـاه أثقل من الرصـاص. ورأى الطاهى يقف عند البـاب وفى إحـدى يديه مفتاح نحاس، وفى اليد الأخرى إناء معدنى لامع.

وحدثه الطاهى ووجهه مشرق يفيض طيبة:

ـ أنا كنت باتريس الأبواب علشان الليل. الجرس دق ثمانى مرات.

أنا جايب لك كوب شاى بارد لليل، ياجيمى ـ وكمان خليته لك بسكر أبيض.

فيها إيه؟ ـ المركب مش حاتخرب.

ثم دخل ووضع الكوب على حافة السرير، وسأله بهدوء:

«إزى الحال؟» ثم جلس على الصندوق. فبرطم ويت غير مرحب به:

«أهم» فجفف الطاهى عرقه بخرقة قذرة، ربطها بعد ذلك حول عنقه وقال:

ـ آدى حياة الوقاد على المراكب البخارية.

كان يتحدث بمنتهى الهدوء والرضا ثم استرسل:

ـ أنا شغلى صعب زيهم تمام ـ على ما أظن. وساعات عمل أطول. أنت عمرك شفتهم نزلوا عن الغلايات؟ شكلها زى جهنم ـ مولعة ـ مولعة ـ مولعة ـ هناك تحت.

وأشار بأصبعه نحو سطح السفينة ـ ثم تجهم وجهه لخاطر مقبض، ولكنه أشرق ثانيًا كما ينقشع خيال سحابة من فوق بحر هادئ مضىء. وكان البحَّارة الذين انتهت نوبة حراستهم يحدثون ضجة وهم يسيرون أمام فتحة الباب. وتوقف بلفاست لحظة ليقول وهو ينظر إلى جيمى ويرتجف «صباح الخير». وبدا كأنه يعانى من عواطف مكبوتة. ورمق الطاهى بنظرة ملؤها التشاؤم ثم اختفى.

وتنحنح الطاهى بينما تسمرت نظرات جيمى إلى أعلى وبقى ثابتًا كأنه فى كمين وكان الليل صافيًا يسرى فيه نسيم عليل. وتراجعت السفينة قليلا لتنزلق على بحر ساكن، نحو أفق أسود رائع، لاسبيل إليه، تتخلله ومضات نيران خافقة.

وامتد قوس المجرة المتألق، فوق رءوس الصوارى وكأنه قوس نصر من ضوء أزلى، ألقت به الأقدار فى دروب الأرض المظلمة.

وعلى قمة عنبر البحَّارة كان أحدهم يصفر نغمة راقصة بدقة ووضوح بينما سمعت خطوات آخر يدق الأرض بقدميه ويتعثر. وعلت من المقدمة أصوات مختلطة تهمس وتضحك وتغنى. وهنا هز الطاهى رأسه ثم نظر إلى جيمى وهو يبرطم:

- آى - بيرقصوا ويغنوا - آهو ده كل اللى بيفكروا فيه. أنا باستغرب إزاى ربنا ساكت على كل ده.... دول ناسيين يوم الحساب... لكن أنت.....

فابتلع جيمى ويت جرعة سريعة من قدح الشاى كأنه يختلسها ثم انكمش تحت غطائه مبتعدًا جهة الحائط. ونهض الطاهى ليغلق الباب، ثم جلس ثانيا وهو يقول بوضوح:

- كل مرة أقلب النار فى المطبخ أفكر فيكم ياولاد، وأنتو بتشتموا وتسرقوا وتكذبوا.... كأن مافيش حاجة اسمها آخرة... مع أنكم مش أشرار.....

وصمت لحظة وهو يتأمل بندم، ثم استرسل بلهجة اليأس:

- طيب - طبيب - بكره يشوفوا النار - أنا باقول النار؟ دى أفران حامية مالْهاش مثيل.

ثم سكت تمامًا بعض الوقت - كان ذهنه مضطربًا للغاية - إذ جالت به حينئذ أشباح العاصين، وضجة مثيرة اختلط فيها الغناء والأنين، كان يعانى ويستمتع ويتأمل ويوافق. وكان فى آن واحد مبتهجًا وخائفًا ومنتشيًا - تمامًا كما حدث له تلك الليلة منذ سبع وعشرين سنة - وكان مولعًا بتذكر عدد السنوات بالتحديد تلك الليلة عندما سكر وهو شاب، فى أحد ملاهى «إيست اند» متأثرًا برفاق السوء. وفجأة غمره تيار جارف من المشاعر، سبح فيه وهو يتأمل فى أسرار الآخرة. وراقت له الفكرة - كانت ممتازة فأحبها لنفسه ولباقى البحَّارة ولجيمى. وفاض قلبه بالحنان والإدراك وحب التدخل، واعتراه القلق على روح هذا الرجل الأسود وشعر بالقوة بما ينتظره من خلود، فخطر له أن ينتزعه بين ذراعيه ليلقى

به فى مجال الغفران والخلاص... روحه السوداء. جسده الأسود المتعفن ـ الشيطان ـ لا ـ كلام ـ قوة شمشون... ودوت فى أذنيه ضجة هائلة كعزف الصنج، واندفع فى نشوته مخترقًا خليطًا من الوجوه المضيئة وزهور السوسن وكتب العبادة والبهجة السماوية والقمصان البيض والقيثارات الذهبية والمعاطف السوداء وأجنحة الملائكة. ورأى ملابس فضفاضة، ووجوهًا حليقة وبحرًا من الضوء ـ وبحيرة من النيران وفاحت عطور جميلة... ورائحة الكبريت ـ وألسنة اللهب الحمراء تلعق سحابة بيضاء. وتردد فى أذنيه صوت مهيب كالرعد... استمر ثلاث ثوان.

وهنا صاح بصوت من نزل عليه الوحى «جيمى» ثم تردد قليلاً فما زالت بارقة من الرحمة الإنسانية تتألق فى الضباب الجهنمى لغروره المتناهى، ورد جيمى ويت رغمًا عنه «إيه؟» ثم سادت فترة صمت رفع فيها جيمى رأسه قليلاً ليختلس نظرة حذرة. وأفتر ثغر الطاهى دون أن ينطق بكلمة ـ وكان وجهه مأخوذًا وعيناه شاخصتين إلى أعلى. وبدا كأنه يتوسل بعقله إلى ألواح السطح وخطاف المصباح النحاسى وصرصارين.

وقال ويت وقد نفد صبره «شوف»! أنا عاوز أنام. أظن من حقى أنى أنام». فرد الطاهى معترضًا بصوت عال: «ده مش وقت النوم!» كان قد تجرد بالصلاة، من إنسانيته ـ وأصبح صوتًا ـ أو شيئًا روحيًا ساميًا ـ كما حدث فى تلك الليلة التى لاتنسى، ليلة ذهب متحديًا البحر الذى غمر السفينة ليصنع قهوة ينقذ بها هؤلاء المذنبين من هلاك محقق.

وكرر كلماته بتعال:

ـ ده مش وقت النوم ـ أنا ماباشوفش النوم.

فأجاب ويت بحيوية عجيبة:

ـ وأنا مالى ومالك ـ الله يلعنك! أنا قادر أنام ـ اخرج من هنا وارقد فى سريرك.

فرد الطاهى متوعدًا ومتوسلاً:

- بتشتم... وأنت على حافة... على حافة... مش شايف النار؟ مش حاسس بصهدها؟ أنت يا أعمى غرقان لشوشتك فى الذنوب. أنا شايفها بالنيابة عنك. ليل ونهار - ياجيمى خلينى أخلصك!

وتدفقت كلمات التوسل والوعيد من فمه كالسيل الصاخب فهريت الصراصير وتصبب جيمى عرقًا وهو يرفس خلسة تحت غطائه ثم صاح الطاهى:

- الأيام الباقية لك تتعد على الصوابع.....

فصرخ جيمى بشجاعة:

- امشىِ من هنا!

- صلِ معايا!

- لا مش حاصلى....

كانت القمرة ساخنة كالفرن - تحتوى الكثير من الخوف والألم، ويسودها جو من الصراخ والأنين. وكنت تسمع الدعوات كأنها همسات كفر وسباب.

وهرع الرجال فى الخارج بعد أن أخبرهم تشارلى بسرور أن هناك شجارًا فى قمرة جيمى، وأخذوا يدفعون الباب المغلق، ولفرط دهشتهم عجزوا عن فتحه. كان الكل قد تجمعوا هناك. وقفز النوبتجية إلى سطح السفينة بقمصانهم كما يفعلون فى حالات التصادم. وكان الجميع يسألون وهم مسرعون إلى أعلى: «إيه الحكاية؟» وقال آخرون «سامعين؟» بينما استمر الصراخ المكتوم فى الداخل:

- اركع على ركبك! على ركبك!

- اخرس!

- مستحيل! أنا مسئول عن تكفير سيئاتك... أنا أنقذت حياتك....

- أنت أهبل ومجنون!

- أنا مسئول عنك... عنك... مش حاشوف النوم فى الدنيا دى! ده...

- سيبنى فى حالى!

ـ لا... نار حامية... تصور!...

ويتبع ذلك صراخ محموم وثرثرة بدت فيها الكلمات كالبرد المنهمر، ثم صاح جيم.

ـ لا!

ـ أيوا.... أنت... ماحدش بيساعدك... كلهم بيقولوا كده..

ـ أنت كداب!

ـ أنا شايفك بتموت الدقيقة دى... قدام عينى.. فى حكم الميت.....

فعاود جيم صراخه النافذ:

ـ النجدة!

فقال الآخر وهو يعوى:

ـ مش فى العالم ده.... بص للسما.

وصاح جيم:

ـ امشى من هنا ـ النجدة! حايقتلنى!

ولكن صوته خفت، وتلاه أنين وهمهمة ونحيب.

وقال صوت غير مألوف: «إيه اللى جرى؟»

واندفع مستر كريتون وهو يصيح بحزم:

ـ اهجموا على الباب يارجالة. اهجموا على الباب!

وهمس بعضهم: «الراجل العجوز هنا» وصاح كثيرون وهم يتراجعون «الطباخ عنده ياسيدى» ثم انفتح الباب بقعقعة عالية، فسقط شعاع عريض من الضوء على الوجوه المندهشة، ومر تيار من الهواء الساخن الفاسد.

وأشرف الضابطان من أعلى برءوسهما وأكتافهما على الطاهى المسن الضعيف، الذى وقف بينهما بملابس رثة، جامدًا خشنًا، وبوجه ثابت نحيل وكأنه تمثال صغير.

ثم نهض الأخير واقفًا ـ بينما جلس جيمى فى سريره محتضنًا ساقيه المدوتين، وزر طاقيته الزرقاء فوق ركبتيه... فنظر طويلاً فى دهشة إلى ظهره المحنى، وبياض إحدى عينيه يلمع تجاههم.

كان يخشى تحريك رأسه ـ ولبث منكمشًا كحيوان ساكن متحفز ـ تغلب فيه الغريزة على العقل.

وسأل مستر بيكر الطاهى بلهجة حادة:

ـ أنت بتعمل إيه هنا؟

فأجابه الطاهى بحماس:

ـ واجبــى!

فاعترض الريان:

ـ إيه؟ واجب إيه؟

ولكن كابتن آليستون لمس ذراعيه بخفة وهو يقول بصوت منخفض

ـ أنا عارف حركاته

ثم رفع صوته آمرًا.

ـ بطل الشغل ده يابودمور.

فلوى الطاهى يديه المتشابكتين، ثم هز قبضتيه فوق رأسه وألقى بذراعين ثقيلتين إلى أسفل.. ووقف فترة مشدوهًا صامتًا ـ وأخيرًا قال:

مستحيل.. هو.. أنا..

فنطق كابتن آليستون بعد أن نفد صبره.

ـ أنت بتقول أيه؟.. اخرج بره حالاً ـ وإلا...

فقال الطاهى بسرعة وجدية، وقد بدا عليه الاستسلام:

ـ أنا خارج.

وأسـرع فى خطوات ثابتـة نحـو البـاب ـ ثم تردد ـ وخطا بضع خطوات والكل ينظرون إليه صامتين، ثم التفت إليهم وحدثهم قائلاً:

ـ أنا حاعتبركم مسئولين.. الراجل ده بيموت.. حاعتبركم..

فصاح القبطان مهددًا:

ـ أنت لسة هنا؟

فرد متلعثمًا:

ـ لا ياسيدى:

واستسلم للمخزنجى الذى قاده من يده بعيدا. وضحك أحدهم ورفع جيمى رأسه يختلس نظرة، وبقفزة واحدة مفاجئة غادر فراشه.. ولكن مستر بيكر عفقه بمهارة وقد أحس بجسمه يترنح بين ذراعيه.. وهنا برطم الرجال عند الباب فى دهشة، وقال ويت وهو يلهث:

ـ هو كـداب.... كـان بيكلمنى عن الشيـاطين السـود ـ هو نفسـه شيطان ـ شيطان أبيض ـ أنا بخير.

ثم تمالك نفسه، وتركه مستر بيكر ـ على سبيل التجربة ليقف وحده، فتعثر خطوتين، وأخذ كابتن آليستون يرقبه بنظرات هادئة فاحصة، بينما جرى بلفاست ليسنده. ولم يبد عليه أنه يشعر بمن حوله، إذ وقف لحظة صامتًا يقاوم وحيدًا صفًا من الأهوال، وسط نظرات رجال ثائرين قلقين، وقفوا يرقبونه من بعد، فى وحدته المطبقة وهلعه الذى لامثيل له.

وسُمعت أنفاس ثقيلة فى سكون الظلام، بينما علا خرير مياه البحر عندما تراجعت السفينة قليلا مع هبة ريح قصيرة، وأخيرًا قال جيمس ويت بصوته البريتونى الرفيع، وهو يحمل بكل ثقله على عنق بلفاست، الذى أخذ يرفع كتفيه ليسنده:

ـ أنا تحسنت فى الأسبوع الأخير.. أنا بخير.. كنت راجع لعملى بكره ـ حالاً، إذا شئت ياكابتن.

ولكن القبطان أجاب «لا» وهو ينظر إليه متمعنًا. وهنا تحرك وجه بلفاست المحتقن تحت إبط جيم، وفى تذمر واضح، واتجه صف من العيون اللامعة إلى شعاع الضوء، وأخذ الرجال يدفعون بعضهم بعضًا بكيعانهم، ويدورون برءوسهم هامسين وخفض ويت ذقنه على صدره، ثم نظر حوله بجفون مسجاة، نظرة ملؤها الشك.

وصاح صوت من الأشباح «ليه بتقول لأ»؟ الراجل بخير ياسيدى» وقال جيمس ويت بلهفة:

ـ أنا بخير. كنت مريضًا.. تحسنت.. راجع شغلى حالاً. ثم تنهد، بينما صاح بلفاست باستياء وهو يهز كتفيه:

ـ ياعدرا! اجمد ياجيمى.

فدفعه ويت وهو يقول:

ـ أبعد عنى إذًا.

ثم ترنح باحثا عن عمود الباب ليستند إليه، وكانت عظام صدغيه تلمع كأنها مدهونة بالورنيش. وخلع طاقيته بعنف ليمسح بها عرق وجهه، ثم ألقاها بعيدا على السطح، وقال دون أن يتحرك «أنا خارج».

فرد القبطان باقتضاب «لا. لا تخرج» وهنا سمع احتكاك الأقدام الحافية بالأرض، وهمست الأصوات المستنكرة حوله وواصل القبطان حديثه متجاهلا أصوات الاحتجاج:

ـ أنت كنت متمارضًا معظم الرحلة تقريبًا ـ والوقت عاوز تخرج ـ عارف أنك قربت تقبض شميت ريحة البر ـ هيه؟

فبرطم ويت وهو ينظر للضوء:

ـ أنا كنت مريضًا.. والوقت ـ تحسنت ـ ففضتُ آليستون بقسوة:

ـ أنت كنت متمارضًا.

فتردد ويت لحظة - ثم قال «ليه» ورد آليستون:

- لأنه واضح للجميع أن مافيش عندك حاجة، إلا أنك فضلت الرقاد عشان تريح نفسك والوقت حاترقد عشان تريحنى يامستر بيكر - أوامرى ماتسمحوش للراجل ده بالخروج على سطح المركب لآخر الرحلة.

وهنا تعالت صيحات الدهشة والنصر والاستياء، وتأرجحت مجموعة الرجال الداكنة عبر الضوء، وقال البعض «عشان إيه؟» «أنا قلت لكم كده...» «فضيحة فظيعة» وصاح دونكن من الخلف:

«لازم نعترض على الحكاية دى» وصاح كثيرون فى صوت واحد معلهش ياجيم - إحنا حاننصرك» وخطا بحّار عجوز إلى الأمام ليسأل آليستون بتجهم:

- عاوز تقول ياسيدى إن الجدع اللى يعيا على المركب دى مالوش حق يخف؟.

وكان دونكن، وهو واقف خلفه، يهمس بحنق وسط جمع من الرجال وهم يحلقون دون أن يلتفتوا إليه. أما كابتن آليستون فقد حرك سبابته أمام وجه محدثه البرونزى الغاضب وهو يقول مهددا:

- أنت - أنت تربط لسانك.

فصاح اثنان أو ثلاثة من صغار السن «دى مش طريقة» وتساءل دونكن بصوت نافذ «فاكرين أننا ماكينات حقيرة؟».

ثم غاص تحت كيعان الصف الأمامى. وقالت أصوات أخرى:

«حانوريه حالاً أننا مش عيال....» الراجل إنسان ولو كان أسود «مش حانشتغل على المركب دى وحدنا إذا كان هو بخير وقادر يشتغل. وهو بيقول إنه بخير.. طيب ياولاد - أضربوا عن العمل أضربوا عن العمل: وقال كابتن أليستون لمستر كريتون بحدة:

- خليك ساكت يامستر كريتون!

ثم وقف هادئًا وسط الضجة ينصت باهتمام تام لخليط من الأنات والصرخات والشتائم التى تفجرت فجأة ورزع أحدهم باب القمرة برفسة من

قدمه، بينما زحف الظلام الحافل بالهمسات على شعاع الضوء منذرًا. واستحال الرجال أشباحًا متحركة تعوى وتصفر وتضحك ثائرة. وهمس مستر بيكر «ابعد عنهم ياسيدى».

واقترب مستر كريتون فى صمت، بقامته الضخمة، من كابتن آليستون بقامته الضئيلة، وعلا صوت فظ يقول:

«إحنا اتفشينا طوال الرحلة دى.. لكن الحركة الأخيرة دى غطت على كل اللى فات» «الراجل بحَّار زينا».

«هوه إحنا عيال ملاعين؟» «نوبتجية الحراسة حايضربوا عن العمل».

وصفر شارلى صفيرًا نافذًا وقد غمرته مشاعر قوية، ثم هتف قائلاً «أعطونا جيمى بتاعنا» ويبدو أن صيحته هذه غيرت مجرى الضجة، فسمع انفجار جديد كالرعد، واشتبك الرجال فورا فى عدد من المشاجرات «أيوا» «لأ» عمره ماكان عيان «أهجم عليهم على طول» اسكت أنت يابنى، ده شغل الكبار» وهنا تمتم كابتن آليستون» «صحيح» وقبع مستر بيكر «أوف - دول اتجننوا - بقي لهم شهر بيغلوا» فقال آليستون أنا شايف كده» وعلق مستر كريتون بتأفف «أهم ابتدوا يتخانقوا مع بعض.. أحسن لك تنتقل للمؤخرة ياسيدى، وإحنا نهديهم» فقال الكابتن: «حافظ على أعصابك ياكريتون».

ثم بدأ ثلاثتهم يتحركون ببطء نحو باب القمرة. وفى خلال التركيبات الأمامية أخذت الكتلة البشرية تدق الأرض بأقدامها وتدور، وتتقدم تارة وتتراجع تارة أخرى. كانوا ينطقون بكلمات العتاب، والتشجيع، والدهشة والبغض، وكان كبار السن من البحَّارة، فى حيرتهم وغضبهم، يعلنون باستياء عن تصميمهم على الاستمرار بطريقة أو بأخرى، أما فئة الشباب التقدمى المستتير، فقد أفصحوا عن مظالمهم ومظالم جيمى باحتجاجات صاخبة مختلطة. وتجمعوا حول ذلك الجسد المحتضر، معقد آمالهم، وأخذوا يتمايلون مشجعين بعضهم بعضًا ويسيرون متثاقلين وهم يصيحون أنهم «مش حايتغشوا تانى».

وفى الداخل كان بلفاست، وهو يساعد جيمى على الصعود لسريره، متوترًا للغاية، لحرصه على ألا تفوته المعركة الجارية فى الخارج، ولهذا كان يغالب دموعه وعواطفه بصعوبة.

وبمجرد أن رقد جيمى ويت على ظهره تحت الغطاء أخذ يلهث بالشكوى، وهدأه بلفاست مؤكدًا: «إحنا حانقف جنبك، ماتخافش» وبرطم ويت:

- أنا حاخرج بكره الصبح - وأحاول - لازم ياجدعان.. حاخرج بكره.. بأمر الربان أو غصب عنه».

ورفع أحد ذراعيه بصعوبة جمة، ثم مر بيده على وجهه وزفر قائلا: «ماتخلوش الطباخ ده..» فرد بلفاست وهو يولى ظهره للسرير: «لا، لا ... أن جه جنبك أنا حاوريه!» فصاح ويت بوهن وقد ثارت ثائرته رغم ضعفه: «أنا هاكسر رأسه.. أنا مش عاوز أقتل حد لكن... وأخذ يلهث بسرعة ككلب عدا طويلا فى القيظ وصاح شخص من الخارج:

«صحته عال زى أى واحد منا» ووضع بلفاست يده على مقبض الباب فصاح جيمس ويت «هنا» قالها باستعجال وبصوت واضح بدرجة جعلت الثانى يلف مشدوهًا.

ونظر إلى جيمس ويت ليراه متمددًا فى الضوء الساطع - أسود - شاحبا كالموتى، يحرك رأسه على الوسادة يمينًا ويسارًا. كانت عيناه تحملقان فى بلفاست متوسلة وقحة. ثم قال بكل وضوح: «أنا ضعيف شوية من الرقاد طوال المدة دى» فأومأ بلفاست برأسه موافقًا، وواصل ويت حديثه بإصرار: «وخفيت خلاص دلوقتى».

فقال بلفاست وهو يغض بصره: «أيوا - أنا لاحظت أنك كنت بتتحسن.. فى الشهر الأخير». ثم صاح «أهلاً»! إيه ده؟» وجرى خارج القمرة.

وبمجرد خروجه انطرح أرضا لاصطدامه برجلين ترنحا أمامه.

ويبدو أن مناقشات عديدة كانت محتدمة فى كل مكان. وعندما اعتدل رأى، بغير وضوح، ثلاثة أشخاص يقفون على حدة فى الظلام الباهت تحت قاعدة

الشـراع الرئيـسى المقـوسـة، التى بدت فوق رءوسـهم كـأنهـا حـائط مـحـدب لبناء شامخ.

وهمس دونكن: «أهجـم عليهم.... الدنيا ضلمـة» وجرت مجموعـة من الرجـال برمتها ثم توقفت فجأة. واندفع دونكن بجسمه الخفيف النحيل، وهو يلوح بذراعه الأيمن كطاحونة الهواء. ثم وقف سـاكنًا فـجـأة، وثبت ذراعه بصلابة فوق رأسه. وسمع صوت جسم ثقيل يطير بين رأسى الضابطين ليسقط بعنف فوق السطح، وبرتطم بالطاقة بصوت مكتوم. وهنا ظهر مستر بيكر واضحًا بقامته الضخمة، وصاح فيهم قائلاً: «يارجاله ـ ارجعوا لعقلكم!» ثم تقدم نحو الحشد المتسمر فى مكانه. وناداه القـبطان بصـوته الهـادئ: «ارجع يامسـتـر بيكر». فـأطاعـه على مضض. ومـرت دقيقـة صـمت تبعهـا صـخب مكتوم، وعـلا صوت آرتشى وهو يتحـدث بحـمـاس: «إن عـملت العـملة دى تانى حـابلغ عنك!!» وعلت صيحات: «سيبه» «ارميه» «إحنا مش من الأشكال دى!».

ودارت زمـرة الأجسـام الآدمـيـة الداكنة إلى جـانب السطح ثم عـادت ثانيـة ـ وأخذت بعض الخـيـالات تترنح أو تقع أو تقـفـز إلى أعلى، وسـمـع رنين المسـامـير تحت الأقدام المتعثرة، واختلط هذا بعبارات مثل «ارميه» «سيبنى» «الله يلعنك ـ ها»... ثم سـمعت صـفـعات على وجه أحدهم ـ وصوت سقوط قطعة من الحديد على السطح، ثم مـشـادة قـصـيـرة وخـيـال شـخص يعـدو بسـرعـة، فـوق الطاقـة الرئيسية، أثر رفسة فى الظلام. وتلا ذلك سيل من الألفاظ البذيئة تدفق بصوت غـاضب منتحب. وهنا قبع مـسـتـر بيكر باستياء «يرمى علينا حاجات ـ ياساتر يارب» فقـال القبطـان بهدوء «أنا اللى كنت مقصود به أنا حاسيت باندفاعه. كان إيه بالضبط؟ خابور جديد؟ فبرطم مستر كريتون بقوله «ياإلهى!».

واخـتلطت أصـوات الرجـال المضطربة فى وسـط السـفـينة مع أمـواج البـحـار المتلاطمـة لتصعد إلى الأشرعة الهـائجة المنبسطة، وكـأنها تنساب خـلال الظلمات إلى حـيــز أبعـدَ مِن الأفق، وأعـلى من السـمــاء. وتوهجـت النجـوم فى ثبـات فـوق الصوارى المائلة، بينمـا امـتـدت خيوط من الضـوء فـوق المياه لتتكسـر على البـدن المتحرك أمامًا، ثم ترتعد كالخاشعة أمام البحر الهامس، بعد مرور السفينة.

وفى تلك الأثناء كان بحَّار الدفة، فى شوقه لمعرفة سبب المعركة قد ترك العجلة وجرى خلسة، منحنيًا وبخطى طويلة، إلى حافة المؤخرة فتقدمت «النرجسة» بعد أن ترك لها العنان، مع الريح بلطف ودون أن يشعر بها أحد ـ ثم اهتزت هزة خفيفة، أيقظت الأشرعة النائمة فجأة، لتنتفض جميعها معاً وتصفع الصوارى صفعة عاتية ـ ثم تمتلئ بالريح ثانية، الواحد بعد الآخر، بأصداء سريعة متتابعة سرت حول الصوارى العالية، وانتهت عند الشراع الرئيسى، الذى تداعى بعد أن انتفخ أخيرا بهزة عنيفة.

وهكذا ارتعدت السفينة من أدناها لأقصاها بينما واصلت الأشرعة قعقعتها، وكأنها طلقات مدفعية، وصلصلت السلاسل والقيود المحلولة، فوق سطح السفينة، برنين رفيع، وتأوهت قواعد الصوارى وحدث كل هذا فجأة، كأن يدًا خفية امتدت إلى السفينة تهزها بغضب ليفيق من عليها من الرجال، ويعودوا للحقيقة والحذر والواجب.

وصاح القبطان بحدة: «ارفع الدفة لأعلى.. اجر للأمام يامستر كريتون ـ شوف الأهبل ده بيعمل إيه. «وبرطم مستر بيكر قائلاً» انشروا القلوع العليا» فجرى الرجال مذعورين بسرعة وهم يرددون الأوامر الصادرة إليهم. واتجه نوبتچية الحراسة فى الطابق السفلى بعد رحيل نوبتجية السطح فجأة، نحو عنبر البحارة مثنى وثلاث، يتجادلون وهم سائرون بضجة عالية. وصاح أحدهم «حانشوف بكره» وكأنه بكلماته هذه يحاول أن يغطى تراجعهم المخزى بالتهديد والوعيد.

ولم تعد تسمع بعد ذلك سوى الأوامر، وصوت سقوط لفات الحبال الثقيلة، وقعقعة المكعبات. ودارت رأس سنجلتون البيضاء فى سواد الليل هنا وهناك، عالية فوق السطح ـ وكأنها شبح طائر، وصاح مستر كريتون من الخلف: «مندفعة من جديد» وبرطم مستر بيكر مستحثًا: «طيب.. ارخوا القلوع العليا.. ولفوا الحبال».

وبالتدريج تلاشت ضوضاء الأقدام وشوشرة الأصوات، وتجمع الضباط فوق المؤخرة يناقشون ماحدث. فأخذ مستر بيكر يقبع مشدوهًا، وكان مستر كريتون

غاضبًا بهدوء، أما كابتن آليستون فكان يفكر بثبات. كان الأخير ينصت لجدل مستر بيكر وجعجعته، ولتعليقات مستر كريتون القاسية المفاجئة، وقد اتجه بنظره نحو السطح، وأخذ يزن الخابور الحديدى بيده ـ ذلك الخابور الذى كان فى اللحظة الماضية مصوبًا نحو رأسه، وأخطأها صدفة ـ وكأنه الحقيقة المادية الوحيدة فى التجربة بأسرها. كان واحدًا من أولئك القادة الذين يتحدثون قليلا ويخيل إليك أنهم لايسمعون شيئًا ولاينظرون إلى أحد. بينما هم فى الواقع يعرفون كل شىء. ويسمعون كل همسة، ويرون كل خيال مسرع فى حياة سفينتهم.

وكان ضابطاه المهمان يطلان بقامتيهما الممدوتين على جسمه الضئيل الهزيل، ويتجاذبان أطراف الحديث عبر رأسه. كانا مستاءين، مندهشين، غاضبين ـ بينما وقف الرجل الضئيل الهادئ بينهما وعليه سيماء من وجل الصفاء والهدوء فى الأعماق السحيقة لتجربة عظمى.

وكانت الأضواء تتوهج فى عنبر البحَّارة، ومن آن لآخر سرت من المقدمة موجات عالية من الضوضاء والثرثرة، لتكتسح السطح ثم تتلاشى. وكانت السفينة الغائبة عن وعيها، تترك خلفها وإلى الأبد، الضجة الطائشة للبشر المتمرد، تتركها لتتساب فى دعة خلال السلام الشامل الذى يخيم على البحار. ولكن الضجة تجددت مرارًا. ففى لحظات قصيرة ظهرت سواعد تلوح، وجوانب وجوه بأفواه فاغرة ـ ظهر هذا من خلال المربعات المضيئة عند مداخل القمرات. واندفعت قبضات سوداء ـ ثم انسحبت. وقال القبطان موافقا: «صحيح ألعن حاجة أن يفاجأ الواحد منا بخناقة زى دى بدون سبب...» وسمعت فى الضوء هتافات صاخبة سكتت فجأة.. لم يكن يتوقع مزيدًا من المتاعب فى هذا الوقت بالذات.. ودق جرس فى الخلف ثم رد عليه آخر فى الأمام برنة أعمق، فتجاوب صليل الأجراس الرنانة ليحيط بالسفينة فى حلقة واسعة من الذبذبات، انحسرت أخيرًا فى الظلمات اللانهائية للبحر الخاوى.. وأخذ يفكر.. ألم يكن يعرفهم؟ ألم يعرفهم! فى السنوات الماضية. وهم مع ذلك خير من غيرهم ـ رجال بمعنى الكلمة ـ يقفون إلى جانبه فى الشدائد. وهم أحيانًا أخطر من الشياطين ـ

شياطين حقة لها قرون.. ياه.. هذا لايدل على شيء.. ولكن عجلة القيادة تدور كعادتها، ونوبات الحراسة تتوالى، والرجال يأخذون دورهم الواحد بعد الآخر وهم يتبادلون نفس العبارات..» وصاح فجأة: «الريح المعاكسة هى اللى بتقلقنى صحيح» قالها وهو يدق الأرض بقدمه بغضب مفاجئ. وعاد يقول «الريح المعاكسة كل شيء غيرها مايهمنيش! «ولكنه استرد هدوءه فى اللحظة التالية، ثم قال للضابطين: اشغلوهم الليلة باستمرار ياسادتى، لمجرد أن يشعروا أن زمام الموقف فى يدنا طوال الوقت ـ اشغلوهم بهدوء ـ أنتم عارفين. خلى بالك ياكريتون ولاتمسهم. وبكره أنا حاكلمهم بالراحة والحيلة ـ شوية حمير شغل مجانين ـ أيوا حمير شغل! أنا أقدر أعد البحَّارة الحقيقيين فيهم على صوابع يدى ـماينفعش معهم غير التوبيخ.. أرجوكم».

وسكت لحظة ثم سأل: «تفتكر أنا تصرفت غلط يامستر بيكر؟» وربت على وجهه بيده وهو يضحك ضحكة مقتضبة: «لما شفته واقف هناك شبه ميت ومرعوب بالدرجة دى ـ أسود فى وسطهم وهم زى المذهولين ـ الواحد منا ماعندوش استعداد لمواجهة مصيره المحتوم ـ الفكرة خطرت لى فجأة ـ وبدون تدبير. أنا تألمت لمنظره كما يتألم لحيوان مريض. كان خايف من الموت بدرجة مميتة.. وفكرت أسيبه يعمل اللى عاوزه ـ مجرد خاطر تلقائى ـ لكنى نسيت المجانين دول كليًا.. احم طبعًا لايمكن نتراجع بعدها» وهنا حشر الخابور فى جيبه وبدا عليه الخجل من نفسه ـ ثم قال بحدة: «إن شفت بودمور مرة ثانية بيعمل حيله دى عرفه أنى حاحط رأسه تحت المضخة. أنا اضطريت اعملها مرة. ومع ذلك فهو طباخ طيب» ثم ابتعد سريعا وعاد إلى السلم وتبعه الضابطان بعيون ملؤها الدهشة. ونزل ثلاث درجات وبعد أن غير لهجته، تحدث ورأسه قريب من السطح « أنا مش حاخرج الليلة ـ ولكن احتياطى نادونى لو حصل.. أنت شفت عيون الزنجى العيان ده يامستر بيكر. أنا خيل لى أنه كان بيستجدينى ـ كان عاوز إيه؟ مافيش فايدة ـ فات أوان أى مساعدة زنجى غلبان وحيد فى وسطنا كلنا، حسيت أن نظراته وصلت لأعماق نفسى. تصور أعمال بودمور المعتوه ده ! نهايته ـ سيبه يموت فى سلام. على أى حال أنا الريس هنا، ولى

الحق أقول اللى يعجبنى. خليه يعيش جايز عاملوه مرة معاملة غير عادلة. خلى بالك كويس».

ثم اختفى تاركًا ضابطيه يحلق كل منهما فى الآخر، وقد تأثرا لدرجة أشد مما لو كانا قد شاهدا تمثالاً من الحجر يذرف دمعة حنان على مجاهل الحياة والموت..

وبدا عنبر البحَّارة - بفعل ضباب الدخان الأزرق المنتشر من الخيوط المتعرجة التى تصاعدت رأسية من قواعد الغلايين - متسعًا اتساع قاعة رحبة، وركدت فى الزوايا سحابة كثيفة، بينما اتقدت المصابيح كل فى وسطه وهج أرجوانى يخرج منه لهبان ضعيفان، وهامت هنا وهناك تجمعات من الدخان الكثيف: وكان الرجال يتمددون على السطح، أو يجلسون بعدم اكتراث أو يثنون إحدى الركبتين ويميلون نحو الحاجز بأحد الكتفين. كانت الشفاه تتحرك والعيون تلمع، والسواعد تلوح فتكون دوامات فجائية فى الدخان المنتشر. وكانت همهمة الأصوات تتراكم وتعلو تدريجيًا كأنها تعجز عن النفاذ بسرعة من الأبواب الضيقة. وظهر نوبتجية الطابق السفلى فى قمصانهم - كانوا يسيرون بسيقان طويلة بيضاء وكأنهم نيام سائرون يهذون.

أما نوبتجية السطح فكانوا - من آن لآخر - يندفعون بزيهم الكامل فيخيل إليك أنهم يلبسون أكثر من اللازم، ثم ينصتون لحظة ليلقوا بعبارة سريعة وسط الضجة، ويهرولون ثانية إلى الخارج. ولكن قليلين منهم كانوا يبقون بجوار الباب ينصتون بشوق وقد داروا بآذانهم جهة السطح. وزأر ديفيز قائلاً: «اتحدوا ياولاد» وحاول بلفاست أن يسمعهم صوته، بينما ابتسم نويلز ببطء وعدم تركيز وأخذ أحدهم يهتف على فترات، وكان قصيرًا ذا لحية كثة قصيرة: «مين اللى خايف؟ مين اللى خايف؟» وقفز آخر هائجًا وعيناه متقدتان ليرسل سيلا من الشتائم غير المترابطة، ثم يجلس بعد أن هدأت ثورته ودار نقاش فى ألفة، بين رجلين، أخذ كل منهما يضرب الآخر فى صدره تدعيمًا لوجهات النظر المتبادلة - بينما تكلم ثلاثة آخرون، تلاقت رءوسهم فى زمرة واحدة، تكلموا بأعلى صوت وفى نفس الوقت، وقد سادهم جو من الثقة والسرية. كانت فوضى من الأحاديث العاصفة،

تناثرت فيها جزئيات العبارات المفهومة، لتشق طريقها إلى الآذان، وكنت تسمع: «فى المركب اللى قبل دى» «مين بيهمه؟ جربها مع أى واحد منا» «اضرب تحت ـ» «ولا دورة واحدة ـ» «بيقول إنه على حق ـ» «أنا كنت دائمًا أعتقد ـ » «معلش..».

وكان دونكن وهو يرقد متكومًا عند الرافعة، وقد حدب حافتى كتفيه لتلامس أذنيه، ورفع أنفه المعقوف، يشبه نسرًا مريضًا مكسور الجناحين. أما بلفاست فكان أشبه بالصليب المالطى: وجه أحمر من كثرة الصياح، وساقان منفرجتان، وذراعان ممدودان لأعلى. وجلس الإسكندناويان فى ركن، مصعوقين مشدوهين وكأنهما يبحلقان فى طوفان.

وبعيدًا عن الضوء وقف سنجلتون كالأثر المطموس، تلامس رأسه السطح، وكأنه تمثال للبطولة بالحجم الطبيعى، فى سرداب مظلم. وعندما خطا إلى الأمام ضخمًا جامدًا، تلاشت الضوضاء فورًا كالموجة المنكسرة: ولكن بلفاست صاح ثانيًا وهو يرفع ذراعيه: «الراجل بيموت، أنتو سامعين؟» ثم جلس فجأة فوق الطاقة، وقد اعتمد رأسه بين يديه. ونظر الجميع إلى سنجلتون: كانوا يبحلقون من ظهر السفينة إلى أعلى، أو يدققون النظر من الأركان المظلمة، أو يدورون برءوسهم وعيونهم المتطلعة. كانوا يترقبون ساكنين.. كأن هذا العجوز ـ الذى لم يعر أحدًا منهم التفاتة ـ يملك سر غضبهم ورغباتهم ـ ويتمتع ببصيرة أكثر حدة وعلم أكثر وضوحًا مما يتاح عادة لأمثالهم.

والواقع أنه وقف هنالك فى وسطهم وعليه سيماء من رأى أعدادًا غفيرة من السفن، وأنصت مرارًا لأصوات مثل أصواتهم، وجرب فعلاً كل مايحتمل أن يحدث فوق البحار الواسعة. كانوا ينصتون لصوته، وهو يشخشخ فى صدره العريض، وكأن الكلمات تتدفع نحوهم عبر سنوات الماضى البالية. وسألهم بقوله: «عاوزين تعملوا أيه؟» ولكن لم يرد عليه أحد سوى نويلز الذى برطم «آى ـ آى» وقال آخر بصوت منخفض «دى فضيحة مخجلة» وانتظر سنجلتون لحظة ثم لوح بازدراء قائلاً: «أنا شفت خلافات على مراكب قبل بعضكم مايتولد، خلافات بسبب وبدون سبب ـ لكن عمرى ماشفت خلاف للسبب ده».

فكرر بلفاست عبارته بحزن وهو يجلس عند قدمى سنجلتون: «الراجل بيموت ـ أنتو سامعين؟» ولكن البحَّار العجوز واصل حديثه و«جدع أسود كمان. أنا شفتهم بعينى بيموتوا زى الدبان. «وأمسك عن الحديث لحظة ليسترسل فى التفكير، وكأنه يحاول تذكر أمور رهيبة وتفاصيل مرعبة لمذابح الزنوج. ونظر إليه الكل مأخوذين. كان قد عاش طويلاً ليتذكر النخاسين والقراصنة وحركات التحرر الدامية. من ذا الذى يمكنه تصور ضروب العنف والفزع التى عاشها! ماذا عساه أن يقول. وحدثهم قائلاً: «لايمكنكم مساعدته، لازم يموت». وسكت ثانيا بينما أخذ شاربه ولحيته يتحركان.

كان يمضع الكلمات، ويتمتم خلال الشعر الأبيض المشوش، ويأتى حديثه غامضًا مثيرًا، وكأنه وحى خلف حجاب..» العيان ينتظر على البر بدل مايسبب كل الدوشة دى ـ خايف ـ البحر لازم يسترد وديعته ـ بيموتوا دايمًا قرب البر ـ ودايمًا كده. هم عارفين ـ رحلة طويلة ـ أيام أكثر وفلوس أكثر. خليكم ساكتين ـ عاوزين أيه؟ مش ممكن نساعده.» وبدا كأنه يفيق من حلم، ثم قال بلهجة صارمة.» «أنتو ماتقدروش تساعدوا نفسكم. القبطان مش غبى.. وبيتصرف بناء على أساس خذوا بالكم. أنا عارفهم كويس!» وأخذ يحرك رأسه من اليمين إلى اليسار وعيناه متجهتان إلى الأمام، وكأنه يستعرض صفًا طويلاً من القباطنة الأذكياء.

وصاح دونكن بلهجة تمس القلوب «ده قال أنه حايكسر دماغى.» فنظر سنجلتون مليًا إلى الأرض فى حيرة وكأنه يبحث عنه ولايجده، ثم قال بدون وضوح «الله يلعنك». كان وجهه يشع بالحكمة الصامتة وجمود عدم الاكتراث وبرود الاستسلام.

وشعر كل المستمعين حوله أنهم أفادوا كثيرا بعد خيبة أملهم، فأخذوا يترنمون وهم صامتون ببساطة أولئك الذين تبينوا بجلاء مافى الحياة من أمور مستعصية.

أما سنجلتون فقد رفع ذراعه مرة ثم خرج إلى ظهر السفينة رزينًا شاردًا، دون أن ينطق كلمة أخرى.

وتاه بلفاست فى تفكير عميق بعينين مستديرتين. وقفز واحد أو اثنان بثقلهما الى سريرين علويين، وبمجرد أن استقرا هناك أخذا يتنهدان ، واندفع آخرون برءوسهم الى أسرتهم السفلى ، و داروا توًا حول أنفسهم وكأنهم وحوش تأوى إلى عرينها . وسمع صوت سكين تكحت فخار غليون مشتعل . وكف نويلز عن الابتسام . وتحدث ديفيز بنغمة ملؤها اليقين : « إذًا قبطاننا معتوه » وتمتم آرتشى احنا لسه ما سمعناش النهايه . » ودقت أربعة أجراس فصاح نويلز منبها» «نص النوبتجية تحت مشوا» ثم أخذ يفكر ويعزى نفسه بعبارة « ساعتين نوم يريحونا شوية». وبالفعل اصطنع بعضهم النعاس، أما تشارلى فقد نطق فجأة وهو غارق فى النوم، ببضع كلمات مبهمة وبصوت اعتباطى أجوف. فعلق نويلز من تحت الغطاء، بلهجة المثقفين: «الولد الملعون ده عنده ديدان» ونهض بلفاست ليقترب من فراش آرتشى ثم همس بحزن: «إحنا شديناه بره!» فقال الآخر باستياء وهو نعسان: «إيه؟» فاسترسل بلفاست وشفته السفلى ترتجف «ودلوقتى حانضطر نرميه فى البحر». فسأله آرتشى: «ترمى إيه؟» فتنهد بلفاست وهو يقول «جيمى المسكين». فقال آرتشى بوحشية مصطنعة وهو يجلس على سريره: «يروح فى داهية! ده كله بسببه ـ لولاى كانت حصلت جناية قتل على المر كب دى!» فجادله بلفاست فى همس: «دى مش غلطته ـ مش كده؟»... ثم أضاف وقد أغرورقت عيناه بالدموع» أنا حطيته فى السرير.. كان أخف من برميل اللحم الفاضى» فنظر إليه آرتشى مليًا، ثم اتجه بأنفه إلى جانب السفينة فى تصميم. وهام بلفاست كمن ضل طريقه فى العنبر المظلم، حتى كاد يقع فوق دونكن. وأخذ يتأمله فترة من فوق ثم سأله «أنت مش ناوى تدخل جوه؟» فنظر إليه فى يأس، ثم همس من تحت فى لهجة كلها قنوط: «الإسكوتلاندى القاسى، ابن الحرامى ده، رفسنى.» فقال بلفاست ومازال مكتئبًا «ده كمان أكرمك. أنت الليلة كنت أقرب مايكون من حبل المشنقة. أوعى تعمل حيلك الإجرامية دى جنب جيمى! أنت ماتعبتش معنا وإحنا بنشده! بس خليك فاكر! أحسن لو بدأت أرفسك!.. وانتعش قليلا ثم استرسل: «إذا بدأت أرفسك حايكون على الطريقة الأمريكية وحاكسر فيك حاجة! » ثم راح يدق بسلاماته أم رأسه المنحنية دقًا خفيفًا، وختم حديثه

وهو مبتهج بقوله: «حاسب منى ياواد!» فتغاضى دونكن عن تهديده ثم سأله بقلق وألم» ياترى حايختلفوا مع بعض بسببى؟ «فتراجع بلفاست خطوة وهو يسأل بصوت ملؤه الازدراء: «مين اللى يختلف؟ لولا أنى مشغول بالعناية بجيمى كنت شقيت مناخيرك! أنت فاكرنا مين» فنهض دونكن وراح يرقب ظهر بلفاست وهو يختفى من الباب.

كان الرجال حوله من كل جانب نيامًا، يتنفسون بهدوء. دون أن يراهم. وبدا كأنه يستمد الشجاعة والحنق من الهدوء المخيم حوله، فأخذ يحملق غاضبًا بوجهه المستطيل وملابسه المستعارة المهلهلة، وكأنه يبحث عن شىء يمكن تحطيمه.

كانوا غارقين فى النوم ـ وود لو استطاع لوى رقابهم أو قلع عيونهم أو البصق فى وجوههم ـ فلوح بقبضتيه النحيلتين القذرتين فى الأضواء المحاطة بالدخان، ثم صاح بنبرات مكتومة «أنتو مش رجالة! » ولكن أحدًا لم يتحرك. فاستطرد قائلاً «أنتو ماعندكوش ولا شجاعة الفيران» ثم ارتفع صوته ليصبح صراخًا مبحوحًا. وهنا رفع واميبو رأسه الأشعث ونظر إليه مشدوها. فاسترسل دونكن قائلاً: « أنتم لمامة المراكب! أنا أتمنى أنكم تنتنوا قبل ماتموتوا» وأخذت جفون واميبو تختلج ـ لم يكن يفهم شيئا ولكنه وجد الموقف مسليا. وجلس دونكن بتثاقل ـ كان يتنفس بمنخارين متوترتين، ويلوك أسنانه المصطكة، ويضغط صدره بذقنه، كأنه يحاول التوغل إلى أعماق قلبه.

وفى الصباح، عندما بدأت السفينة يوما جديدا من حياتها الهائمة بدت فى حلة نضرة مترفة أشبه بربيع الحياة: كانت ظهورها بعد غسلها تلمع فى خطوط طويلة ممتدة، وأشعة الشمس المائلة تداعب النحاس الأصفر فيرسل رشاشا متألقا يندفع فوق القضبان اللامعة ليستحيل خيوطا ذهبية ـ بينما بدت قطرات الماء المالح المنسية هنا وهناك، بحذاء السور، شفافة كقطر الندى، وأكثر تألقا من الماس المنثور، أما القلاع فنامت بعد أن هدأها النسيم العليل. وهكذا أطلت الشمس، وهى تشرق وحيدة ساطعة فى سماء زرقاء، على سفينة وحيدة تنساب فوق بحر أزرق.

وازدحم الرجال ثلاثات أمام الشراع الرئيسى وفى مواجهة باب القمرة. كانوا يجرون أقدامهم ويتدافعون بوجوه مترددة بليدة. وكان نويلز يميل بثقل على ساقه القصيرة مع كل هزة بسيطة، أما دونكن فكان يجرى وراء ظهورهم قلقًا متطلعًا، كرجل يبحث عن كمين. وفجأة خرج كابتن آليستون وأخذ يسير جيئة وذهابا عند المقدمة. وبدا فى ضوء الشمس أشيب الشعر ضئيلاً يقظًا مهلهلاً، وجامدًا جمود الصخر. وكأنه يضع يده اليمنى فى جيب سترته الجانبى ومعها شىء ثقيل، أحدث فى هذا الجانب ثنايا عديدة، وتنحنح أحد البحَّارة متشائمًا، ثم قال القبطان باقتضاب: «أنا إلى الآن لم أجد فيكم عيبًا يارجاله». ثم واجههم بعينين مرهقتين، فبدا كأنه ينظر مباشرة وعلى حدة إلى كل زوج من عيون العشرين فردًا الماثلين أمامه.

وراح مستر بيكر يقبع مكتئبًا وعنقه كعنق الثور. أما مستر كريتون فكان نضرا كالطلاء - بخدود متوردة وقامة مستعدة ثابتة مهيبة. وواصل الكابتن حديثه: «ولا أجد فيكم عيبًا الآن. ولكن أنا موجود هنا لأقود المركب وأوقف كل رجل فوقها عند حده. وإن كنتم بتعرفوا شغلكم زى ما أنا عارف شغلى ماكناش نلاقى متاعب - أنا سامعكم بتهقوا فى الضلمة بكلام» حانشوف بكره الصبح» طيب آديكم شايفين دلوقتى - عاوزين إيه؟» وانتظر هنيهة وهو يخطو هنا وهناك ويرمقهم بنظرات فاحصة. وتساءلوا فيما بينهم عما كانوا يريدون - ثم بدل بعضهم أقداما مكان الأخرى، وحاول البعض المحافظة على اتزانهم، وأزاح الآخرون طواقيهم للخلف ليهرشوا رءوسهم.

ماذا كانوا يريدون؟ لقد نسوا جيمى، فلم يفكر أحد فيه وهو يرقد فى قمرته وحيدًا يغالب أشباحًا عاتية، ويتشبث بأكاذيب جزئية، ويضحك ضحكات مكتومة، بينه وبين نفسه، على حيله المكشوفة. لا لم يخطر جيمى على بالهم - بل أنهم نسوه أكثر مما لو كان ميتاً بالفعل. كانوا يريدون أمورًا مهمة. وفجأة خيل إليهم أنهم نسوا إلى الأبد كل الكلمات البسيطة التى عرفوها من قبل، وأنها قد ضاعت فى تيه رغبتهم المبهمة الملحة. كانوا يعرفون مايريدون - ولكنهم لم يجدوا أمرا يستحق الذكر. وراحوا يدورون حول أنفسهم فى رقعة واحدة ويلوحون بسواعد

عضلية تنتهى بأيد ضخمة متسخة بالقار، مثنية الأصابع. وتلاشت على شفاههم إحدى الهمسات. ثم سألهم القبطان «ناقصكم إيه - الأكل؟ أنتم عارفين أن التموين تلف عند رأس الرجاء الصالح» فرد عجوز ذو لحية فى الصف الأول: «أحنا عارفين ياسيدى» وعاد القبطان يسألهم من جديد «الشغل شديد عليكم - هه - فوق طاقتكم؟» فردوا عليه باستياء صامت. وأخيرًا بدأ ديفيز يتحدث بصوت متردد «إحنا مش عاوزين نقص فى العمال - والراجل الأسمر اللى هناك...» فقاطعه الريان صائحًا: «كفاية!» ووقف هنيهة يرمقهم بنظرات فاحصة، ثم سار بضع خطوات هنا وهناك، وانفجر فيهم بعاصفة عنيفة باترة، كتلك التى عرفها فى شبابه، عبر البحار المتجمدة: «أنتو عارفين الحكاية إيه؟ دى أكبر من أنكم تفهموها. فاكرين نفسكم ناس طيبين كفاية تعرفوا نص شغلكم - وتعملوا نص واجبكم - فاكرينه زيادة عن اللزوم؟ ده لو عملتم قده عشر مرات يبقى مش كفاية». فارتفع صوت يهتز غيظًا: «إحنا عملنا علشانها كل مافى وسعنا، ياسيدى». فصاح القبطان: «كل مافى وسعكم؟ انتو سمعتم عالبر حكايات كتيرة مش كده؟ بس بيقولها لكم هناك أن كل مافى وسعكم مش حاجة عظيمة تفتخروا بها - وأنا بأقول لكم أن كل مافى وسعكم مايزيدش عن مستوى ردئ. ماتقدروش تعملوا أكثر؟ لا. أنا عارف ومش باقول حاجة. لكن لازم تبطلوا حماقاتكم دى، وإلا أبطلها لكم أنا. أنا مستعد لكم. لازم تبطلوها!» قال هذا وهو يهز أصبعه فى وجوه الجمع. «أما الراجل ده فأنا حاحطه فى الحديد لو خرج على ظهر المركب بدون أذنى. سامعين هناك؟» وما أن سمعه الطاهى حتى جرى خارج المطبخ، وقد رفع ذراعيه مذعورًا مندهشًا، لايصدق أذنيه - ثم عاد إلى مكانه ثانية. وتبعت ذلك لحظة صمت عميق، خطا فيها بحَّار مقوس الساقين، جانبًا، ليبصق بأدب فى البالوعة. واسترسل الريان بهدوء؟» «عندى موضوع تانى» ثم تقدم بخطوة سريعة، ودار وهو يخرج الخابور الحديدي من جيبه وقال «ده» كانت حركته سريعة غير متوقعة، بدرجة جعلت الجمع يتراجع إلى الوراء. وأخذ يحلق فى وجوههم بثبات، فتصنع بعضهم الدهشة كأنهم لم يروا خابورًا من قبل. ثم رفعه إلى أعلى قائلاً:

«ده شيء يخصني أنا ـ ومش حاحاسبكم عليه بالمرة» ـ ولكن كلكم عارفينه ـ ولازم يرجع مطرحه.» وبدا الغضب في عينيه. فتحرك الجميع في قلق، وأشاحوا بوجوههم عن قطعة الحديد، وبدت عليهم علامات الخجل والارتباك والدهشة كأنهم يرون شيئًا مخيفا فاضحًا أو وقحًا، لايليق عرضه عليهم في وضح النهار.

ولبث الربان لحظة يرقبهم بانتباه، ثم نادى قائلاً بلهجة حادة مقتضبة: «دونكن». وكان هذا قابعًا خلف أحدهم تارة وخلف الآخر تارة أخرى ـ ولكن الكل كانوا ينظرون إليه عبر أكتافهم ثم يتحركون جانبًا. وأخذت الصفوف، الواحد بعد الآخر، تنفتح أمامه ثم تغلق إلى أن ظهر أخيرًا وحده أمام الربان فخيل للناظر أنه أتى عن طريق ظهر السفينة. وتحرك كابتن آليستون قريبًا منه ـ كان الاثنان متقاربين حجما. وتبادل الكابتن مع عيون دونكن الخرزية، نظرة عدائية مباشرة «وتحرك الاثنان ـ ثم سأل الأول «أنت تعرف ده؟» فرد الآخر بوقاحة وهو مذعور» «لا.. لا ماعرفوش.» وهنا حدثه القبطان بلهجة آمرة:

«أنت كلب حقير ـ خذه». فبدت ذراعا دونكن كأنما التصقت بخديه ووقف شاخصاً بعينيه إلى الأمام كأنه يشترك في عرض عام. وكرر القبطان الأمر: «خذه» وهو يزداد قربًا منه حتى اختلطت أنفاسهما. ثم قال كابتن آليستون للمرة الثالثة «خده» وهو يتحرك متوعدًا. وهنا نزع دونكن أحد ذراعيه من جنبه، وبرطم بجهد، وكأن فمه ممتلئ بعجينة: «أنت بتضطهدني ليه؟» فبدأ الربان بقوله «أن ماعملتش..» ولكن دونكن اختطف الخابور كأنه ينوي الفرار به، ثم بقي جامدًا دون حراك وقد أمسك به كالشمعة. وقال كابتن آليستون: «رجعه مطرح ماجبته» وهو يرمقه بنظرات فظة. فخطا دونكن إلى الوراء وهو يحلق بعينيه.

وصاح الكابتن «حاتمشي ياندل ولا أمشيك أنا؟» وتقدم نحوه مهددًا فأرغمه على التراجع ببطء. ومال دونكن محاولاً تفادي اللكمة الموجهة إلى رأسه برفع الخابور الخطر إلى أعلى. وهنا توقف مستر بيكر لحظة عن القبع، وهمس كريتون مستحسناً بلهجة الخبير» «كويس والله» وزمجر دونكن وهو يتراجع «ماتلمسنيش» فرد آليستون: «إذًا امشي ـ امشي بسرعة.» وقال دونكن «إياك

تضربنى... وإلا أشكيك للقاضى.. أنا حافضحك.» فخطا كابتن آليستون خطوة واحدة، بينما جرى دونكن قليلاً وهو يدير ظهره، ثم توقف ليكشر عبر كتفيه، عن أسنان صفراء. وحثه القبطان بقوله «امشى بعيد ـ عند التجهيزات الأمامية» وهو يشير بذراعه.

وهنا صاح دونكن فى الجمع الصامت الذى وقف يرقبه: «أنتو حاتقفوا ساكتين وتتفرجوا على وأنا باتهزأ؟» فأسرع كابتن آليستون بخفة نحوه، مما جعله يقفز ثانية مذعورًا. ويندفع نحو التجهيزات الأمامية، ويثبت الخابور فى ثقبه بعنف ثم يصيح فى السفينة بأسرها: «أنا حاخلص حقى منكم بعدين» ثم اختفى (بعد) الصارى الأمامى ـ وحينئذٍ استدار كابتن آليستون ثم سار إلى الخلف بوجه هادئ وكأنه قد نسى المنظر كله. وأفسح له الرجال الطريق ولكنه لم ينظر إلى أحد منهم، ثم قال بهدوء: «كفاية كده يامستر بيكر. ابعت النوبتجية تحت» وأضاف بصوت رزين «وأنتم يارجاله، حاولوا تمشوا دوغرى للمستقبل» وراح ينظر مليًا. وهو يفكر، إلى ظهور الجمع المتأثر المتراجع ثم نادى بارتياح، خلال باب القمرة: «الفطور ياسفرجى.» وعلق مستر بيكر بقوله «أنا ما أرتحتش ـ أوف ـ لما شفتك أعطيت الخابور للجدع ده ياسيدى... كان ممكن يدشدش ـ أوف ـ يدشدش به رأسك زى قشرة البيض ياسيدى». فغمغم الكابتن وهو شارد ياسلام! هوا» ثم استرسل بصوت منخفض «مجموعة غريبة ـ أظن الموقف انتهى على خير ـ ولو أن الواحد الأيام دى مايعرفش اللى جايز يحصل مع ناس زى... من سنين طويلة، كنت لسه أيامها قبطان شاب ـ حصل تمرد فى رحلة للصين ـ تمرد حقيقى يابيكر. ولو أنهم كانوا غير رجالنا. أنا عرفت غرضهم. كانوا عاوزين يتخلصوا من حمولة المركب ويسكروا. مسألة بسيطة جدًا.. عاملناهم بشدة يومين وبعدما أخذوا كفايتهم بقوا زى الخرفان الوديعة. كانوا بحَّارة طيبين. وتمت الرحلة ببراعة.

ونظر إلى أعلى ليرى الشراع مشدودًا بإحكام، فصاح بمرارة: «ريح مضادة يوم بعد التانى ـ مش حاتقابلنا شوية ريح مواتية فى الرحلة دى؟» ونطق الخُادم فجأة: «جاهز ياسيدى» بعد أن ظهر أمامهم كالمسحور، وفى يده فوطة مبقعة.

فرد آليستون: «آه. طيب. تعال يامستر بيكر ـ احنا تأخرنا ـ بسبب كل الكلام الفارغ ده».

وشمل السفينة بعدئذٍ ـ جو كثيف من الضيق والهدوء. وبعد الظهر أخذ الرجال يغسلون ملابسهم وينشرونها لتجف فى النسيم الراكد، وقد بدا عليهم الشرود والوهن، وكأنهم فلاسفة تجلت لهم الحقيقة ولم يتكلموا إلا قليلاً ـ إذ بدا لهم لغز الحياة أضخم من أن يستوعبه حديث البشر بحدوده الضيقة ـ فأجمع الكل على تركه للبحر العظيم الذى احتواه منذ البداية فى قبضته العاتية ـ البحر الذى عرف كل شىء، وسوف يزيح الحجاب فى الوقت المناسب لكل منهم، عن الحكمة الخبيئة فى كل خطأ، واليقين الكامن فى كل شك، وعالم الأمن والسلام الذى يتاخم حدود الأسى والهلع.

وأخذ هذا السيل الجارف المضطرب، من الخواطر ومشاعر العجز يشق طريقه دون توقف بين أجسام الرجال، بينما طفا فوق سطحه وكأنه شمندورة سوداء مثبتة فى قاع نهر موحل. وانتصر الخلع ـ- انتصر عن طريق الشك والغباء والشفقة والعاطفية. وقمنا نحن بدعمه بسبب تراخينا وطيشنا وميلنا للهزل ـ- وكان لثبات جيمى على موقفه غير الواقعى أمام الحقيقة التى لا مفر منها، أثر قوى له أبعاد اللغز الضخم، أو التجلى الفخم الغامض، الذى يبعث فينا أحيانا الرهبة المشوبة بالعجب. ووجد البعض هؤلاء ممتعًا فى المزاح معه إلى أقصى الحدود، وتجلى جنبا لذاتنا، المستتر خلف تعاطفنا مع العذاب، فى تلهفنا المتزايد ألا نراه يصارع الموت.

كان يصر بعناد على عدم الاعتراف بقرب أجله وهو الواقع اليقينى الوحيد فى علمنا، ذلك الواقع الذى كان فى وسعنا أن نلحظ اقترابه يومًا بعد يوم. وبعث اصراره هذا فينا شعورًا بالقلق كذلك الذى يعترينا عند فشل أحد قوانين الكون. وجانبت أقواله عن نفسه الصواب كليًا لدرجة جعلتنا نرجح أنه على علم بحقائق فوق إدراك البشر. كان غير معقول لدرجة الإيحاء.. وكان فريدًا ساحرًا سحر من لاينتمى للبشر، وبدا كأنه يصيح منكرًا الموت من وراء ذلك الحد الرهيب بالفعل. واستحال إلى طيف لا مادى أشبه بالشبح، فبرزت عظام خديه وازدادت جبهته

انحدارًا، وأصبح وجهه مجموعة من التجاويف والهالات، وبدت رأسه الخالية من اللحم أشبه بجمجمة سوداء جلبت من القبر، وقد ثبتت فى تجويف العينين كرتان من الفضة غير مستقرتين.

وأصبح مصدرًا لارتباكنا وعاملاً لإضعاف روحنا المعنوية. وبفضله أصبحنا أكثر إنسانية ورقة وعمقًا - وأكثر تحررًا، وسبرنا أغوار خوفه وتعاطفنا مع كل ضروب نفوره ورفضه وعزلته، وفهمنا سر خداعه لنا، وكأننا كنا من قبل قد بالغنا فى التمرين وانغمسنا فى الفساد إلى أبعد الحدود، فغدونا على جهل تام بمعانى الحياة وأسسها. أما الآن فقد بدت علينا سيماء من استثاروا ونضجوا بعد كشف خفايا مشينة، وعلت وجوهنا عابسة عبوسًا عميقًا كوجوه عصابة من المتآمرين، وتبادلنا نظرات ذات معنى، وكلمات مقتضبة لها مغزاها. كنا فى منتهى الانحطاط وفى رضا تام عن أنفسنا - فأخذنا نكذب عليه بجدية وعاطفة وحماس زائف، وكأننا نقوم بتمثيل خدعة خلقية ابتغاء جزاء أبدى، وكونا معًا كورسًا، للتصديق على أغرب تأكيداته، وكأننا جمع من المغفلين الطامعين أمام مليونير أو سياسى أو مصلح عظيم. وإذا جرؤنا على التشكك فى بعض تصريحاته فعلنا ذلك على طريقة المتملقين الأذلاء، فنتصنع معارضة آرائه تماديًا فى تمجيده.

وهكذا أثر جيمى على الطابع الخلقى لعالمنا، وكأنه حاكم مطلق يملك سلطة توزيع الرتب والكنوز والآلام. والواقع أنه لم يكن يملك لنا شيئًا سوى الاحتقار. وكان هذا هائلا لاحدود له. وخيل إلينا أنه يزداد تدريجيًا مع ما لاحظناه من انكماش جسده يوما بعد يوم. وكان الشىء الوحيد فيه الذى يدل على قوة احتماله وحيويته - كان يحيا داخل نفسه كشعلة لاتنطفئ، ويتحدث من النتوء الدائم فى شفتيه السوداء، وينظر إلينا خلال الجرأة المتغلغلة فى عيونه الكبيرة التى برزت من وجهه بروز عيون الكابوريا. ورحنا نرقبها عن كثب. لم يكن يتحرك فى جسمه شىء غيرها – وألفيناه راغبًا عن الحركة كأنما فقد ثقته فى صلابته - إذ كانت أوهى حركة كفيلة بأن تكشف له (حتمًا عن ضعف جسده فتسبب له ألماً ذهنيًا مبرحًا. ولهذا كان ضنينا بالحركة، فرقد ممددًا وذقنه فوق غطائه فى

سكون الحكيم الحذر، فقط راحت عيناه تهيمان من وجه إلى وجه - عينان نافذتان ملؤهما الحزن والازدراء.

وفى تلك الأثناء بالذات استحوذ تفانى بلفاست ومشاكسته على احترام جماعى. كان يقضى كل لحظة فراغ فى قمرة جيمى، يسهر على راحته ويتحدث إليه ويعامله برقة المرأة ومرح المحسن العجوز وحنانه، ويرعاه عاطفيًا رعاية صاحب العبد المثالى لعبده ولكنه كان خارج القمرة سريع التأثر متفجرًا كالبارود، (جادا، تتنازعه الشكوك، ويتمادى فى القسوة) كلما تملكه الحزن. ولم يكن يصدر منه سوى دمعة ولكمة: دمعة على جيمى، ولكمة لكل من يبدو عليه التهاون فى حق جيمى وقضيته. وأصبح هذا موضوع أحاديثنا الوحيد - وحتى الاسكندناويان أخذا يناقشان الموقف معًا، ولكن كان من المستحيل التعرف على اتجاههما، إذ كانا يتشاجران بلغتهما. ودخل بلفاست الشك فى احترام أحدهما، ولكنه فى تشككه هذا لم يجد بدًا من مشاجرة الاثنين معًا!! فاستولى عليهما الفزع من ضراوته، ومنذ تلك اللحظة عاشا فى وسطنا مكتئبين كزوج من الخرس. أما واميبو فلم يقل شيئًا مفهومًا على الإطلاق، وخلا وجهه من الابتسام كليًا كوجه الحيوان، وبدا أقل علمًا بالموضوع كله من القطة ذاتها، ولهذا كان فى أمان، أضف إلى ذلك أنه كان واحدًا من الزمرة المختارة التى أنقذت جيمى، ولهذا كان فوق كل الشكوك. وكنت ترى بعض الرجال جالسين على صندوق جيمى فى أى وقت نهارًا، وطوال الليل فى كثير من الاحيان.

وأخذ جيمى ينعم بدفء اهتمامنا، فلمعت عيناه بالسخرية، وأخذ يعاتبنا، بصوت ضعيف، على جبننا - وراح يقول «إذا كنتم يا أخواتى وقفتم جنبى، كان زمانى دلوقت على ظهر المركب». وهنا نكثنا رءوسنا خجلا فاسترسل قائلاً «أيوا - لكن إذا كنتم فاكرين أنى حاسيبهم يحطونى فى الحديد لمجرد تسليتكم.. لا - دابيهلك صحتى، الرقاد ده، بيهلكها فعلا. لكن أنتم مش مهتمين. »وشعرنا بالكسوف كما لو كان كلامه صادقًا - كانت جرأته الرائعة تكتسح كل شىء. ولم نكن لنجرؤ على التمرد، إذ لم نشعر فى الحقيقة بالرغبة فى ذلك - كنا نريد الحفاظ عليه حيا حتى نصل إلى مسقط رأسنا - فى نهاية الرحلة.

أما سنجلتون فكان كالعادة متعاليًا، يبدى استهانة بالأحداث الواهية فى حياة منتهية. وجاء مرة واحدة فقط، على غير انتظار، ووقف عند مدخل القمرة وراح ينظر إلى جيمى مليًا وفى صمت عميق، وكأنه يسعى لإضافة هذه الصورة السوداء إلى مجموعة الخيالات التى تزخر بها ذاكرته. ولبثنا فى هدوء تام بينما وقف سنجلتون هناك مدة طويلة، وكأنه جاء على موعد لمقابلة شخص ما، أو لحضور حدث مهم. وكان جيمس ويت حينئذ راقدًا دون حراك، وعلى ما يبدو لا يعلم بالنظرة المدققة الموجهة إليه فى ثبات وترقب. وساد الجو شعور بالتشاحن، وانتابنا توتر داخلى مثل ما يعترى رجالاً يشهدون جولة مصارعة. وأخيرا أدار جيمى رأسه على الوسادة بحرص ملحوظ، وقال مسترضيًا: «مساء الخير»فرد البحّار العجوز بتذمر «أهم» وواصل النظر بتركيز شديد إلى جيمى دقيقة أخرى، ثم انصرف فجأة.

ومضى وقت طويل قبل أن يتكلم أحد فى القمرة، ولو أننا تنفسنا الصعداء كما يفعل أناس نجوا من موقف خطر. كنا كلنا على علم بآراء الرجل العجوز فى جيمى، ولم يجرؤ أحد على معارضتها. كانت آراء مؤلمة مقلقة ـ والأدهى أننا كنا نخشى أن تكون صادقة، فمعلوماتنا نحن محدودة.

ولم يتنازل سنجلتون، سوى مرة واحدة، للإفصاح لنا بالتفصيل عن آرائه فى جيمى، ولكنه أحدث فينا حينئذٍ أثرًا لايمحى. إذ قال أن جيمى كان سببا فى الرياح غير المواتية، وقرر أن الرجال المصابين بمرض مميت يبقون على قيد الحياة عادة إلى أن تظهر أول نقطة من اليابسة، ثم يموتون، وأن جيمى يعلم أن اليابسة ستسلبه حياته. ثم سألنا باحتقار شديد ـ ألم نكن نعرف تلك الحقيقة؟ إذًا ماذا نعرف؟ وفيم سنتشكك بعد ذلك؟ ثم أضاف أن رغبة جيمى وتشجيعنا أو تعضيد واميبو وتعويذاته (وهوفنلندى مش كده؟ كويس قوى) عطلت كلها السفينة فى وسط البحار، وأنه لايعجز عن فهم تلك الحقائق إلا المغفلون والمعتوهون. «مين عمره سمع بريح معاكسة وبحر راكد بالطريقة دى؟ ده ماكانش طبيعى بالمرة».

ولم نقو على إنكار غرابة ذلك، فشعرنا بالارتباك، ولم يسعفنا حتى القول السائر «أيام آكثر بدولارات أكثر» لأن الغذاء كان يتناقص كل يوم، وكان أغلبه قد تلف عند الكاب، وخفض نصيبنا من البقسماط إلى النصف. وكانت مئونتنا من الشاى والسكر واللوبيا قد نفدت منذ وقت طويل، كما كان اللحم المملح على وشك النفاد. وكان لدينا الكثير من البن ولكن لم يكن لدينا ماء لعمل قهوة. وهكذا شددنا الأحزمة على البطون وواصلنا عملنا: نحك السفينة ونطليها ونلمعها من الصباح إلى المساء. ولم نكن نعانى من مجاعة مميتة - بل من جوع مستمر لازم سطح السفينة ونام فى عنبر البحَّارة، وراح يعذبنا فى فترات صحونا، ويؤرقنا فى أحلامنا.

وليتنا نتطلع تجاه الريح نلتمس ما ينبئ تغيير الموقف، وأخذنا ندير السفينة كل بضع ساعات لعلها تتحرك فى النهاية، ولكنها لم تفعل وبدت كأنما نسيت طريق العودة، فأخذت تندفع هنا وهناك، تتجه للشمال الغربى تارة وللشرق تارة أخرى - وتسرع إلى الخلف ثم إلى الأمام، وهى حائرة كمخلوق جبان يقف عند قاعدة حائط. وأحيانًا كانت تغط متكاسلة يومًا كاملاً فى التموجات الرقيقة للبحر الساكن، وكأنها تحتضر.

وعلى متن الصوارى المتأرجحة كانت الأشرعة تتمزق بعنف وسط ما يخيم من صمت وسكون حار. وعانينا من الإعياء والجوع والعطش حتى بدأنا نصدق أقوال سنجلتون ولكننا، رغم ما ندين به من ولاء لجيمى تصنعنا أمامه إخلاصًا لا يتزعزع، فكنا نحدثه بتلميحات فكهة وكأننا شركاء فى مؤامرة بارعة - ولكننا كنا فى الوقت نفسه ننظر بعيون حزينة، عبر السور، صوب الغرب، نلتمس بارقة أمل، أو علامة تنبئ بريح مواتية، حتى ولو حملت أولى نسماتها الموت لصديقنا المتردد جيمى ولكن كل هذا ذهب هباء. إذ تآمر الكون مع جيمس ويت. فنشطت رياح خفيفة من الشمال ثانية، وبقيت السماء صافية، وأخذ البحر المحيط بإعيائنا يتألق بفعل النسيم ويستمتع بشراهة، بدفء الشمس الساطعة، وكأنما نسى حياتنا ومتاعبنا.

واشترك دونكن مع الباقين فى التطلع لريح مواتية، ولم يكن أحد يدرى بما يخالجه حينئذٍ من أفكار مسمومة. كان صامتًا، وبدا هزيلاً أكثر من قبل، وكأنه يفنى ببطء بفعل ثورة داخلية على ظلم الناس وسوء طالعه. وكان الكل يتجاهلونه ولم يكن يتحدث مع أحد ـ ولكن عينيه كانتا تتبئان بما يكن من كراهية لكل رجل. وكان يحدث الطاهى وحده، إذ كان قد أقنع الرجل الطيب، بطريقة ما، أنه (دونكن) شخص مفترى عليه ومضطهد إلى أبعد الحدود. وهكذا راحا ينفيان معا تدهور أخلاق من على السفينة ـ وكنا فى نظرهما فى منتهى الإجرام، إذ تآمرنا على تعريض روح هذا الرجل الأسود الجاهل للهلاك الأبدى. وكان «بودمور» يطهى ما عليه طهيه من طعام وهو نادم، إذ كان يشعر أنه بإعداده الطعام لفئة مذنبة كهذه يخاطر بخلاصه هو ذاته. أما عن القبطان فلقد عاش معه سنوات طويلة، ولم يكن ليصدق أن رجلاً كهذا.. «أخيرًا، أخيرًا.. هذا ما حدث.. ولايمكن أن يهرب الآن.. قلب العدالة فى دقيقة.. وقضى على كل كبريائه.. أقرب للمعجزات من أى شىء آخر..وكان دونكن يجثم متجهمًا على مخزن الفحم ويحرك ساقيه مصدقاً» كان يتخذ من موافقته الزائفة على كل ما يقوله الطاهى عملة يدفعها ثمنًا لامتياز الجلوس فى المطبخ. وكان يشعر بالخزى والخيبة ـ فوافق الطاهى، ولم يجد من الكلمات القاسية ما يكفى لانتقاد سلوكنا ـ وعندما راح يسبنا فى حمية الاستنكار، تظاهر بودمور بعدم سماعه، ذلك لأنه كان يود أن يفعل مثله، لولا أن مبادئه الدينية لاتسمح بذلك. وهكذا تمادى دونكن فى السباب إذ لم يجد من ينهره على ذلك، ثم أخذ يشحذ الكبريت ويستلف الدخان، ويتسكع أمام الموقد، ساعات طويلة وبدون كلفة.

وكان يستطيع من مكانه هذا أن يسمعنا نتحدث مع جيمى، فى الجهة الأخرى للجدار، وكان الطاهى يدفع الأوانى ويخبط الموقد، ويتمتم بتنبؤات بلعنة طاقم السفينة، أما دونكن الذى لم يكن يعترف بشىء اسمه الآخرة، اللهم إلا لأغراض التضليل، فكان ينصت بتركيز وغضب ويتأمل بشغف منظرًا تصوره للعذاب اللانهائى، كما يتأمل الناس بخبث الصور البغيضة للقسوة والثأر والجشع والسطوة.

وفى الأمسيات الصافية كانت السفينة الصامتة تتخذ، فى البريق البارد للقمر الميت، مظهرًا زائفًا وكأنها تستريح فى هدوء، فتشبه حينئذٍ مشهد الشتاء على الأرض. وكان يفصل بينها وبين صفحة البحر السوداء المستديرة تحتها، شريط ذهبى طويل. وأخذ يتردد على أسطحها الهادئة صدى وقع أقدام، بينما تشبث بها ضوء القمر كشبورة متجمدة. وبرزت القلوع البيضاء مخروطية متألقة كالجليد الناصع. وكانت تبدو فى بهاء الأشعة الكاذبة كمشهد للجمال المثالى، له وهم الحلم اللطيف بسلام صاف. ومع ذلك لم يكن فيها شىء حقيقى ولا واضح ولا ملموس اللهم إلا الخيالات التى ملأت أسطحها فى حركة مستمرة صافية. كانت خيالات أحلك سوادًا من الليل وأكثر قلقًا من خواطر السكينة.

وأخذ دونكن يتجول خلسة، وحيدًا حاقدًا، يفكر كيف تلكأ جيمى كثيرًا فى لقاء حتفه. كانوا قد أعلنوا من فوق، قبيل الليل بقليل، ظهور اليابسة - ولاحظ القبطان وهو يثبت أنابيب المنظار الطويل - ويحدث مستر بيكر بهدوء ومرارة أننا بعد أن كافحنا لشق طريقنا إلى الجزر الغربية بوصة بوصة، ليس لنا الآن أن نتوقع سوى نسمة هادئة.

كانت السماء صافية والبارومتر عاليا. وقد هدأ النسيم الخفيف مع غروب الشمس، وخيم على مياه المحيط الساخنة سكون شامل. خلف وراءه ليلاً بدون رياح. وراح الرجال المتجمعون فى أعلى المقدم قبيل الغروب يستطلعون جزيرة «فلورس» على الأفق الشرقى - وكانت هذه ترتفع فوق مستوى سطح البحر فى خطوط متقطعة غير منتظمة كأحد الأطلال المظلمة فوق سهل فسيح مهجور.

كانت هذه أول بقعة نراها من اليابسة منذ أربعة شهور تقريبًا - وأخرج هذا تشارلى عن هدوئه. حتى لقد تجرأ فى موجة الابتهاج الشامل على رفع الكلفة بينه وبين رؤسائه. وأخذ الرجال وقد انتشوا دون أن يتبينوا السبب يتحدثون فى مجموعات. ويشيرون بسواعد عارية. ولأول مرة فى هذه الرحلة بدا كأننا نسينا وجود جيمى الغامض أمام تلك الحقيقة الملموسة. فقد وصلنا إلى مكان ما على أية حال.

واندمج بلفاست معنا وأخذ يتحدث ويسرد أمثلة خيالية لرحلات عودة من الجزر الغربية فى مدد قصيرة وأكد أن «مراكب الفاكهة السريعة تقطعها فى خمسة أيام ـ مش محتاجين إلا شوية هواء ولكن آرتشى عارضه إذ قرر أن الرحلة لا يمكن أن تقطع فى أقل من سبعة أيام، وأخذوا يتناقشون حبيًا بعبارات سباب «وأعلن نويلز أنه «بدأ يشم نسيم الوطن فعلاً ثم مال بثقل على ساقه القصيرة ليستغرق فى ضحكة طويلة. وأطلت مجموعة من البحارة المسنين لحظة فى سكون وبوجوه منهمكة متجهمة. وقال أحدهم فجأة. «الطريق للندن ما بقاش بعيد» وقال آخر لازم فى أول ليلة لى على البر اتعشى كباب وبصل أشرب كأس خمرة. فصاح ثالث قصدك برميل وعلا صوت هائج قائلاً «بيض ولحم خنزير ثلاث مرات يومى ـ دى الطريقة إللى بأعيش بها على البر».

وتبعت ذلك حركة وهمسات وتألقت العيون وتحركت الأفواه وسمعت ضحكات عصبية مكتومة وابتسم أرتشى بتحفظ بينه وبين نفسه ـ وصعد سنجلتون لينظر إلينا بغير اكتراث. ثم نزل ثانيًا دون أن ينطق بكلمة واحدة. كرجل رأى جزيرة فلورس من قبل مرات لا حصر لها .. وكان الليل وهو يتحرك من الشرق يمتص من السماء الصافية البقعة الأرجوانية التى عكستها عليها الهضبة المرتفعة وقال واحد منهم بهدوء: « ركود تام» فتلعثمت الهمسات النشطة لتتلاشى كليًا وتفرقت الجماعات وبدأ الرجال يتحركون بعيدًا. الواحد تلو الآخر. وينزلون السلالم ببطء وبوجوه حادة. كأنما أفاقوا بفضل هذا الذى ذكرهم باعتمادهم كليًا على خفايا الغيب.

وعندما صعد القمر الأصفر الكبير بلطف فوق الحافة الدقيقة للأفق الصافى. وجد السفينة ملفوفة بغلالة من الصمت التام ـ لا تعرف الخوف. تبدو مستلقية فى سبات عميق لا تعترضه أحلام. على صدر البحر المرعب النائم.

ونظر دونكن بغيظ إلى هذا السلم الشامل ـ وإلى السفينة والبحر الذى أمتد بعيدًا على كل جانب ليذوب فى سكون الكون اللانهائى . وشعر بنفسه يختنق من اساءات غير معروفة ـ كان قد جبن جسمانيا ـ ولكن ثورته لكرامته بقيت عارمة ـ ولم يكن هناك سبيل لأسر مشاعره الجريحة ـ كانت اليابسة قد ظهرت بالفعل.

وأصبح الوطن قاب قوسين أو أدنى. وسيكون أجره ضئيلاً وليس لديه ملابس وينتظره عمل شاق، وسببت له كل هذه الخواطر استياءً شديدًا اليابسة - اليابسة. التى تسلب الحياة من البحّارة المرضى. وهذا البربرى الراقد هناك يملك مالاً وملابس وتنتظره حياة يسيرة، ويأبى أن يموت. اليابسة تسلب الحياة.. وتملكه إغراء بأن يذهب ليرى أن كان هذا صحيحًا. ربما بالفعل ... وفى هذه الحالة يكون الحظ قد حالفه. «هناك مال فى صندوق هذا الحقير».. وخطا بنشاط مبتعدًا عن الظلال إلى ضوء القمر، وفى لحظة واحدة تحول وجهه الهائم الجائع من الشحوب إلى الامتقاع.

وفتح باب القمرة فأصيب بصدمة. من المؤكد أن جيمي قد مات. كان مستقلى بأيد متشابكة ودون حراك كأنه تمثال محفور على غطاء تابوت حجرى وهنا بحلق دونكن بجشع فاختلجت جفون جيمى دون أن يتحرك جسده، مما أصاب دونكن بصدمة ثانية. كانت هذه العيون مدهشة حقا فأغلق دونكن الباب خلفه بحيطة ولطف وهو يدقق النظر فى جيمس ويت وكأنه خاطر بمجيئه لينقل إليه سرا مهمًا. ولم يتحرك جيمى ولكنه نظر بحزن من ركنى عينيه وهو يسأل «ركود» فأجاب دونكن بخيبة أمل شديدة «آى» ثم جلس على الصندوق. وراح جيمى يتنفس فى سكون.

كان قد اعتاد مثل تلك الزيارات فى كل وقت ليلاً ونهارًا. إذ كان الرجال يأتون الواحد بعد الآخر، وينطقون بكلمات مرحة. ويعيدون نكتا قديمة أو ينصتون إلى حديثه. فإذا ما خرج أحدهم من القمرة بدا كأنه ترك هناك جانبا من حيويته. أو تنازل عن بعض قوته ليجدد يقين الحياة. تلك التى لا تغنى وكان يكره أن يبقى وحيدًا فى قمرته إذ كان فى تلك الحالة يخيل إليه أنه لم يأت إليها مطلقًا. لم يكن يشكو من شىء. لا ألم بالمرة الآن. فى كامل قواه. ولكنه لم يكن يستمتع بنعمة الصحة والرقاد ما لم يكن معه فى القمرة من يراه. وقد يؤدى هذا الرجل نفس الغرض.

وكان دونكن فى تلك الأثناء يرقبه خلسة. وعندما علق ويت بقوله «قربنا توصل» سأله دونكن باهتمام بتتكلم بصوت واطى ليه؟ مش قادر تزعق ؟ فبدا

على جيمى الاستياء وبقى صامتًا فترة طويلة ثم قال بصوت منخفض لا رنين فيه: وازعق ليه؟ أنا عارف أنك مش أطرش. فأجاب دونكن بلهجة مقتضبة» آه ـ أنا قادر أسمع كويس ثم نظر إلى الأرض.

وبينما هو يفكر بحزن فى مغادرة القمرة تحدث جيمى ثانيًا: آن الأوان نروح بيوتنا .. عشان نلاقى حاجة كويسة نأكلها... أنا دائما جعان».

فاستولى الغضب فجأة على دونكن وهمس كالثعبان: ـ آمال أنا أقول إيه... أنا كمان جعان ولازم أشتغل أنت جعان» فرد ويت بضعف:

ـ الشغل اللى بتعمله عمره ما يموتك... عندك بقسماطتين فى السرير التحتانى ده ـ تقدر تأخذ واحدة منهما. أنا مش قادر اكلهم فغطس دونكن فورًا وأخذ يتحسس فى الركن، وعندما نهض ثانيًا كان فمه مملوءًا كان يقضم بشراهة. وخيل إليه أن جيمس ينعس وعيناه مفتوحتان. فأكل دونكن البقسماط ثم وقف. فسأله جيمى وهو يبحلق فى السقف: «أنت خارج؟» فرد دونكن تلقائيًا «لا» وبدل أن يغادر القمرة أسند ظهره إلى الباب المغلق وأخذ ينظر إلى جيمس ويت ـ فوجده طويلاً نحيلاً متيبسًا كأن لحمه قد تقدد على عظامه فى نار فرن حام وكانت أصابعه النحيلة فى إحدى يديه تتحرك بخفة على حافة السرير. تعزف نغما لا ينتهى.

كان النظر إليه مثيرًا متعبًا. إذ كان يمكن أن يعيش على هذه الحال بضعة أيام أخرى.. وكان يثير حنق دونكن الشديد إذ هو لا ينتمى كليًا للحياة ولا للموت ويبدو فى أمان تام لجهله. على ما يبدو بكليهما. وهنا شعر دونكن برغبة قوية فى احاطته بالأمر فسأله بلهجة فظة: أنت بتفكر فى آيه؟ فكشر جيمس ويت عن ابتسامة ارتسمت على وجهه شبه الميت فبدت مخيفة. يصعب تصديقها، كالابتسامة المفاجئة التى نراها فى الأحلام على وجه إحدى الجثث. وهمس ويت:
ـ فيه بنت... بنت من شارع كانتون ـ رفضت ضابط ثالث على مركب «رينى عشان خاطرى بتطبخ المحار على الطريقة اللى أحبها تمام. وبتقول إنها ترفض أى راجل عشان خاطر جدع أسمر.... تقصدنى أنا.

ثم أضاف بصوت أعلى:

- أصلى أنا طيب مع الستات.

فلم يستطع دونكن تصديق أذنيه. وأسقط فى يده . ثم قال باحتقار واضح.

- صحيح؟ بس أنت مش حاتنفعها بعد كده.

ولكن ويت لم يسمعه إذ كان قد غفا قليلاً ليتصور نفسه سائرا فى شارع «رصيف الهند الشرقية» وهو يقول بلطف «تعالى اشربى حاجة معايا» كان يدفع الأبواب المتحركة ويقف بثقة رائعة فى ضوء مصباح الغاز فوق المنضدة الموجنة. وسأله دونكن بغضب.

- أنت فاكر أن عمرك حاتوصل للبر؟

فأفاق ويت من غفوته مفزوعًا وقال على الفور: «عشرة أيام» ثم عاد فورًا إلى مجال الذاكرة الذى لا يقيم للزمن وزنا، كان مستريحا هادئا. كأنما انكمش داخل نفسه فى أمان بعيدًا عن متناول أخطر الشكوك والأوهام، واستشعر نوعًا من الثبات والدوام فى اللحظات البطيئة التى ركن فيها للراحة التامة. كان فى منتهى الهدوء والارتياح بين ذكرياته الواضحة التى ابتهج إذ اعتبرها (عن خطأ) صورا لمستقبل مؤكد فلم يعد يبالى بأحد، وشعر دونكن بذلك شعورًا غامضًا كشعور الأعمى فى ظلمته بعداء مميت من كل ما يحيط به من كائنات. تلك التى تبقى دائمًا وإلى الأبد محسودة وغير محققة وغير مرئية. واستولت عليه الرغبة فى تأكيد أهميته بالتحطيم والبطش والانتقام من كل إنسان ومن كل شىء. الرغبة فى تمزيق الحجاب والكشف عن وجهه الحقيقى وعرض المخفى وقطع خط الرجعة.. رغبة جارفة فى كشف الحقيقة.

فضحك هازئًا ثم قال:

- عشرة أيام – أنا أراهن لو عمرى - أنت يمكن تكون ميت بكره زى دلوقت. عشرة أيام.

وانتظر لحظة ثم استرسل قائلاً:

ـ أنت سامعنى ؟ أنا أراهن أن شكلك فعلاً زى الأموات.

ويبدو أن جيمى كان قد استجمع قواه حينئذٍ إذ قال بصوت عال:

ـ أنت كداب ونتن ومتطفل ـ وكل الناس عارفينك.

ثم اعتدل جالسًا متناسيًا كل الاحتمالات فأصاب زائره برعب هائل. ولكن هذا استرد هدوءه فورًا وقال مهددا:

ـ إيه؟ أيه؟ مين اللى كداب؟ أنت ـ والشلة كلها ـ والقبطان والجميع ـ مش أنا كلكم منفوخين ـ مين أنتم؟

وكان يختنق بالثورة لكرامته وكرر كلامه وهو يرتعد:

ـ أنت مين عشان تتفخ. خد بقسماطة ـ خد واحدة ـ ومش قادر يأكلهم هوه. دلوقت أنا حأخد الاثنين. والله لآخذهم! أنت لا شيء!

وهنا قفز إلى السرير وبحث فيه ثم أخرج بقسماطة أخرى يعلوها التراب. ورفعها فى يده أمام جيمى ثم قضمها متحديًا. وسأله بوقاحة متناهية:

ـ إيه رأيك دلوقت! كنت بتقولى أخذ واحدة؟ ليه ما تعطنيش الاثنين. لا أنا كلب جربان واحدة للكلب الجربان. أنا حأخد الاثنين ـ تقدر تمنعنى؟ ـ حاول ـ يالّلا حاول...

كان جيمى قابضًا على ساقيه.. يخفى وجهه على ركبتيه وقميصه ملتصق على جسده وضلوعه ظاهرة بوضوح. وأخذ ظهره المنحنى يهتز هزات متلاحقة وهو يلهث . وعاد دونكن يتحدث بقسوة.

ـ أنت مش عاوز؟ لا.. أنت ما تقدرش ـ زى ما قلتلك.

ثم ابتلع قضمة جافة أخرى بسرعة وعناء. وشعر بالضيق والكبت أمام عجز الآخر وصمته. وضعفه وانكماشه. ثم صاح فيه قائلاً:

ـ أنت انتهيت.. أنت مين عشان أكذب عليك وأخدمك بيدى ورجلى زى الأمبراطور الملعون، أنت لا شيء أنت مالكش حساب خالص.

كان يرغى ويزبد بقوة من يقينه الراسخ. جعلته يرتعد من قمه رأسه إلى أخمص قدميه. ثم تركته. يهتز كالوتر النابى.

وراح جيمى يستجمع قواه ثانية. فرفع رأسه واستدار بشجاعة نحو دونكن الذى أبصر وجهًا غريبًا. وجهًا غير معروف. قناعًا عجيبًا عابسًا يتملكه اليأس والغضب. كانت شفاهه تتحرك بسرعة. وامتلأت القمرة بأصوات جوفاء وتأوهات وهمسات. كانت كلها مليئة بالتهديد والشكوى واليأس.. كالهمسات البعيدة لريح توشك أن تهب. وهز ويت رأسه. وحرك كرات عينيه. ثم أخذ ينكر ويشتم ويهدد. ولكن لم تؤت كلمة واحدة من كلماته القوة لتجاوز الالتواء الحزين فى شفتيه السوداوين. كانت مقلقة غير مفهومة. عبارة عن خليط من المشاعر... أو عرض صامت عصبى لطريقة التحدث. يتوسل فى طلب أمور مستحيلة. ويهدد بانتقام خيالى.

وأثر ذلك فى دونكن كثيرًا. إذ أفاق ليرقبه بدقة. وبعد لحظة من الدراسة الدقيقة قال ببطء.

- أنت مش قادر تزعق. شفت؟ زى ما قلت لك. واستمر الآخر فى رطنه الصامت، يومئ برأسه منفعلاً تارة. ويكشر تارة أخرى عن أسنان عريضة ترسل ومضات بشعة مرعبة. وأخذ دونكن يقترب مبهورًا أمام الطلاقة والغضب الصامتين لهذا الشبح الأسود ثم مط عنقه بقلق وتطلع وخيل إليه فجأة أنه ينظر إلى شبح رجل ينام على السرير فى مستوى نظره. ثم قال «إيه؟ إيه؟. ويبدو أنه فهم بعض الكلمات من هيئة نطقها خلال همس جيمى اللاهث المستمر فقال:

- أنت حا تشتكى لبلفاست؟ مش كده أنت مالكش ولا صاحب ملعون وأخذ يهتز خوفًا وحنقًا ثم قال ثانيًا:

اشتكى لجدتك أحسن! أنت خايف. أنت مين عشان تبقى خايف أكثر من غيرك؟

كان شعوره الجامح بأهميته قد تلاشى مع البقية الباقية من الحذر فصاح قائلاً:

اشتكى لهم وأنت تشوف ـ اشتكى لو كنت تقدر؟ أنا قاسيت أسوأ معاملة من الملاعين إللى بيمسحوا لك جوخ. هم إللى سلطونى عشان ينقلبوا علىّ أنا الوحيد اللى عندى رجولة هنا. لطشونى ورفسونى ـ وانت كنت بتضحك ـ أنت يا أسود يا عاطل يا نتن ـ أنت ـ أنا حاخلص تارى منك بيعطوك أكلهم وشربهم؟ والله لأخلص منك ده كله. مين اللى طلب منى شوية ميه؟ غطوك بهدومك الملعونة ديكى الليلة وأعطونى أيه أنا ـ لطش على فمى ـ الله يلعن .. ربنا يساعدنى!.. أنت حا تدفع ثمن كل دا بفلوسك ـ أنا حاخدهم فى دقيقة أول ما تموت أنت يا ملعون يا محتال ياللى زى ما قلتلك أهى دى رجولتى. أما أنت فشىء حقير ـ أنت... يا رمة».

وألقى البقسماطة فى وجه جيمى. وكان قد تشبث بها طوال الوقت. ولكنها لم تمسه إلا قليلاً.. وبعد أن اصطدمت بالجدار بصوت حاد تفتت إلى جزيئات متناثرة كأنها قنبلة يدوية وهنا ارتمى جيمى ويت على وسادته كمن أصيب بجرح مميت ـ وكفت شفتاه عن الحركة وسكنت عيونه الزائغة وراحت تنظر إلى أعلى بثبات وإصرار. ودهش دونكن لذلك فجلس على الصندوق فجأة ونظر إلى الأرض وهو منهك مكتئب.. وبعد فترة بدأ يتمتم بينه وبين نفسه:

ـ موت يا حقير ـ موت ـ قبل ما حد يدخل... يا ريتنى كنت سكران.. عشر؛ أيام.. والمحار؟.

ثم نظر إلى أعلى ورفع صوته:

ـ لا ـ خلاص مافيش حاجة من دى لك... ما فيش بنات ملاعين يطبخوا لك المحار... مين أنت؟ الدور على أنا دلوقتى... يا ريتنى كنت سكران ـ عشان كنت أرفسك برجلى على فوق.. مطرح ما أنت رايح ـ برجليك من فتحة المراكب.. والميه تطرطش.. ومانشوفكش تانى أبدا – من على ظهر المركب ـ ده جزاءك مضبوط.

وهنا تحركت رأس جيمى قليلاً ـ واتجه بعينيه إلى وجه دونكن يرمقه بنظرة ملؤها الدهشة واليأس والتوسل ـ نظرة طفل مذعور من التهديد بحبسه وحيدًا فى الظلام.. وأخذ دونكن يرقبه من مكانه على الصندوق بعيون ملؤها الأمل، ثم بدأ يفحص غطاءه وهو جالس عليه،. ولكنه وجده مقفولاً فأخذ يبرطم: «يا

ريتنى كنت سكران». ثم نهض لينصت بقلق لوقع أقدام بعيد على السطح، واقترب هذا ثم كف؛ وأخذ أحدهم يتثاءب طويلاً خارج الباب ثم ابتعدت الخطى وهى تزحف بكسل. وهنا استراح قلب دونكن الخافق. وعندما نظر ثانية جهة السرير كان جيمى. كما كان من قبل يشخص ببصره صوب السقف الأبيض. فسأله أزيك دلوقتى فقال جيمى وهو يلهث «تعبان قوى» وجلس دونكن ثانية بصبر وعزم وكانت الأجراس تتجاوب كل نصف ساعة وهى تدق على طول السفينة وأصبحت أنفاس جيمى سريعة بدرجة يصعب عدها وضعيفة بدرجة لا يمكن سماعها وكانت عيناه مذعورتين وكأنه يشهد أهوالاً حصر لها. أما وجهه فكان ينبئ بما يدور بخلده من أمور مقيتة. وفجأة انفجر باكيًا بصوت قوى يفتت الأكباد؟

- فى البحر .. أنا.. يا إلهى؟

فتلوى دونكن قليلاً على الصندوق ثم رغما عنه. كان جيمى صامتًا يسوى الغطاء بيديه الطويلتين النحيلتين وكأنه يبغى جمعه كله تحت ذقنه وانهمرت دمعة - كبيرة وحيدة. انهمرت من أحد أركان عينيه دون أن تلمس خده الأجوف. ثم سقطت على الوسادة - ورددت حنجرته حشرجة ضعيفة.

وشعر دونكن وهو يرقب نهاية هذا الزنجى المقيت لنفسه. بالألم يعتصر قلبه عندما فكر أنه سيمر بهذه التجربة يوما ما - وربما بنفس هذه الطريقة تمامًا، فدمعت عيناه وهمس قائلاً «غلبان» وخيل إليه أن الليل يولى ومضة خاطفة - وأنه يسمع الدقائق الثمينة تتدافع دون عودة. إلى متى تستمر هذه العملية اللعينة؟ ستستمر طويلاً بالطبع. إنه سيىء الحظ ولم يقو على التحكم فى نفسه فنهض ليقترب من السرير. فلم يحرك ويت ساكنًا ولكن لبثت عيناه تلمعان بالحياه، وواصلت يداه حركة تسوية الغطاء بجهد مخيف لا يكل فانحنى دونكن ثم نادى ببطء «جيمى» ولكنه لم يسمع جوابًا ولو أن الحشرجة توقفت فسأله وهو يرتجف «أنت سامعنى» فعلا صدر جيمى ووضع دونكن أذنه على شفتيه وهو ينظر بعيدا فسمع صوتا كحفيف ورقة جافة واحدة تدفعها الرياح على الرمل الأملس لأحد الشواطئ وبعد قليل تحولت أنفاسه إلى كلمات:

- ولع .. النور.. و ... اخرج.

فنظر دونكن تلقائيًا إلى اللهب المتوهج خلف كتفه ثم تحسس المفتاح من تحت الوسادة وعيناه ما زالتا شاخصتين بعيدا. ووجده على الفور. وفى الدقائق القليلة التالية كان يجد بتردد ولكن بسرعة فى فتح الصندوق وعندما نهض واقفًا اصطبغ وجهه لأول مرة فى حياته بلون وردى. قد يكون من نشوة النصر.

ودس المفتاح ثانية تحت الوسادة وهو يتحاشى النظر إلى جيمى الذى لم يحرك ساكنًا، ثم أدار ظهره بكامله إلى السرير واتجه نحو الباب وكأنه يستعد للسير ميلاً. ولكن فى الخطوة التالية وجده أمام أنفه فتشبث بحذر بالمقبض بينما أحس فى نفس اللحظة بشىء يحدث خلفه فاستدار على الفور وكأن شخصًا ربت على كتفه، وفى تلك اللحظة رأى الضوء يومض فى عينى جيمى ليخبو على الفور وكأنهما مصباحان انقلبا فجأة أثر ضربة كاسحة. وتدلى تحت ذقنه من أحد ركنى فمه خيط قرمزى. وكان قد كف عن التنفس.

وأغلق دونكن الباب خلفه بهدوء ولكن بإحكام. وكان الرجال وهم نيام تحت معاطفهم فوق السطح المضاد يشبهون أكوامًا سوداء على هيئة مقابر مهملة.

إذًا لم يحدث شىء طوال الليل، ولم يشعر أحد بغيابه، فوقف ساكنًا فى غاية الدهشة إذ اكتشف أن الدنيا خارج القمرة مازالت كما تركها تمامًا. فهناك البحر والسفينة والرجال النائمون. وتعجب إذ بدا الأمر غير معقول. ويبدو أنه كان يتوقع أن يجد الرجال أمواتًا، والأشياء المألوفة قد ولت إلى غير رجعة، كرحالة يعود بعد سنوات متوقعًا تغيرات مذهلة.

وارتعد قليلاً فى الهواء المنعش الذى سرى فى جسمه، فاحتضن نفسه ببؤس. وكان القمر المنحدر يميل فى حزن نحو الغرب. وكأنه زهرة ذبلت بفعل نسمة باردة هبت من الفجر الشاحب. ونامت السفينة، بينما امتد البحر الذى لا يموت، بعيدًا شاسعًا مترددًا كصورة للحياة، له سطح متألق وأعماق داكنة - ملهم يوحى بالأمل ولكنه مرعب خاو. ورمقه دونكن بنظرة تحد، ثم انسحب بدون ضجة كأنما حاكمه البحر وأدانه ثم ألقاه بعيدًا بقوة سكونه الهائلة.

ومع ذلك قوبل موت جيمى بدهشة كبرى - لم نكن نعلم حتى تلك اللحظة بالثقة المتناهية التى وضعناها فى أوهامه. كنا قد اعتقدنا - حسب تقديره - فى فرص الحياة المتاحة له، لدرجة جعلت موته كموت عقيدة قديمة، تهز مجتمعًا من أساسه. لقد انفصم رباط مشترك بيننا - الرباط القوى المؤثر المحترم لخدعة عاطفية. وتكاسلنا فى عملنا طيلة ذلك اليوم، وانبعثت من عيوننا نظرات الريبة وعلت وجوهنا علامات الاستياء، وشعرنا فى قرارة أنفسنا أن جيمى قد تصرف فى أمر رحيله بطريقة حمقاء غير ودية - فلم يقف إلى جانبنا كما كان ينبغى عليه كزميل بحار. وبرحيله حرمنا من ذلك الطيف المقبض الرزين الذى احتوى حماقاتنا بإنسانية ورضا، كحكم الأقدار الحنون - والآن تبين لنا أن الأمر لم يكن شيئًا من هذا، كان مجرد حماقة عامة وتدخل طائش غير مجد فى أمور عليا ذات بال - هذا إذا كان «بودمور» على حق - وقد يكون فعلاً على حق؟

وهكذا عاش الشك بيننا بعد وفاة جيمى - وكمجتمع من عصابات المجرمين تفرقه لمسة إلهية، ساءت علاقاتنا فيما بيننا. فكان الرجال يتحدثون بقسوة مع أقرب أصدقائهم، وأحجم آخرون عن الحديث كليًا، سنجلتون فقط لم يدهشه الخبر - إذ قال وهو يشير إلى الجزيرة المواجهة: «مات؟ هو، طبعًا» كان الركود قد حجز السفينة كالمسحورة، هذه الفترة، على مرأى من جزيرة «فلورس». مات. طبعًا - هو لم يندهش - ها هى الأرض وهناك فوق الطاقة الأمامية كانت الجثة تنتظر صانع الشراع - سبب ومسبب...» ولأول مرة خلال هذه الرحلة ابتهج البحَّار العجوز وانطلق لسانه، يشرح ويصور من حصيلة تجاربه الواسعة، كيف أن رؤية ولو جزء صغير من الأرض، أثناء المرض تكون عادة مميتة أكثر من رؤية قارة بأسرها، ولكنه عجز عن شرح السبب.

وكان مفروضًا أن يدفن جيمى فى الخامسة، وبدت الحقبة الباقية من النهار طويلة - كان يومًا حافلاً بالقلق الذهنى والاضطراب الجسمانى - ففقدنا الاهتمام بعملنا، ولاقينا ما نستحق من اللوم والتأنيب. وجاء هذا مثيرًا لنا فى حالة التوتر التى كنا نعانيها. وكان دونكن يعمل وجبهته مربوطة بخرقة قذرة، وبدا شاحبًا كالموتى لدرجة أن مستر بيكر تأثر لرؤية هذا المتألم الصامد فقال وهو يقبع:

ـ أوف ـ أنت يا دونكن، سيب شغلك وروح أرقد النوبة دى. انت باين عليك عيان.

فرد عليه بصوت عليل:

ـ فعلاً يا سيدى ـ أنا عندى صداع.

ثم يتلاشى فى أسرع من لمح البصر ـ وأثار هذا التصرف استياء كثيرين منا، ولاحظوا أن زميلهم «ناعم قوى... النهارده».

وشوهد كابتن اليستون عند المؤخرة يرقب السماء وهى تتلبد بالغيوم من الجنوب الغربى ـ وانتشر الخبر فوق أسطح السفينة على الفور أن البارومتر قد بدأ فى الانخفاض أثناء الليل، وأنه يمكن توقع هبوب ريح فى فرصة قريبة ـ وبعد أن ربطوا بين هذا وبين موت جيمى راحوا يتشاجرون بعنف لتحديد لحظة وفاته بالضبط. هل حدث هذا قبل أو بعد أن بدأ البارومتر فى الانخفاض؟ واستحال عليهم كشف ذلك، وأخذوا يحدثون بعضهم بعضًا بتذمر وازدراء. وفجأة علت ضجة إلى الأمام ـ كان نويلز المسالم وديفيز دمث الخلق قد اشتبكا بالأيدى بسبب هذا الموضوع ـ وتدخل النوبتجية بحماس ـ وعلى مدى عشر دقائق استمرت المشادة الصاخبة حول الطاقة حيث كان جثمان جيمى ممددًا فى ظل القلوع، ملفوفًا فى بطانية بيضاء، ويقوم على حراسته بلفاست الحزين ـ الذى تعالى، فى أساه العميق، على المشاجرة. وعندما هدأ الصخب واستحالت المشاعر الملتهبة إلى استياء صامت، وقف عند رأس الجثة المسجاة، ورفع كلا ساعديه إلى أعلى وهو يصيح باستياء مفعم بالألم.

ـ أنتو لازم تتكسفوا من نفسكم.

وحدث هذا بالفعل. وكان حزن بلفاست على مصابه مبرحًا ـ وجاءت تصرفاته براهين قاطعة على إخلاص لا يفنى: وكان هو، دون غيره من سائر الرجال، الذى ساعد صانع الشراع فى إعداد ما بقى من جيمى لإيداعه برهبة فى جوف البحر لا يرتوى: فرتب الأثقال عند الأقدام بعناية ـ إذ وضع اثنين من حجر الخفاف، وحلقة مخطاف قديمة بدون المسمار، وبعض الحلقات المستهلكة من كابل نهرى ـ

وأخذ يرتبها بهذه الطريقة ثم بتلك، حتى قال صانع الشراع وكان يكره العملية كلها:

ـ يا إلهى! انت خايف يعور كعبه والا إيه؟

كان يغرز الإبرة وهو ينفث الدخان بحنق، ورأسه غارقة فى سحابة من دخان التبغ، وأخذ يقلب الجوانب ويخيط الغرز ويشد الخيش ويأمر بلفاست:

ـ ارفع أكتافه ـ شد عندك شويه... ايوا كده ـ ايوا كده على مهلك.

وكان بلفاست يطيعه فيجذب أو يرفع وقد غلبه الأسى وانهمرت دموعه على الخيط المغطى بالقطران وكان يتوسل إليه والدموع ملء عينيه:

ـ حاسب تشد الخيش قوى على وشه الغلبان يا ريس.

فيرد عليه الثانى ليطمئنه:

ـ أنت تاعب نفسك ليه؟ ده حايكون مستريح خالص.

وأخيرًا قطع الخيط بعد الغرزة الأخيرة التى وصلت قرب منتصف جبهة جيمى، ولف باقى الخيش وأعاد الإبرة إلى مكانها، وسأله:

ـ إيه اللى مخليك زعلان كده؟

فنظر بلفاست إلى الحزمة الكبيرة من خيش القلوع الرمادى وهمس قائلاً:

ـ أصلى أنا شديته بره ـ وماكانش عاوز يموت ـ لو كنت سهرت معاه الليلة اللى فاتت كان عاش عشان خاطرى... لكن أنا حاسيت إنى تعبان....

فشد صانع الشراع من غليونه أنفاسًا قوية ثم برطم:

ـ أمال أنا... محطة الهند الغربية... فى المركب الحربى «بلانش»... كفنت عشرين راجل كل يوم... رجالة من بورتسموث وديفون بورت ومن المدينة. وكنت عارف آباءهم وأمهاتهم... وأخواتهم... كل حاجة عنهم... وماكنتش بافكر فيهم بالمرة ـ والزنوج دول زى الراجل ده ـ لا تعرف هم جايين منين، ولا لهم حد... ولا يفيدوا حد... مين اللى حايحس بموته؟

فرد بلفاست بحزن واستياء:

- أنا... أنا شديته بره.

وحمل جيمس ويت فوق لوحين مسمرين معًا - كان يبدو مستسلمًا ساكنًا تحت ثنايا العلم البريطانى بحافته البيضاء. حمله أربعة رجال ثم أنزلوه ببطء وقد اتجهت قدماه صوب باب جانبى مفتوح. وكان البحر قد ارتفع قليلاً من جهة الغرب وتبع حركة السفينة، وأخذت الراية الحمراء، المعلقة عند منتصف الصارى، ترفرف إلى أعلى ثم تهبط أمام سماء قاتمة، وكأنها لسان متوهج، ثم دق تشارلى الجرس ومع كل هزة فى الجهة اليمنى كنت ترى نصف دائرة من المياه فى لون الفولاذ، تهجم إلى حافة الباب كأنها تتطلع للوصول إلى حبيبنا جيمى.

وكان الجميع حاضرين سوى دونكن الذى كان مريضًا بدرجة لا تسمح له بالحضور. ووقف الكابتن ومستر كريتون برءوس عارية فوق المؤخرة - وبناء على توجيه الكابتن، الذى قال لمستر بيكر: «أنت تعرف أكثر منى عن الإنجيل» خرج الأخير من باب قمرته مسرعًا ومرتبكًا قليلاً. ورفع الجميع طواقيهم وبدأ مستر بيكر يقرأ بنغمة وطيئة وبلهجته التوعدية غير المؤذية، وكأنه جاء للمرة الأخيرة ليوجه اللوم سرًا لهذا البحَّار الميت عند قدميه.

وأنصت الرجال فى جماعات متناثرة، وكانوا يستندون إلى السور، ويحملقون فى ظهر السفينة أو يمسكون ذقونهم بأيديهم، وقد استرسلوا فى التفكير، أو يخفضون رءوسهم قليلاً وقد عقدوا سواعدهم، وثنوا إحدى الركبتين قليلاً فى وضع ينم على تفكير عميق.

وكان واميبو غارقًا فى أحلامه. واسترسل مستر بيكر فى القراءة. وكان يقبع بوقار عند نهاية كل صفحة. وتطايرت الكلمات بعد أن فشلت فى الوصول إلى قلوب الرجال الحائرة، لتهيم بلا مأوى فوق بحر قاس لا قلب له.

أما جيمس ويت فبعد أن احتواه الصمت إلى الأبد رقد موافقًا مستسلمًا بين همسات اليأس والأمل الجشاء واستعد رجلان، ولبثا ينتظران تلك الكلمات التى تشبع كثيرًا من اخوتنا فى غطستهم الأخيرة. وبدأ بيكر يقرأ هذه الفقرة - وتمتم

الريس «وسعوا الطريق» وقرأ مستر بيكر إلى «الأعماق» ثم سكت، ورفع الرجال نهاية الألواح ـ وشد الريس العلم، ولكن جيمس ويت لم يتحرك. فتمتم الريس بغضب «لفوق» فارتفعت كل الأيدى، وتحرك الجميع بقلق، ولكن جيمس ويت لم يأت ما ينبئ برحيله. بل بدا كأنه بالرغم من موته وتكفينه لعالم الآخرة، ما لبث يتشبث بالسفينة بقبضة من رعب أزلى. وهمس الريس بحدة: «ارفعوا ـ لفوق» فتلعثم أحد الرجال متوترًا «مش عاوز ينزل» وبدا الاثنان على استعداد لإلقاء كل شىء. وانتظر مستر بيكر قليلاً، وقد أخفى وجهه فى الكتاب، وأخذ يحرك قدميه بعصبية. وبدا القلق العميق على وجوه الرجال، وانتشر فى وسطهم طنين أخذ يعلو تدريجيًا. ثم صاح بلفاست منتحبًا «جيمى» وتبعت ذلك فترة توتر واستياء. ثم صرخ ثانيًا بغضب وتأثر:

ـ جيمى: خليك راجل:

ففغر الكل أفواههم، ولم يختلج جفن واحد. كان يحدق بشراسة وكل أطرافه ترتجف، ثم انحنى إلى الأمام كمن يحملق فى شىء مرعب، وصاح قائلاً: «أنزل» ثم قفز إلى أعلى وذراعه ملقى إلى الخارج وهو يقول:

ـ انزل يا جيمى ـ جيمى انزل!

ولمس رأس الجثة بأصابعه، فبدأت الحزمة الرمادية ـ كارهة تحتك منزلقة على الألواح بسرعة البرق الخاطف. وخطا الحشد إلى الأمام كأنه رجل واحد ـ وصدرت آهة طويلة مذبذبة من الصدور العريضة ـ وتحركت السفينة كأنما استراحت من عبء مرهق، ورفرفت القلوع ـ وكان بلفاست يلهث بعصبية وقد استند إلى آرتشى، أما تشارلى فقد قفز برأسه جهة السور فى شوق لرؤية آخر غطسة لجيمى ـ ولكنه لم يدرك شيئًا سوى دائرة ضعيفة من الدوامة المتلاشية.

وقرأ مستر بيكر، وهو يتصبب عرقًا، الصلاة الأخيرة، وسط ضجة الرجال الهائجين والقلوع المرفرفة. وبعد أن قال «آمين» بصوت مضطرب أقفل الكتاب. وصاح صوت كالرعد فوق رأسه «شدوا القلوع!» فوثب كل البحّارة وألقى واحد أو اثنان بطواقيهم، ونظر مستر بيكر إلى أعلى مدهوشًا. كان القبطان واقفًا عند

المؤخرة يشير جهة الغرب ويقول: «النسمة جايه. شدوا القلوع - صحصحوا يا رجاله» فدس مستر بيكر الكتاب فى جيبه بسرعة، ثم صاح بسرور، متيقظاً عارى الرأس.

- شدوا القلع الأمامى - انتو يا نوبتجية الباب!

فأخذ الرجال يهمسون وهم يتجهون إلى الحبال «ريح مواتيه - ريح مواتيه» فبرطم سنجلتون العجوز وهو يلقى لفائف الحبال واحدة بعد أخرى بقوة وتعجل: «أنا قلتلكم إيه؟ أنا كنت عارف: هو راح وهى جت».

وجاءت الريح على هيئة آهة طويلة عاتية، وانتفخت القلوع وشقت السفينة طريقها فى خط واحد، وأخذ البحر وهو يصحو يهمس ناعسًا عن الوطن، فى آذان الرجال.

وفى تلك الليلة وبينما السفينة تندفع فى الزبد أمام ريح منعشة، صوب الشمال، أخذ الريس يفصح عما فى قلبه فى عنبر الضباط الصغار.

فقال لهم:

- الجدع ماكانش جاى منه إلا المتاعب - من اللحظة اللى طلع فيها على المركب - فاكرين ديكى الليلة فى بومباى؟ من يومها وهو متجدعن على الشلة الضعيفة دى - واتجرأ على الراجل العجوز - واضطرينا كلنا نجرى بهبل على مركب نص غرقانه عشان ننجيه. وكنا على وشك حركة تمرد عشان خاطره - والوقت الضابط شتمنى كأنى نشال، عشان نسيت أدهن الألواح اللى حطيناه عليها بشوية شحم. وصحيح أنا نسيت. لكن أنت كمان ماكانش يصح تسيب فيهم مسمار بارز. إيه ياتشيبس؟ فرد البحّار المكتئب محاجيًا:

- وأنت كمان ما كانش يصح ترمى فى البحر كل عدة النجارة، زى الغشيم الجبان، عشان خاطره.

ثم أضاف بلهجة متسامحة:

- خلاص أهو راح الوقت وراها.

ويدأ صانع الشراع يقص ذكرياته:

. على محطة الصين . أنا فاكر مرة الأميرال قال لى....

وبعد أسبوع دخلت «نرجس» فى أمواج «القنال».

وأخذت تنزلق على البحر الأزرق تحت أجنحة بيضاء وكأنها طائر عظيم متعب، يأوى سريعًا إلى عشه. وكانت السحب تسابق رءوس صواريها، فترتفع ضخمة بيضاء جهة الدفة ثم تحلق إلى السمت وتطير بعدها. وعندما انحدرت مع المنحنى الواسع فى السماء بدت كأنها تندفع إلى البحر، كانت السحب أسرع من السفينة وأكثر منها حرية ولكن لا مأوى لها. وتقدم الشاطئ من الفضاء إلى ضوء الشمس ليرحب بها. وخطت الهضاب مهيبة إلى البحر وابتسمت الخلجان البيضاء فى الضوء، وجرت أطياف السحب التى لا مأوى لها بحزاء السهول المشمسة، ووثبت عبر الوديان - ثم اندفعت بلا عقبة تصعد التلال وتنحدر مع السفوح والشمس تتبعها ببقع من الضوء المسرع.

وعلى جباه الصخور السوداء كانت الفنارات البيضاء تلمع فى أعمدة من النور، وتألق القنال كأنه غلالة زرقاء محلاة بالذهب ومرصعة بنجوم من فضة البحر. واندفعت «نرجس»، مجتازة الألسنة والخلجان - وكانت السفن المبحرة تعبر خط سيرها وقد شمرت عن صواريها لتدخل فى صراع قوى مع رياح الجنوب الغربى العاتية. وفى الداخل أخذت القوارب البخارية تتهادى فى خيط متصل من الدخان، وهى متشبثة بالشاطئ كأنها وحوش برمائية مهاجرة، توجس خيفة من الأمواج المتلاطمة.

وفى المساء تراجعت الألسنة وتقدمت الخلجان فى خط متصل من الظلام الكئيب، واختلطت أضواء الأرض بأضواء السماء، وسطع عاليًا فوق أسطول الصيد المتهادى، فنار عظيم كأنه مصباح مرتفع يتوهج فوق سفينة لها أبعاد خرافية. وتحت وهجة الثابت، كان الشاطئ المستقيم الأسود وهو يترامى بعيدًا، يشبه الجانب العالى لسفينة عاتية، تعتلى وهى ساكنة متن بحر أزلى غير مستقر. ورقدت اليابسة، وحيدة سوداء، وسط البحار كسفينة قوية تنبعث منها

أضواء مساهرة كالنجوم - سفينة تحمل عبء ملايين الأنفس - سفينة محملة بالتراب والدرر الثمينة، بالذهب والفولاذ.

وأشرفت من عل فبدت شاسعة قوية، تحرس تقاليد غالية ومعاناة مكبوتة، وتحمى ذكريات مجيدة وجحودًا - دنيئًا - فضائل وضيعة واعتداءات باهرة - سفينة عظمى حاول المحيط سنين عديدة أن يحطم جوانبها المتينة دون جدوى - وبقيت هناك منذ كان العالم أكثر اتساعًا وظلمة، وعندما كان البحر عظيمًا غامضًا مستعدًا لتسليم صولجان الشهرة للجسورين من الرجال. سفينة بمثابة أم للأساطيل والأمم - أو بارجة قيادة للبشر - أقوى من العواصف وراسية فى عرض البحر.

ودارت «النرجسة»، وهى تخلف رياح الشاطئ وراءها، حول اللسان الجنوبى - ودلفت خلال التلال الجنوبية لتدخل وهى مقطورة إلى النهر. وبعد أن تجردت من أبهة أجنحتها البيضاء أخذت تنعطف مطيعة خلف القاطرة خلال شبكة من القنوات الخفية. وعندما اجتازتها كانت السفن الخفيفة المطلية باللون الأحمر تتأرجح فى مراسيها، وتبدو لحظة كأنها مبحرة، مع هجوم المد، بسرعة فائقة، وفى اللحظة التالية تتخلف للوراء وقد فقدت الأمل. وأخذت الشمندورات الكبيرة، عند أطراف ضفتى النهر، تنزلق واطية لتسقط فى مسارها، وقد قيدت بالسلاسل ككلاب الحراسة الضارية. وضاقت الشقة فتقدمت الأرض على الجانبين مقتربة من السفينة - وكانت هذه تسير ثابتة إلى أعالى النهر - وظهرت المنازل القائمة على سفوح جانبى النهر، كجماعات تتدافع فى سيل منهمر المنحدرات، لترقب السفينة وهى تمر، وعندما اعترض سبيلها الطمى عند مقدم الشاطئ تزاحمت على الضفاف. وعلى بعد منها ظهرت مداخن المصانع الطويلة، فى مجموعات متغطرسة، وأخذت ترقبها وهى تمضى، كجمع من العمالقة المشوقين، يزهون منتصبى القامة تحت تجمعات الدخان الأسود، وينحرفون بخيلاء. وسارت السفينة تكتسح ما أمامها من منحنيات، فصرخت نسمة ملوثة بين صواريها العارية، مرحبة بها، واقتربت اليابسة لتخطو بين السفينة والبحر.

وحلقت فوقها سحابة وطيئة ـ سحابة هائلة متألقة مرتجفة، وكأنها تصاعدت من جباه ملايين الرجال المتصببة عرقًا. وأخذت نفثات البخار الهائمة تشوبها بخطوط شاحبة وهى تتجاوب مع خفقات الملايين من القلوب، وصدرت منها همهمة هائلة محزنة ـ همهمة ملايين الشفاه وهى تصلى أو تشتم أو تتنهد أو تسخر ـ الهمهمة الأزلية للطيش والندم والأمل، التى تنبعث من صدور الحشود التى تعيش على الأرض القلقة.

واخترقت «النرجسة» السحاب فازدادت أطيافها سمكًا. وسمع صليل الحديد فى كل جوانبها. وعلا صوت الضربات العاتية والصراخ والهتاف، واندفعت خلسة فوق النهر المعتم بعض القوارب السوداء. وارتفعت فى الدخان مجموعة غير منتظمة من الجدران القذرة ـ تبعث الارتباك والحزن كمنظر يصور كارثة. وعادت القاطرات للوراء وهى تلهث بغضب ـ وامتلأت بالبخار استعدادا لجذب السفينة إلى بوابات الحوض ـ وانبعث من مقدمتها خطان من الدخان والصفير اصطدما باليابسة فأصبحا أشبه بزوج من الثعابين وانقسم الكوبرى أمامها إلى اثنين كأنما لمسته عصا ساحر وأخذت رافعتان مائيتان كبيرتان تدوران تلقائيا كأنها تتحرك بفعل تعويذة غامضة شريرة ـ ودلفت فى ممر مائى ضيق. على جانبيه جدران منخفضان من الجرانيت ـ وكان الرجال يسيرون معها فوق الأحجار العريضة وفى أيديهم حبال لضبط حركتها.

وشوهد على جانبى الكوبرى المتلاشى جمع ينتظر بفارغ صبر ـ رجال فظاظ ممتلئون وطواقيهم على رءوسهم ـ وآخرون بوجوه نحيلة وقبعات عالية ـ وامرأتان عاريتا الرأس. وأطفال فى ثياب مهلهلة ـ كان الكل ينتظرون مبهورين بعيون محدقة ـ ووصلت عربة كارو تتحرك برجة عنيفة. ثم توقفت فجأة . وصرخت إحدى المرأتين صوب السفينة الصامتة: أهلاً يا جاك دون أن تنظر إلى أى أحد بالذات. فنظر إليها كل البحَّارة من قمة عنبرهم. وصاح رجل الحوض وهو ينحنى فوق الأعمدة الحجرية. وسعى السكة ـ ابعدى عن الحبل ده فتهامس الجمع وضربوا الأرض بأقدامهم، وعلا صوت عجوز متورد الوجه. يغنى على

الرصيف: «سيب الحبال» سيب الحبال فسقطت الحبال بثقل وطرطشة فى الماء ودخلت «النرجسة» إلى الحوض.

وابتعدت الشواطئ الحجرية يمينا «ويسارا» فى خطوط مستقيمة لتحتوى بينها بركة مثلثة معتمة. وارتفعت فوق المياه جدران عالية من الطوب الأحمر - جدران كجسد بلا روح تحدق بخمول وقلق من مئات من النوافذ. كأنها عيون وحوش متخمة. وكانت تجثم عند قواعدها روافع حديدية هائلة. تتدلى من أعناقها الطويلة سلاسل تحفظ توازن خطاطيف مرعبة فوق ظهور سفن لا حياة فيها وسرت فى الهواء ضجة صادرة من عجلات عربات تجرى فوق الحجارة أو أجسام ثقيلة ترتطم وهى تسقط، أو أوناش تقعقع محمومة أو سلاسل تتطاحن عند جذبها. وحلقت قريبًا من الأرض. بين المبانى البالية. أتربة القارات جميعها وانتشرت فى الفضاء روائح نافذة منبعثة من العطر والوحل. ومن التوابل والجلود ومن كل ما هو ثمين أو قذر فملأته بجو يجمع بين مظاهر الوجاهة والتقزز.

وخطت «النرجسة» إلى مرساها - فانعكست عليها أطياف الجدران المجردة من الحياة وزحفت إلى ظهورها أتربة جميع القارات واستولى عليها باسم اليابسة الخسيسة جمع من رجال غرباء بعد أن تسلقوا جوانبها، وكانت قد كفت عن الحياة.. وصعد إليها برشاقة رجل متأنق يرتدى معطفا أسود وقبعة عالية.. وقابل الضابط الثانى، وصافحه قائلاً «أهلا يا هربرت» كان هذا أخاه ... وظهرت فجأة سيدة - سيدة بمعنى الكلمة - ترتدى ثوبا أسود وتمسك بمظلة - فبدت فى وسطنا غاية فى الأناقة والغرابة. وكأنها هبطت من السماء. فحياها مستر بيكر بلمس قبعته - كانت زوجة الكابتن - وسرعان ما ظهر الكابتن نفسه. أنيقًا فى قميص أبيض وانتحى معها جانبًا، ولم نتعرف عليه بالمرة إلى أن دار على الرصيف ينادى مستر بيكر قائلاً: افتكر تملا الساعات بكره الصبح وراحت مجموعة من الشبان الماكرين يتسكعون بعيون زائغة. داخل وخارج عنبر البحارة بحجة البحث عن عمل كما قالوا. ولكن نويلز علق ضاحكا. فى الغالب بيدوروا على حاجة يسرقوها » يا لهم عن معدمين بؤساء. لم يهتم بهم أحد - لقد وصلنا وانتهى الأمر. ولو أن مستر بيكر لحق بواحد منهم كان قد تجرأ عليه. فاغتبطنا

لذلك. كان كل شيء يبعث على السرور، ونادى مستر كريتون مستر بيكر قائلا: أنا انتهيت من المؤخرة يا سيدى». وقال له النجار للمرة الأخيرة وهو يمسك بالمجس مافيش ميه فى البير يا سيدى ونظر مستر بيكر عبر ظهر السفينة إلى مجموعات الرجال المترقبة. ثم نظر عاليا إلى الصوارى وقبع قائلاً. كفاية كده يا رجالة فتفرقت الحشود واختتمت الرحلة..

وراحت الأسرة الطوبة تتطاير من على السور. وصناديق البحر تتدفع على السقالات - ولكنها كانت قليلة نسبيا. وعلل نوبلز هذه الظاهرة بالكناية لأحد رجال الحوض وكانا قد تصادقا توًا. «بقية الصناديق والسراير فى رحلة عند رأس الرجاء الصالح». - وأخذ الرجال يجرون وينادون بعضهم بعضًا ويرحبون بالغرباء ليساعدوهم فى رفع أمتعتهم ثم يقتربون من الربان وعليهم مسحة مفاجئة من اللباقة والذوق ليصافحوه قبل أن ينزلوا إلى البر. كانوا يكررون عبارة مع السلامة يا سيدى بنغمات مختلفة - فيقبض مستر بيكر على أيديهم الخشنة ويقبع بلهجة حبية لكل منهم وعيناه تتألقان: « حاسب على فلوسك يا نويلز أوف جايز تلاقى زوجة حلوة قريب».

فيبتهج لحديثه الرجل الأعرج ،ويتحدث بلفاست بتأثر وهو يقبض بحرارة على يد الربان وينظر إليه بعينين تسبحان فى الدمع مع السلامة يا سيدى - أنا كنت فاكر إنى حاخده على البر معايا ويمضى منتحيًا - ويعجز مستر بيكر عن فهمه ولكنه يقول برفق «خد بالك من نفسك يا كريك» فيقفز بلفاست المكلوم عبر السور حزينًا وحيدًا».

وفى الهدوء الذى خيم على السفينة فجأة. راح مستر بيكر يتحرك ويقبع وحيدًا. يجرب مقابض الأبواب. ويحدق فى الأماكن المظلمة ولا يكف عن العمل أبدًا - كان ربانًا مثاليًا . ولم يخف أحد لانتظاره على البر - فأمه ميتة وأبوه وأخواه الاثنان كانوا صيادين فى يارموث وغرقوا جميعًا على «دوجر بانك» وأخته متزوجة ولكن ليس بينهما ود - ومع ذلك فهى سيدة بمعنى الكلمة زوجها أكبر ترزى وسياسى فى بلدة صغيرة - ويعتبر صهره البحّار غير متكافئ معه فى المركز واسترسل فى التفكير... سيدة بمعنى الكلمة - سيدة بمعنى الكلمة. وجلس

ليستريح فوق الطاقة - لقد آن الأوان لينزل إلى البر ويأكل شيئا وينام فى مكان ما. كان يكره فراق السفينة - إذ لا يجد لديه بعدئذ من يفكر فيه - وخيم الظلام على ظهر السفينة المهجورة بسبب شبورة سميكة. رطبة باردة - وجلس مستر بيكر يدخن ويتذكر كل السفن المتتابعة التى أولاها عنايته الفائقة، وكبحار. طيلة السنوات العديدة الماضية - ومع ذلك فلم يتح له بناتا شغل مركز القيادة وفكر مليًا: أنا ماليش هيئة الكابتن - حاجة زى كدا».

وفى تلك الأثناء أخذ حارس السفينة وهو عجوز مجعد الوجه منتفخ العينين. وكان قد تسلم المطبخ بعد رسو السفينة. أخذ يسب مستر بيكر فى همسات لأنه، أتلكع هنا كل الوقت ده. وتابع بيكر حبل أفكاره المجردة من الحسد: دلوقتى كريتون جنتلمان تمام - له أصحاب مهمين.. حايوصل.. شاب رقيق... شوية خبرة زيادة» وهنا نهض واقفًا وهو يهز نفسه ثم نادى قائلا: « أنا حارجع بكره الصبح عشان عنابر البضاعة - أوعى تخليهم يمسوا حاجة قبل ما وصل يا ريس». ثم نزل أخيرًا هو الآخر إلى البر ريان مثالى.

وبعد أن تفرق الرجال عقب لقاء اليابسة المشتت تجمعوا من جديد فى مكتب الإبحار. إذ صاح خارج باب زجاجى شخص مسن فى ملابس رسمية وعلى قبعته حرفًا « ب. ت» النرجسة تصرف الأجور فاحتشد على الفور جمع منهم ولكن كثيرين وصلوا متأخرين، وكانت الحجرة متسعة مطلية باللون الأبيض وعارية وظهر فيها بنك يعلوه سياج من السلك النحاس يحجز ثلاثة أرباع المساحة المترية. وقد جلس خلفه كاتب ذو وجه شاحب، وشعر مفروق فى الوسط، وكانت عيناه السريعتان المتألقتان وحركاته النشطة المرتجة تجعله أشبه بطائر حبيس فى قفص.

وكان كابتن أليستون المسكين جالسًا هناك أيضًا خلف منضدة تعلوها أكوام من الذهب والبنكنوت ،وبدا مستسلمًا لهذا الأسر وجثم على مقعد عال بجوار الباب «طائر» آخر ينتمى للغرفة التجارية (طائر) عجوز لم يكن يأبه لمزاح البحّارة المبتهجين.

وتزاحم بحّارة «النرجسة» فى الأركان بعد أن انقسموا إلى جماعات صغيرة'.
كانوا يرتدون ملابس البر الجديدة: سترات أنيقه كأنها فصلت على أجسامهم بفأس وسراويل براقة بدت كأنها صنعت من رقائق الحديد المطروق. وقمصانا من الفانلة بدون ياقات وأحذية جديدة لامعة. وكانوا يربتون على الأكتاف ويزرون أزرار بعضهم بعضًا ويسألون «نمت أمتى ليلة امبارح؟» ثم يهمسون بمرح ويضربون فخاذهم ويدقون بأقدامهم وقد انفجروا ضاحكين ضحكات مكتومة.

وبدت وجوه أغلبهم نظيفة متألقة. باستثناء واحد أو اثنين كانوا مشعثين مكتئبين. وكان الشابان النرويجيان أنيقين وديعين. وتبشر صفاتهم كلها بالنجاح مع السيدات الطيبات اللاتى يرغبن البيت الإسكندناوى.!. ولم يكن واميبو قد خلع ملابس العمل ،كان يحلم كعادته وقد وقف فى وسط الحجرة ضخمًا منتصب القامة. وعندما دخل أرتشى استيقظ ليبتسم له. ولكن الكاتب المتيقظ قرأ أحد الأسماء بصوت عال فبدأت عملية صرف الأجور.

وتقدموا نحو منضدة الصرف الواحد بعد الآخر ليتسلموا أجر كدحهم المجيد المطموس وكانوا يجمعون النقود فى كفوفهم العريضة بحرص أو يودعونها بثقة فى جيوب سراويلهم أو يديرون ظهورهم للمنضدة ليحصوها بصعوبة فى بطون أيديهم المتصلبة.. وراح الكاتب يكرر بفارغ صبر. الفلوس مضبوطة؛ امضى على الوصل - هناك هناك». وأخذ يفكر «البحّارة دول أغبياء بالدرجة دى؟» ثم تقدم سنجلتون - وقورًا لا يتبين ضوء النهار بوضوح، وكانت لحيته البيضاء مشبوبة بقطرات بنية اللون من رحيق التبغ. وبدا عسيرًا على يديه - التى لم تعرف التردد بتاتا فى الضوء الساطع فى عرض البحر - إن تصل فى ظلام البر المطبق إلى كومته الصغيرة من النقود الذهبية. وقال الكاتب مدهوشًا: «ما تعرفش تكتب؟ إذًا اعمل علامة» فخط سنجلتون بصعوبة صلبيا ثقيلاً ثم جفف الحبر. وهمس الكاتب «ايه البهيم المزرى ده» وفتح أحدهم الباب أمامه فخرج منه البحّار الشيخ متعثرًا. دون أن يعير أحدنا نظرة واحدة.

وجاء آرتشى بمحفظة نقود ولم يهتم به أحد. أما بلفاست فقد بدا شاذًا هائجًا كمن انغمس فى الشراب فى حانة أو حانيتين وبعد أن أبدى تأثره طلب

التحدث مع الكابتن على حدة، فدهش القبطان لذلك ـ وتحدثنا تليفونيًا فسمعنا القبطان يقول: «أنا تنازلت عنها للغرفة التجارية» فغمغم بلفاست «أنا كنت عاوز آخذ منه حاجة». فجادله القبطان «ما تقدرش يابنى ـ أحنا تنازلنا عنها ـ وقفلنا عليها وختمناها للمكتب البحرى». فتراجع بلفاست بفم مدلى وعيون قلقة وفى فترة الراحة سمعنا القبطان والكاتب يتحدثان ـ والتقطنا الكلمات: «جيمس ويت ـ توفى لم توجد لديه أوراق من أى نوع ـ ليس له أقارب ـ لا أثر له. لهذا يجب أن يحصل المكتب على أجره» ودخل دونكن جادًا يلهث ومشغولاً للغاية واتجه إلى البنك فوراً وتحدث بحيوية مع الكاتب الذى وجده رجلاً ذكيًا،، وأخذا يناقشان الحساب بود وألفة. ودفع كابتن أليستون المبالغ وهو يقول بهدوء: «خذ ـ خلو طرف ودى» فرفع دونكن صوته قائلاً: «أنا مش عاوز خلوك الملعون ـ خليه ـ أنا حاخذ وظيفة على البر » ـ ثم التفت إلينا ليقول عاليًا، مش حاشتغل تانى فى البحر الملعون». ـ فنظر الجميع إليه. كان يرتدى ملابس أحسن من قبل وبدا مرتاحا وأكثر استقرارا منا ـ كان يحملق فينا بثقة تامة ويستمتع بما أحدثته تصريحاته من أثر فينا واسترسل قائلا: أى أنا لى أصحاب أغنياء ـ أكثر من اللى لكم ـ لكن أنا راجل ـ وانتو بحّارة زملاء على كل حال. مين ييجى يشرب كأس معايا».

فلم يتحرك أحد وساد الصمت ـ صمت وجوه واجمة ونظرات جامدة . وانتظر فترة ثم ابتسم بمرارة، واتجه إلى الباب وهناك واجهنا ثانية قائلاً:

ـ أنتو مش عاوزين ـ أنتو يا شيلة الغشاشين الملاعين ـ لا؟ أنا عملت حاجة؟... أنتم مش عاوزين تشربوا ؟ لا... طيب إنشاء الله تموتوا من العطش كل واحد... فيكم ـ مافيش حد منكم عنده شجاعة حشرة ـ أنتو لمامة الدنيا. اشتغلوا وموتوا من الجوع:

وخرج ليغلق الباب خلفه بعنف جعل «طائر» الغرفة التجارية العجوز يوشك أن يقع من مقعده فقال آرتشى: «ده اتجنن» ولكن بلفاست أصر بنغمة ثملة وهو يترنح «لا. لا. ده سكران» وجلس كابتن آليستون يفكر ويبتسم أمام منضدة الصرف بعد أن خلت من النقود.

وفى الخارج فوق «تاور هيل» اعتراهم التردد واختلجت جفونهم كأنما أعماهم الضوء الباهت الغريب، أو وجلت قلوبهم لرؤية هذه الأعداد الغفيرة من الناس. وخيل إليهم أنهم أصيبوا بالصمم والذهول بفعل الهدير الممل للأرض الزاخرة بالنشاط، وهم الذين كانوا يسمعون أصوات بعضهم وسط عصف الرياح العاتية. وصاح بعضهم: «تعالوا نروح البلاك هورس. البلاك هورس .... نشرب مع بعض حاجة قبل ما نتفرق » ثم عبروا الطريق متشابكين. ولكن بلفاست وتشارلى تخلفا وحدهما.

وعندما وصلت هناك رأيت امرأة ممتلئة. حمراء الوجه. على كتفيها شال رمادي، وشعرها مترب منفوش ترتمى على عنق تشارلى. كانت هذه أمه، وراحت تحدثه بتأثر شديد: آه يا بنى! يا بنى» فرد عليها متوسلا «سيبى رقبتى. سيبى رقبتى يا أمى» «ومررت هناك حينئذ فوجه إلى عبر الرأس الأشعث للمرأة المتأثرة. ابتسامة فكهة. ونظرة ساخرة جريئة ذات مغزى؛ خيل إلىَّ أنها تحدث كل ما لدى من خبرة بالحياة. فأومأت له برأسى ومضيت. ولكنى سمعته يحدثها ثانيا بلهجة طيبة.

«إذا سبتينى دقيقة واحدة حاعطيكى شلن من أجرتى تشربى به».

وفى الخطوات القليلة التالية التقيت ببلفاست فأمسك بذراعى بتوتر وحماس وقال متلعثمًا.

«أنا ماقدرتش أروح معاهم» وأومأ. برأسه جهة جمعنا الصاخب وكانوا يتجولون ببطء على الرصيف المقابل ثم استرسل قائلاً: «لما بافكر فى جيمى.. جيم المسكين. لما بافكر فيه مايجيليش قلب للشرب. وأنت كمان كنت حبيبه.. لكن أنا شديته بره.. مش كدا.؟ وشعره كان قصير.. أيوه.. وأنا اللى سرقت الفطيرة الملعونة عشانه.. ما كانش راضى ينزل.. ماكانش راضى ينزل فى الميه بناء على كلام أى جد وانفجر باكيًا ثم استرسل وهو ينتحب «أنا ماالمستوش. أبدًا أبدًا. ونزل عشان خاطرى.. زى الحمل الوديع».

وخلصت ذراعى منه بلطف. فنوبات بكاء بلفاست كانت عادة تنتهى بمشادة مع شخص ما - ولم أكن تواقًا لتحمل وطأة حزنة البالغ. أضف إلى ذلك أن اثنين

من رجال الشرطة وقفا بجوارنا يرمقانا بنظرة سخط صارمة، فقلت له «وداعًا» ثم رحلت.

ولكنى وقفت عند الناصية لأنظر للمرة الأخيرة إلى بحَّارة «النرجسة» كانوا يتمايلون فى تردد وصخب على حجارة الرصيف أمام دار صك النقود فى طريقهم إلى حانة «بلاك هورس» حيث يقف رجال بطواقى من الفرو. ووجوه بهيمية وقمصان مجردة. يوزعون من براميل لامعة. المشاعر الخادعة بالقوة والمرح والسعادة. وأوهام جمال الحياة وشاعريتها يوزعونها على بحارة السفن المبحرة جنوبًا، بعد صرف أجورهم.

ورأيتهم. على بعد.. يتحدثون بعيون مرحة وإشارات نزقة. وبحر الحياة يدوى فى آذانهم دويًا مستمرًا لا يبالون به. وبدوا وهم يتمايلون هناك فوق الحجارة البيضاء، يحيط بهم الرجال فى عجلة وهرج. كأنهم مخلوقات من فصيلة مغايرة. ضائعة وحيدة لاهية ومقضى عليها - كانوا كفئة من المنبوذين - المبتهجين الطائشين المعتوهين يمرحون وسط العواصف فوق نتوء خطر يمتد من صخرة غادرة.

وكانت ضوضاء المدينة أشبه بهدير أمواج المحيط العالية المنكسرة قوية لا هوادة فيها. لها صوت عال وغرض قاس، ولكن السحب كانت تتفتت عند سمت الرأس. وتدفق على جدران المنازل المتسخة سيل من ضوء الشمس - فتحرك حشد «البحَّارة الداكن جهة الضوء. وكانت أشجار «تاور جاردنز» تتنهد إلى يسارهم، وحجارة البرج تلمع كأنها تدور مع حركة الضوء، كأنما تذكرت فجأة كل مباهج الماضى وأحزانه.

- النماذج الأصلية لهؤلاء الرجال: كتائب التجنيد وصيحات التمرد، ونحيب النسوة بجوار النهر وصيحات الرجال يرحبون بالمنتصرين. وبدت شمس السماء كهبة إلهية أنعم بها على وحل الأرض والحجارة الصماء التى لا تنسى. والجشع والأنانية القلقة لرجال لا يتذكرون.

وظهرت إلى يمين الحشد الداكن لمدة قصيرة الواجهة المتسخة لدار صك

النقود وقد اغتسلت بالضوء الدافق، فبدت بيضاء متألقة كبناء من المرمر فى قصة خرافية.

وأخذ بحَّارة «النرجسة» يزحفون حتى اختفوا عن الأنظار ولم أرهم بعد ذلك ابدًا.. فقد أخذ البحر بعضا منهم، وأخذت البواخر بعضًا آخر، وتسأل مقابر الأرض عمن بقى منهم. ولابد أن سنجلتون قد استقر فى الأعماق الساكنة للبحر المضياف، ومعه سجل حافل بأعماله المخلصة المجيدة. أما دونكن الذى لم يؤد فى حياته عمل يوم واحد بإخلاص، فلابد أنه يكسب عيشه من التحدث بطلاقة وبألفاظ بذيئة عن حق العامل فى الحياة. ولا بأس!، فلتسترد كل من الأرض والبحار من ينتمون لكل منها.

وعندما يرحل زميل بحَّار فإنه. كأى رجل آخر. يرحل إلى الأبد. والواقع أنى لم أر واحدا منهم أبدا للمرة الثانية. ولكن فى بعض الأحيان يفيض نبع الذكريات بقوة إلى النهر المظلم بتعاريجه التسع، وحينئذ تهيم على مياه النهر المهجور سفينة، بل خيال سفينة محملة بخيالات بحارة يمرون ويومئون فى نداء خيالى. ألم نستخلص معًا وعلى أمواج البحر الخالد مغزى من حياتنا الحافلة بالخطايا؟ وداعًا يا إخوانى! لقد كنتم فئة طيبة ـ فئة من خير من قبضوا بصيحات صاخبة على القلوع الخانقة للصارى الأمامى الثقيل، أو تجاوبت هتافاتهم مع عصف الرياح الغربية وهم يترنحون عاليًا غير مرئيين فى الظلام.

مستعمرة للتقدم

مقدمة

تمتاز قصة «مستعمرة للتقدم» An Outpost of progress (١٨٩٦) التى كتبها كونراد فى بدء حياته الأدبية ـ بأنها رغم عدم بلوغها المستوى الفنى الرفيع الذى بلغته قصص جوزيف كونراد فى أوج نجاحه الفنى ـ فإنها تصور المرحلة الأولى لهذا الفن كما تصور اهتمامه منذ البداية كقصصى هادف بالقيم الإنسانية ـ ذلك الاهتمام الذى ظهر جليا فى رواياته وقصصه الطويلة فيما بعد.

والهدف الرئيسى للقصة هو انتقاد اتجاه الدول الاستعمارية نحو إرسال رجالها البيض إلى المستعمرات للاستغلال المادى تحت قناع تحقيق التقدم والمدنية، دون اعتبار لما يترتب على ترك هؤلاء لوطنهم وأهلهم، وانتقالهم لبلاد غريبة عنهم، من تدهور صحى وخلقى يؤدى فى النهاية بهم وبآمالهم وأطماع دولهم المادية.

ويظهر جليًا منهج كونراد القصصى ـ فهو لا يتدخل شخصيًا فى القصة بل يترك ذلك لأشخاص القصة أنفسهم. فيبدأ بوصف دقيق للأشخاص والبيئة ـ ثم ينتقل إلى سرد ما يحدث من وجهة نظر هؤلاء وهم تحت تأثير البيئة التى يعيشون فيها ـ والبيئة لدى كونراد عامل فعَّال مثل الأشخاص تمامًا. فيرقب القارئ مشاهد القصة بعيون الرجلين البيض وماكولا، وعندما يختلفان يرى القارئ ما يحدث بعينى أحدهما ـ كايرتس ثم بعيون كايرتس وماكولا، ونشهد آخر مراحل القصة بعينى مدير الشركة عند وصوله، وبعد وفاة الاثنين.

ومنذ بدء القصة نلحظ أسلوب كونراد الساخر فى وصف الرجلين البيض وآمالهما العريضة، وفى إشارته للمدنية الزائفة، والدعاية المضللة التى تقوم بها.. كما تدخل الطبيعة والبيئة كقوى لها أثر فعال فى حياة الرجلين البيض، أما الحوادث فليست مهمة فى حد ذاتها قدر أهميتها فى تطوير المأساة وإخراجها، والوصول إلى هدف الكاتب: فمثلاً حادثة الخلاف بين الرجلين البيض على قطع السكر القليلة الباقية، لا قيمة لها فى حد ذاتها، ولكنها تبرز بما يترتب عليها من حوادث وتطورات، ما يعانيه الرجلان من كبت وحرمان، وأثر ذلك على أعصابهما وتصرفاتهما وعلاقتهما كزميلين.

وينجح كونراد إلى حد بعيد فى تصوير التدهور الخلقى التدريجى للبيض لبعدهم عن أوطانهم ومجتمعهم، الذى من شأنه أن يقيم أعمالهم، ويعصمهم من التردى فى الخطأ ـ ويستعين كونراد فى ذلك بتصوير تدهورهم الصحى والمعنوى كذلك، وهكذا تبرز سخرية القدر عندما يقضى على الرجلين البيض كليا، وهما اللذان جاءا لتحقيق مكاسب مادية لأنفسهما وللشركة صاحبة الامتياز. وبتصويره لهذه المأساة يحذر كونراد من تكرارها أو بالأحرى يحذر الدول الاستعمارية من تكرار هذا التصرف ثانية ويحملها مسئولية ما حدث لهذين الرجلين اللذين خدعتهما الدعاية الزائفة لأغراض الشركة المادية ـ كما ساعد على تدهورهما سوء إعدادهما منذ البداية فى وطنهما، ولهذا فإن المأساة تحذر أيضًا أمثال هذين الرجلين من التورط مثلهما فى مشروعات استغلالية خارج وطنهم.

ويبدو من وصف كونراد للأشخاص الملونين فى القصة مثل ماكولا وأسرته وعمال الشركة والمحاربين الذين يحضرون لشراء العاج، إنه يعطف على تلك الفئة ويصور بدائيتهم وبساطتهم، ويراهم محقين فى تصرفهم نحو البيض الذين يأتون لاغتصاب بلادهم ومواردهم مع ما بين الجنسين من فوارق شاسعة فى التفكير والتصرف والتربية عامة. وفى هذه القصة بالذات نرى كيف يفضل السود أن يبذلوا القيم المادية فى سبيل القيم الإنسانية فيعطون البيض عاجا كثيرًا ويأخذون رجالاً فى مقابله.

وسنرى فى القصص التالية كيف تطور فن كونراد القصصى حتى بلغ ذروته، وكيف استخدم كونراد هذا الفن فى توكيد القيم الإنسانية والحياة الاشتراكية الصحيحة وفى النهى عن السعى وراء القيم المادية والتضليل المغرض.

ولقد عرف كونراد أواسط أفريقيا، والملايو وغيرها من الأقاليم التى استعمرها البيض لاستغلالها، فى رحلاته كضابط بحرى على السفن التجارية.

وينبغى أن نطرح هنا سؤالاً على من يعرفون البقعة التى اختارها كونراد مسرحًا لقصته - هل جاء تصويره لها ولأهلها مطابقًا، أو حتى قريبًا، للواقع؟ فقد أكد كونراد لأحد نقاده عندما ذكر الأخير أنه يختار لقصصه أماكن نائية عن العالم المألوف، أنه لم يفعل ذلك هربًا من الواقع أو حبًا فى الغرابة لحد ذاتها، ولكن لأنه اقتنع بحق سكان هذه الأماكن فى أن يدافع عنهم ويبرز وجهات نظرهم - واستطرد يقول إن اختياره لهؤلاء الناس وتلك الأماكن فرض عليه تصويرهم بمنتهى الدقة والأمانة حتى يؤمن قراؤه بواقعيتهم وبالتالى بقضاياهم.

وحتى إذا كان هناك بعض القصور فى تصوير كونراد لهذه الأماكن وسكانها فله العذر كأجنبى، والذى يهمنا أنه عالج شئونهم من وجهة نظر مماثلة لوجهة نظرهم: من وجهة نظر فرد من أمة بلادها مغتصبة ومستغلة - إذ أن وطنه الأصلى كما قدمنا هو بولندا، وقد نشأ فيها وهى تحت الحكم الروسى القيصرى، وحرم من أبويه ومازال فتى، إذ ماتا متأثرين بظروف النفى السياسى. ثم أنه كضابط فى البحرية التجارية رأى رؤيا العين، الاستغلال المادى الذى يجرى فى المستعمرات باسم التعمير والتمدين - والذى يروح ضحيته الرجل الأبيض والأسود على السواء.

أما عن أسلوب كونراد فهو غير عادى، إذ المعروف أن كونراد كان بولندى الجنسية ولغته الأولى هى البولندية، والثانية هى الفرنسية، ولم يتعلم الإنجليزية إلا بعد بلوغه الثلاثين من عمره ، وبدأ الكتابة بها فى الثامنة والثلاثين بعد أن سمعها من البحَّارة على السفن التجارية التى كان يعمل عليها، وبعد أن درسها وحده عن رغبة وعزم.

وبذلك جاءت لغته الإنجليزية غير عادية كما قدمنا ـ فهى تجمع صورا ومعان لثلاث لغات معًا، كما أن أسلوبه كان يعتمد على تذوقه السمعى للألفاظ بالإضافة إلى قيمتها المعنوية ـ وذلك ليستعين بها فى خلق الجو المناسب لقصصه.

ولكل هذا كما قدمنا يجد من يترجم كونراد، بدقة وأمانة، صعوبة جمة فى نقل كل ما يرمى إليه الكاتب من معانٍ وأحاسيس ـ هذا بالإضافة إلى أن الكلمات عند نقل معانيها إلى لغة أخرى تفقد قيمتها الصوتية. وبذلك تفقد القصة شيئًا من قوتها التعبيرية.

ولكن مع هذا تبقى القصة بعمقها وتصويرها للطبيعة البشرية وحرصها على تحبيذ كل ما هو إنسانى وهادف فى نشاط المجتمع.

مستعمرة للتقدم

كان اثنان من الرجال البيض يشرفان على المركز التجارى ،وكان كايرتس ـ الرئيس قصير القامة ممتلئًا ـ أما مساعده كارلير ـ فقد كان طويلاً ـ ذا رأس ضخم وجسم عريض يرتكز على زوج من السيقان الطويلة النحيفة. أما الرجل الثالث فى هيئة الإدارة فكان زنجيًا من سيراليون ـ وكان يتخذ لنفسه اسم هنرى برايس. ومع ذلك فقد أطلق عليه الأهالى هناك ـ لسبب غير معروف ـ اسم ماكولا ـ ولازمه هذا الاسم فى كل جولاته فى أنحاء البلدة. وكان يتكلم الإنجليزية والفرنسية بلهجة تغريدية، ويكتب خطًا جميلاً وله إلمام بمسك الدفاتر ـ كما كان يحب عبادة إله الشر من أعماق قلبه ـ وكانت زوجته زنجية من لواندا – ضخمة الجسم عالية الصوت ـ واعتاد أطفالهما الثلاثة أن يتدحرجوا تحت أشعة الشمس أمام باب مسكنه المتواضع ـ الأشبه بالكوخ. وكان ماكولا الصامت الغامض يحتقر الرجلين البيض ـ ويتعهد (مخزنًا) صغيرًا مبنيًا باللبن قد غطى سطحه بالقش ـ وكان يتظاهر بحفظ حسابات دقيقة للخرز والأقمشة القطنية ومناديل اليد الحمراء والأسلاك النحاسية ـ إلى غير ذلك من السلع التجارية التى كان يحويها المخزن ـ ولم يكن على أرض المركز العارية إلى جانب الحانوت وكوخ ماكولا سوى بناء واحد كبير ـ وكان مبنيًا بالبوص بإتقان، تحيط بجوانبه الأربعة شرفة كبيرة، ويتكون من ثلاث حجرات ـ حجرة الجلوس فى الوسط وبها مائدتان بسيطتان وبضعة مقاعد صغيرة وحجرتا نوم للرجال البيض، ولم يكن الأثاث فى كل من الحجرتين يزيد على سرير وناموسية، وتتناثر على الأرض

الخشبية أمتعة الرجلين البيض من علب طعام محفوظة مفتوحة ونصف مستهلكة، وملابس ممزقة وأحذية قديمة وكل ماهو قذر أو مكسور مما يتراكم حول قوم غير منظمين.

وكنت تلمح على بعد من هذه المبانى مسكنًا آخر يعلوه صليب كبير مائل - كان يرقد فيه الرجل الذى عاصر بدء كل هذه المهمة - الرجل الذى كان قد صمم هذا المركز التقدمى وأشرف على إنشائه - وكان قبل رحيله من مسقط رأسه - فنانا فاشلاً - وبعد أن أعياه البحث عن الشهرة وهو يتضور جوعًا - يمم نحو هذا المكان وتوسط له كبار المسئولين، حتى عين أول رئيس لهذا المركز - وشهد ماكولا وفاة الفنان النشيط بالحمى فى هذا البيت بمجرد الانتهاء من بنائه - شهد الوفاة بنفس روح عدم المبالاة التى يردد بها كلماته المألوفة «هذا ماقلته لك!»، ثم عاش بعض الوقت وحده مع عائلته وحساباته، وإله الشر الذى يهيمن على المناطق الاستوائية، وكان على أتم وفاق مع هذا الإله - ولعله كان قد اكتسب رضاه بأن وعده بقرب وصول رجال بيض آخرين يلهو بهم.

وعلى أية حال - عندما وصل مدير الشركة التجارية العظمى، فى باخرة تشبه علبة سردين ضخمة تعلوها مظلة مستوية - وجد أمور المركز على مايرام - ووجد ماكولا كعادته نشيطًا دون ضجة، وأصدر أمره بتثبيت الصليب فوق قبر أول رئيس للمركز - وعين كايرتس خلفًا له فى هذه الوظيفة. أما كارلير فقد عين مساعدا له. وكان المدير رجلاً صارمًا كفءً يغرق أحيانا فى التهكم بمرارة دون أن يلحظه أحد - وقد وجه حديثا لكايرتس وكارلير أبرز لهما فيه ماينتظر مركزهم من مستقبل باهر - إذ كان أقرب مركز منهم على بعد أكثر من ثلاثمائة ميل. وهى فرصة نادرة أمامهم ليمتازوا على غيرهم وليحققوا أرباحًا طائلة من العمولة على مبيعاتهم. كما أكد لهم أن تعيينهم هناك كان خدمة لأمثالهم من المبتدئين. وتأثر كايرتس من طيبة قلب مديره لدرجة أن كادت الدموع تظفر من عينيه، ووعد بأن يبذل قصارى جهده حتى يكون أهلاً لتلك الثقة الغالية.. إلخ.. إلخ. وكان كايرتس يعمل من قبل موظفًا فى هيئة التلغراف، ولهذا فقد كان يجيد التعبير عن آرائه بدقة - أما كارلير الذى كان يعمل ضابطًا بسيطًا مسرحًا من جيش ضمنت

سلامته عدة دول أوروبية، فقد كان أقل تأثرًا عن زميله ـ وكان الأفضل فى نظره لو أن المدير منحهما بعض الأتعاب، ولهذا فقد همس من بين أسنانه فى حنق قائلاً «بكره نشوف» قالها وهو يستعرض، بنظرة استياء، النهر والغابات والأدغال المنيعة التى بدت له كأنها حاجز كثيف يعزل المركز كليًا عن باقى العالم.

وفى اليوم التالى رحلت السفينة الشبيهة بعلبة السردين ـ بعد أن ألقت على البر بضع بالات من البضائع القطنية، وقليلاً من صناديق المؤن، رحلت على ألا تعود قبل مضى ستة أشهر. وحيا المدير الوكيلين على ظهر السفينة بلمس قبعته بيده، بينما وقف هؤلاء على الشاطئ يلوحان بقبعتيهما، ثم قال، وهو يتجه نحو مكتب الرئاسة، محدثا أحد خدم الشركة القدامى: «شوف الاثنين الهبل دول» ـ لازم المسئولين انجنوا لما يبعتوا لنا أمثالهم. أنا أمرتهم يزرعوا خضروات ويعملوا مخازن وأسوار جديدة ويبنوا مرسى للبواخر، وأنا واثق من أنهم مش حايعملوا حاجة بالمرة، لأنهم مايعرفوش يبتدوا، أنا كنت أؤمن دائمًا أن مافيش فايدة من المركز المنشأ على النهر ـ وآهم الرجلين دول زى المركز تمام».

فأجابه العجوز المحنك وهو يبتسم فى سكون: «بكره يكيفوا أنفسهم على ظروفهم هناك» فتمتم المدير «على كل حال أنا تخلصت منهم لمدة ستة شهور».

أما الرجلان فبعد أن وقفا يرقبان الباخرة وهى تجتاز الخليج صعدا معا، بأيد متشابكة، ضفة النهر المنحدرة ـ واتجها نحو المركز.

لم يكن قد مضى على وجودهما فى هذه البلاد الشاسعة المظلمة سوى فترة قصيرة ـ وحتى تلك اللحظة كانا دائمًا فى وسط رجال بيض مثلهما وتحت رقابة وتوجيه رؤسائهما ـ أما الآن ـ وبالرغم من عدم شعورهما بعد بالتأثير الخفى لما حولهما، فقد أحسا بوحدة قاسية إذ تركا فجأة ودون معين، ليواجها الأدغال ـ أدغالاً ـ يزيدها وحشة وغرابة ماينبعث منها من ومضات غامضة للحياة القوية الخبيئة فيها. كانا فردين فى منتهى التفاهة والعجز ـ فردين يستمدان وجودهما من النظم المعقدة للجماهير المتمدينة. وقليل من الناس يدركون الحقيقة وهى أن حياتهم ـ بل جوهر أخلاقهم ـ وقدراتهم وجرأتهم ماهى إلا تعبير عن شعور

إيمانهم بسلامة ماحولهم، وقليل منا من يدرك أن الشجاعة - والثبات - والثقة - بل المشاعر والمبادئ - وكل تفكير عظم شأنه أو قل - مصدرها الجماعة لا الفرد - الجماعة التى تؤمن إيمانًا مطلقًا بسطوة تشريعاتها ومبادئها الخلقية وسيطرة شرطتها والرأى العام بها. أما الاختلاط - بالهمجية البحتة، بالطبيعة البدائية والإنسان البدائى فإنه يولد فى النفس قلقًا مفاجئًا عميقًا وشديدًا - فهناك الشعور بأنك وحيد نوعك - والإحساس القوى بالوحدة فى الآراء والمشاعر - وانتفاء المألوف الذى يوحى بالطمأنينة، زد على هذا كله توكيد غير المألوف الذى ينبئ بالخطر، والشعور بكل ماهو غامض ومستعص ومنفر - وهذا كله يوقظ بتداخله المفزع الخيال - ويثير الأعصاب المرهفة للعاقل والسفيه على السواء.

سار كايرتس وكارلير بذراعين متشابكين، وقد اقترب كل منهما من الآخر كما يفعل الأطفال فى الظلام - وفى نفسيهما شعور مستساغ بالخطر - شعور نتشكك أحيانًا فى أنه مجرد نسج الخيال فنميل لتصديقه. وكانا يتعمدان الحديث بلهجة الأصدقاء - فقال أحدهما «ده موقع مركزنا ممتاز للغاية» وأيده الثانى بحماس مسترسلا فى التغنى بجمال المركز. ثم مرا بجوار المقبرة.. فقال كايرتس: «أما غلبان» فتمتم كارلير وهو يتوقف فجأة «ده مات بالحمى - مش كده»؟ - فأجابه كايرتس باستياء «إيه»؟ أنا سمعت أنه عرض نفسه بهبل للشمس - كلهم بيقولوا أن الجو هنا مش أسوأ منه فى بلادنا طول ما الواحد بعيد عن الشمس، أنت سامعنى ياكارلير؟ أنا الرئيس هنا وأنا آمرك ألا تتعرض للشمس!» وكان يتحدث بلهجة الرئيس مداعبًا - ولكنه كان جادًا فيما يقول - ذلك أن قشعريرة سرت فى جسده عندما خطرت له فكرة أنه قد يضطر يومًا أن يدفن كارلير - ثم يبقى هو وحيدًا - وفجأة تبين له أن كارلير هذا قد أصبح هنا فى أواسط أفريقيا - أعز لديه من الأخ فى أى مكان آخر. أما كارلير فقد اندمج فى الموقف وأجابه بلهجة مقتضبة وهو يؤدى التحية العسكرية.

«سمعًا وطاعة ياسيدى الرئيس» ثم انفجر ضاحكًا - وضرب كايرتس على ظهره ثم قال بصوت عال «إحنا حانسيب الحياة تمشى بسهولة» ماعلينا إلا أن نستريح فى هدوء ونجمع العاج اللى يجيبوه لنا البرابرة دول - والحقيقة أن للبلد

دى مزاياها» ثم ضحك الاثنان عاليًا بينما قال كارلير محدثًا نفسه «كاتريس ده غلبان، سمين وعيان، ياساتر لو اضطريت يوم انى أدفنه هنا ـ أنا احترمه ـ .. «وقبل أن يصلا إلى شرفة منزلهما كان كل منهما ينادى الآخر «يازميلى العزيز»..

وقضيا اليوم الأول فى نشاط تام ـ متنقلين من مكان لآخر بشواكيش ومسامير وقماش أحمر لينصبا الستائر ويجعلا البيت مسكنًا جميلاً ـ ذلك لأنهما كانا قد عقدا العزم على جعل حياتهما الجديدة مستقرة ومريحة، ولكن هذا كان أمرًا مستحيلا بالنسبة لهما ـ فمجرد مواجهة المشاكل المادية البحتة مواجهة فعالة يستلزم قدرًا من الصفاء الذهنى والشجاعة الفائقة أكثر مما يتصوره الناس عادة ـ ولم يخلق اثنان أقل من هذين الرجلين صلاحية لمثل هذا الصراع كان المجتمع قد تبناهما ـ لاعطفًا عليهما، بل نتيجة لطبيعة تكوينه الغريب ـ حتى حظر عليهما كليًا التفكير الحر ـ والابتكار والتحرر من الروتين ـ وبلغ ذلك حدًا يعرضهما للهلاك إذا هما تعدياه. وبذلك لم يعد فى استطاعتهما أن يعيشا إلا كمجرد آلات ـ والآن وقد ابتعدا عن رعاية الإداريين ممن يضعون الأقلام على آذانهم، وغيرهم ممن يرتدون القمصان ذات الأكمام الموشاة بالذهب، فقد أصبحا كسجينين مؤبدين أخلى سبيلهما بعد أن قضيا بضع سنوات فى السجن، لايعرفان كيف يفيدان من حريتهما ـ كانا لايعرفان كيف يستغلان إمكانياتهما إذا كانا عاجزين عن التفكير لعدم ممارستهما له من قبل.

وبعد أن انقضى شهران على وجودهما هناك بدأ كايرتس يردد كلماته «لولا خاطر ميلى لما وجدتنى هنا «كانت ميلى ابنته ـ وكان قد اعتزل عمله فى هيئة التلغرافات، بالرغم من أنه كان قد قضى فيها سبع عشرة سنة سعيدة للغاية ولكى يحصل على دوطة ابنته ـ وكانت زوجته قد توفيت فتولت أخواته تربية الطفلة، وكم أسف على فراق الشوارع والأرصفة والمقاهى، والأصدقاء الذين عرفهم سنوات طويلة. كل ما اعتاد رؤيته يومًا بعد يوم ـ وكل الأفكار المترابطة مع المألوف والأفكار السلسة الرتيبة المريحة ـ التى تجول بخاطر الموظف الحكومى. أسف على الثرثرة والخلافات التافهة، والحقد الخفيف والنوادر الصغيرة التى اعتادها فى المكاتب الحكومية.

أما كارلير فكان يردد قوله «لو كان صهرى راجل طيب. راجل عنده رحمة ماكنتش جيت هنا» كان قد ترك الجيش ثم أثار بغض أسرته له بكسله ووقاحته - لدرجة دفعت صهره بعد أن نفد صبره - لبذل جهود الجبابرة ليحصل له على وظيفة الوكيل الثانى بالشركة، ولما كان فى منتهى الإفلاس فلم يجد بدًا من قبول هذا المورد للرزق، بعد أن تبين له أن معين أقاربه قد نضب. وكان آسفًا مثل كايرتس على حياته السابقة، إذ كان يفتقد صليل السيف والمهماز، فى الأيام المشمسة، ونوادر الثكنات، وفتيات مدن الحاميات، هذا بالإضافة إلى شعوره بالظلم - إذ كان واضحًا أنه قد عانى كثيرًا من سوء المعاملة - وكان هذا يسبب له أزمات نفسية فى بعض الأحيان، ولكن الرجلين انسجما معًا فى حياة الغباء التى يتقاضيان عنها أجرهما. وبعد قليل بدءا يشعران بما يشبه الغرام المتبادل.

وعاشا كالعميان فى قاعة واسعة لايشعران إلا بما يصادفهما، ويشعران به شعورًا منقوصًا، بينما يعجزان عن رؤية المنظر الكلى - كان النهر والغابات وكل الإقليم الذى ينبض بالحياة، تبدو كالفضاء الشاسع - وحتى ضوء الشمس الساطعة لم يكن ينبعث منه مايبدد ماحولهما من غموض، فكانت المرئيات تظهر أمام أعينهم ثم تختفى دون أى ترابط أو هدف.

فالنهر يبدو كأن لانبع له ولا مجرى - كان ينساب فى فراغ، وأحيانًا كانت تصل من هذا الفراغ بعض القوارب - ثم يتجمع فجأة فى ساحة المركز رجال يحملون فى أيديهم حرابًا - كانوا عراة - وأجسامهم سوداء لامعة - ويتحلون بقواقع ناصعة البياض وأسلاك نحاسية متألقة. كانوا مفتولى السواعد، يثرثرون بأصوات فظة، ويتحركون فى وقار، وتنبعث من عيونهم المذعورة القلقة ومضات وحشية خاطفة. وكان هؤلاء الأبطال المحاربون يصطفون أمام الشرفة فى طوابير طويلة، عرضها أربعة رجال أو أكثر، بينما كان قادتهم يقضون ساعات طويلة فى مساومة ماكولا على ثمن ناب فيل. وكان كايرتس يجلس فى مقعده متتبعًا مايحدث دون أن يفقه شيئًا - كان يحملق فيهم بعينيه المستديرتين الزرقاوين ثم ينادى كارلير قائلاً: «تعال بص على الراجل اللى واقف هناك، والثانى اللى واقف على الشمال، عمرك شفت سحنة زى دى؟ أما حيوان مضحك صحيح».

وبعد أن ينظر كارلير إلى الأبطال بغرور وكبرياء، يسير بخيلاء ويبرم شاربه، وقد وضع فى فمه غليونه الخشبى القصير المحشو بالتبغ الوطنى، ثم يرد قائلاً: «حيوانات جميلة - ماجابوش عاج؟» «أيوا. ماهو آن الأوان. شوف عضلات الراجل الثالث من وراء! أرجو ألا يكون نصيبى منه لكمة فى الأنف. ذراعاته مفتولة. لكن رجليه تحت الركبة ماتنفعش فى حاجة، ماينفعوش فرسان. «وبعد أن يلقى نظرة اعتدال على ساقيه أسفل الركبة يختتم حديثه قائلاً: «أف دى ريحتهم نتنة - أنت ياماكولا، خذ الغنم دول بعيد عند المعبد (وكان المخزن فى كل مركز يسمى المعبد - وقد يكون ذلك بسبب روح المدنية التى يحتويها!) ووزع عليهم باقى البضائع اللى عندك - أنا أفضل أشوفه مليان بالعاج بدل الخرز والخرق» وهنا يشاركه كايرتس رأيه فيقول معقبا: «أيوا. أيوا روح كمل الدوشة دى هناك ياسى ماكولا - وأنا حاجى لكم لما تكونوا مستعدين لوزن الناب - لازم نكون واعيين». ثم يستدير لزميله قائلاً: «دول من القبيلة اللى ساكنة جنب النهر - ولهم أطوار غريبة - أنا فاكر أنهم جم هنا قبل كده. أنت سامع الخناق ده؟ ما أكثر ما نتحمله فى البلد اللعينة دى! أنا حاسس بصداع شديد».

ولما كانت هذه الزيارات المريحة نادرة فقد كان رائدا التجارة والتقدم يمضيان أيامًا طويلة ينظران إلى ساحتهم المتوهجة بأشعة الشمس العمودية. بينما ينساب النهر الصامت متألقًا فى اتزان أسفل الضفة العالية، وعلى الرمال التى تتوسط الغدير كانت التماسيح وفرسان البحر ترقد جنبًا إلى جنب، تستمتع بأشعة الشمس. وتمتد فى كل اتجاه حول البقعة التافهة التى أخليت للمركز التجارى، غابات شاسعة، تخفى صراعًا مميتًا لحياة عجيبة، ويحتويها سكون ينبئ بعظمتها الصامتة.

وكان الرجلان لايفهمان شيئًا، ولايهتمان بشىء سوى انقضاء الأيام الباقية على موعد عودة الباخرة. وكان سلفهم قد ترك بعض الكتب الممزقة - فتناولا هذا التراث من القصص، ولما لم يكن لديهما خبرة سابقة فى قراءة مثلها، فقد أدهشتهما وسرت عنهما. وتبعت ذلك أيام طويلة حافلة بمناقشات لانهاية لها عن مغزى القصص وأشخاصها. وهكذا تعرفا - لأول مرة فى مجاهل أفريقيا

بشخصيات ريشليو وأرتانيان وهوكس آى والأب جوريو، وكثيرين غيرهم. وأصبحت كل هذه الشخصيات الخيالية موضوعًا لأحاديثهم كما لو كانت لأصدقاء واقعيين أحياء بالفعل. فكانا ينتقصان من فضائلهم ويتشككان فى نياتهم، ويطمسان نواحى نجاحهم، كانا يتأففان من ريائهم، ولا يثقان فى شجاعتهم. وكان وصف الجرائم يملؤهما غضبًا، بينما كانت الكلمات الرقيقة أو المحزنة تحرك مشاعرهما. وعندئذٍ يتنحنح كارلير ويقول فى صوت الجندى «إيه الكلام الفارغ ده» فيرد عليه كايرتس وهو يحك رأسه الأصلع وعيناه المستديرتان تفيضان بالدموع، وخدوده الممتلئة تهتز «ده كتاب بديع، أنا ماكنتش أتصور أن فى الدنيا ناس عندهم كل الشطارة دى».

وعثرا كذلك على نسخ قديمة لإحدى الجرائد التى تصدر فى بلادهم. وكانت هذه المطبوعات تعالج بأسلوب منمق موضوعًا ارتاحت لتسميته «توسعنا الاستعمارى» . فأسهبت فى الحديث عن حقوق المدنية وواجباتها» . وعن «قدسية العملية التقدمية» وعددت أيادى «أولئك الذين ذهبوا يحملون القبس والعقيدة والتجارة إلى مجاهل العالم المظلمة» وقرأ كارلير وكايرتس كل هذا ودهشا له . ثم تحسنت فكرتهما عن نفسيهما.

وفى مساء يوم قال كارلير وهو يشير بيده إلى ماحوله «يمكن بعد ميت سنة يعملوا هنا مدينة بأرصفة ومحلات تجارية وثكنات . وصالات البلياردو. دى المدنية يابنى، والفضيلة وما إلى ذلك. وفى الوقت ده الشباب حايعرف أن الشخصين الطيبين كايرتس وكارلير كانا أول من عاشا من الرجال المتمدينين فى المكان ده. «فهز كايرتس رأسه موافقًا ثم قال: أيوا يمكن الفكرة دى تصبرنا شوية». وبدا وكأنهما قد نسيا سلفهما الميت. ولكن كارلير . خرج يومًا فى الصباح الباكر وثبت الصليب بحزم فوق القبر، ثم قال لكايرتس وهما يشربان قهوة الصباح «كل ماكنت أشوفه مايل كده كنت أدور وشى منه! وعشان كده أنا عدلته، وأنا أضمن لك أنه مش حايتحرك أبدًا . لأنى قمت بالعملية كما يجب».

وكان جوبيلا يأتى لزيارتهما أحيانًا . كان شيخًا للقرى المجاورة . وكان بربريًا ذا رأس خطها الشيب . أسود اللون هزيلاً . يلف وسطه بثوب أبيض، ويعلق على

ظهره جلد نمر مهلهل. وكان يصعد إليهما وهو يسير على ساقيه الهزيلتين بخطى واسعة، ويدخل حجرة الجلوس بالمركز، ثم يجلس القرفصاء إلى اليسار، ليرقب كايرتس عن كثب، وبين آن وآخر يوجه إليه حديثًا لايفهم منه الثانى شيئًا، ولكنه يقول له من وقت لآخر دون أن يتوقف عن العمل: «كيف حالك.ياموميا ياعجوز؟» ثم يبتسم كل منهما للآخر.

وكان الرجلان البيض يرتاحان لهذا المخلوق العجوز الغامض ويسميانه الأب جوبيلا - وكان هو يعاملهما معاملة أبوية، ويبدو أنه كان بالفعل يحب كل الرجال البيض. كانوا جميعًا فى نظره حديثى السن متشابهى الخلقة (إلا فيما يختص بطول القامة أو قصرها) وكان يعتقد أنهم جميعًا أخوة، وأنهم مخلدون. ولم يؤثر على اعتقاده هذا موت الفنان الذى كان أول رجل أبيض عرفه عن كثب، إذ كان مقتنعًا كل الاقتناع بأن الأجنبى الأبيض قد تصنع الموت، ووارى نفسه الثرى لغرض خفى فى نفسه - غرض لم تكن ثمة جدوى من محاولة معرفته، ومن يدرى؟ فلعلها كانت طريقته الخاصة للعودة لوطنه. وعلى أية حال فهؤلاء أخوته ولهذا فقد نقل حبه العجيب له إليهما. وبادلاه هذا الحب بطريقتهما الخاصة: فكان كارلير يضربه على ظهره، ويشعل الثقاب بتهور لتسليته، أما كايرتس فكان على استعداد دائم للسماح له باستنشاق زجاجة النشادر. وباختصار كانا يتصرفان نحوه بنفس تصرف ذلك المخلوق الأبيض الآخر الذى أخفى نفسه فى حفرة فى الأرض. وكان جوبيلا يطيل النظر إليهما بإمعان محدثًا نفسه «من يدرى؟ فقد يكون لهما أو لأحدهما نفس كيان زميلهما السابق» وكان من العسير عليه أن يقرر شيئًا - أو أن يجلو هذا الغموض ولكنه بقى دائمًا صديقًا لهما. ونتيجة لتلك الصداقة كانت نساء قرية جوبيلا يسرن فى طابور فردى ضيق عبر الأرض المغطاة بالبوص، ويحملن للمركز كل صباح الدجاج والبطاطا والعرقى (خمر النخيل). وأحيانًا يحضرن الماعز. وكان وكلاء الشركة دائمًا بحاجة ماسة لمثل هذه المؤن المحلية - ذلك لأن الشركة لم تكن تزود مراكزها بالمؤن الكافية، وكان يحصلان عليها بفضل مايكنه لهما جوبيلا من حسن النية. وبذلك أصبحت حياتهما ميسرة.

وكانت تعترى أحدهما بين الحين والحين نوبة الحمى فيقوم الآخر بتمريضه بقلب رءوم. ولم يعيرا تلك المحن أهمية كبرى - ولكنها كانت تتركهما أضعف بنية وتحيل مظهرهما من سيئ إلى أسوأ. فأصبح كارلير غائر العينين، سريع الغضب، أما كايرتس فأصبح وجهه المستطيل المترهل الرخو يعلو جسمه الأكرش المنبعج - مما جعل منظره غريبًا - ولكنهما لم يلحظا هذا التحول التدريجى فى هيئتهما وأطوارهما لبقائهما معًا باستمرار.

وانقضت خمسة أشهر على هذا المنوال. وفى صباح يوم بينما كان كايرتس وكارلير مستلقيين فى مقعديهما تحت الشرفة يتحدثان عن اقتراب موعد زيارة الباخرة، إذا بشرذمة من الرجال المسلحين تظهر من الغابة وتتقدم تجاه المركز. كانوا غير سكان هذه المنطقة، وكانوا ذوى قامات طويلة ونحيلة تكسوها من العنق إلى القدم أثواب زرقاء مزركشة، ويحملون على أكتافهم اليمنى العارية بنادق رشاشة. وظهرت على ماكولا علامات الاضطراب فجرى خارج المخزن الذى كان يقضى فيه كل وقته ليستقبل هؤلاء الضيوف. ودخل الرجال ساحة المركز وهم ينظرون حولهم بثبات وازدراء، بينما وقف قائدهم وهو زنجى ذو سطوة وعزم وعيون حمراء بارزة، وقف أمام الشرفة وألقى حديثًا طويلاً، وبعد أن لوح بيديه كثيرا، توقف عن الحديث فجأة.

ودهش الرجلان البيض لنغمة حديثه وللنبرات التى ترددت فى جمله الطويلة، فقد ذكرتهما بشىء ليس بالضبط مألوفًا لهما، ولكنه يشبه كثيرًا لغة رجال متمدينين. كانت زجراته تشبه تلك اللغات الخيالية التى نسمعها أحيانًا فى أحلامنا.

وسأل كارلير فى دهشة«إيه اللغة دى؟ أنا لما سمعته أول مرة خيل لى أنه بيتكلم فرنساوى. وعلى أى حال دى رطنة مختلفة عن كل اللى سمعناه فى حياتنا.

فأجابه كايرتس «أيوا، ياماكولا بيقول إيه الرجل ده، وجم منين؟ وعاوزين إيه؟».

ولكن ماكولا، وكان يبدو قلقًا للغاية، أجابه على عجل «أنا مش عارف - دول جايين من مكان بعيد جدًا. يمكن مسز برايس تقدر تفهم حاجة منهم - جايز يكونوا أشرار».

وبعد أن انتظر قائدهم قليلاً تحدث إلى ماكولا بحدة فهز هذا رأسه بالنفى، ثم نظر القائد حوله ولاحظ ماكولا ويمم نحوه. وفى اللحظة التالية سمعت مسز ماكولا تتحدث بطلاقة تامة - أما باقى الغرباء، وكان عددهم جميعًا ستة، فقد تجولوا فى المكان بارتياح، ثم أطلوا برءوسهم من باب المخزن، وأخيرا تجمعوا بخشوع حول القبر وهم يشيرون بأيديهم إلى الصليب إشارة تدل على أنهم فهموا وعلى العموم تصرف الكل كما لو كانوا فى مكان مألوف.

وعلق كارلير الرزين على الموقف بقوله «أنا مش مستريح للناس دول. وأعتقد ياكايرتس أنهم جاءوا من الساحل، ومعهم أسلحة نارية» ولم يسترح كايرتس هو الآخر لهؤلاء الأشخاص. وهكذا تبين لكل منهما لأول مرة أنهما يعيشان فى ظروف فيها من المفاجآت ما يشكل خطرًا على حياتهما، وأنه ما من قوة على الأرض غير نفسيهما تستطيع أن تحميهما من غير المألوف، وسبب لهما هذا الخاطر شعورًا بالقلق، فدخلا حجرتيهما وحشيا مسدسيهما، ثم قال كايرتس لازم تأمر ماكولا يمشيهم من هنا قبل الليل».

وبعد أن تناول الغرباء وجبة أعدتها لهم مسز ماكولا انصرفوا بعد الظهر. وكانت المرأة الضخمة مضطربة، وتحدثت كثيرًا مع الضيوف بصوت أجش، وإشارات إلى ماحولها نحو الغابة والنهر، أما ماكولا فقد جلس يرقبهما عن بعد، وكان ينهض أحيانًا ليسر ببعض الحديث لزوجته. ثم اصطحب الغرباء فاجتازوا الأخدود خلف ساحة المركز. وعاد ببطء وهو غارق فى التفكير - وعندما استوضحه الرجلان البيض الأمر، بدا كأنه لم يفهم مايقصدان - وكأنه قد نسى الفرنسية، بل كأنه قد نسى الكلام كليًا. ورجح كل من كايرتس وكارلير أن الزنجى قد أفرط فى شرب العرقى، ثم تحدثا قليلاً عن حراسة المكان بالتناوب، ولكن عندما أقبل المساء بدا كل شىء هادئًا ومسالمًا، مما جعلهما يأويان إلى مضجعيهما كالعادة. وقضيا الليل بطوله قلقين بسبب أصوات طبول عديدة منبعثة من القرى المجاورة، فكانت تدوى من قريب موجة قوية من الطبل، تتلوها أخرى أبعد منها، ثم يتوقف الكل، وعقب ذلك تدوى نداءات مقتضبة، ثم تختلط جميعها لتزداد، وتصبح أقوى وأطول مدى. ثم تنتشر فى الغابة مدوية فى ظلام

الليل دون انقطاع أو توقف، قريبًا وبعيدًا، وكأن الأرض قى استحالت بأسرها إلى طبلة ضخمة تبعث للسماء نداءً مدويًا. ومن خلال الصوت الضخم العميق كانت تنبعث صيحات مفاجئة تشبه مقاطع أغنيات المجانين، صيحات قوية وعالية فى موجات صوتية غير منسجمة ـ وكأنها تتدفق عاليًا بعيدًا عن الأرض، وتبدد كل سلم تحت النجوم.

ونام كارلير وكايرتس نومًا مضطربًا ـ وأعتقد كل منهما أنهما سمعا طلقات نارية أثناء الليل، ولكنهما اختلفا فى تحديد اتجاهها، وفى الصباح كان ماكولا قد هب إلى مكان ما، ثم عاد قرب الظهر مصطحبًا واحدًا من ضيوف الأمس. وفوت على كايرتس كل محاولة للانفراد به، حتى أصبح كالأطرش. وعجب كايرتس لذلك ـ ولما عاد كارلير الذى كان يصطاد السمك على الشط قال وهو يعرض على كايرتس ماصاده «يظهر أن الزنوج فى ثورة شيطانية. ياترى ناويين يعملوا إيه؟ أنا شفت حوالى خمسين قارب بتعدى النهر فى الساعتين اللى قضيتهم فى صيد السمك هناك». وجلب هذا القلق فى نفس كايرتس فقال: «ماكولا عجيب جدًا اليوم ـ مش كده»؟ فنصحه كارلير بقوله «اجمع كل رجالنا احتياطى أحسن تستجد متاعب».

(٢)

كان مدير الشركة قد استأجر عشرة رجال لحراسة المركز ـ وكان هؤلاء بعد أن تعاقدوا مع الشركة على خدمتها لمدة ستة أشهر ـ (دون أن تكون لديهم أدنى فكرة عن مدلول الشهر خاصة، وبفكرة محدودة للغاية عن الوقت عامة) كانوا قد خدموا قضية المدنية أكثر من سنتين، ولما كانوا ينتمون إلى قبيلة تقطن منطقة نائية جدا فى أرض الظلام والأحزان، فإنهم لم يحاولوا الهرب لاعتقادهم أنهم لو فعلوا لكان مصيرهم (كغرباء متجولين) القتل على أيدى أهالى البلاد. وكانوا على حق فى اعتقادهم هذا ـ ولهذا فقد عاشوا فى أكواخ من القش على سفح أحد الوديان المغطى بالغاب ـ ويقع خلف مبانى المركز مباشرة. ولم يكونوا سعداء إذ كانوا آسفين على أعيادهم السحرية وأعمال الشعوذة وتضحيات البشر فى

وطنهم الأصلى، حيث كان لهم هم الآخرون آباء وأخوة وأخوات، وقادة يعجبون بهم وسحرة يحترمونهم وأصدقاء يحبونهم، إلى غير ذلك من الروابط التى تعتبر عادة علاقات إنسانية. أضف إلى هذا أن كميات الأرز التى كانت تصرفها الشركة لهم لم تكن تناسبهم لكونها طعامًا غير معروف فى بلادهم، ولم يعتادوا أكله. ونتيجة لذلك كانوا يعانون من المرض والبؤس. ولو أنهم كانوا ينتمون لأية قبيلة غير قبيلتهم لعقدوا العزم على الموت. فليس أسهل على بعض البرابرة من الانتحار، ولتخلصوا بذلك من متاعب الحياة التى كانت تحيرهم. ولكن نظرا لانتمائهم لقبيلة محاربة ذات أسنان حادة، فقد كانوا أكثر صلابة وعزمًا، ولهذا واصلوا العيش، مستسلمين للعلة والبؤس. وكانوا بعد أن هزلت أجسامهم القوية، يعملون قليلاً جدًا، وحاول كل من كارلير وكايرتس أن يعالجوهم باهتمام ومثابرة دون أن يفلحوا فى درء العلة عنهم. واعتادوا أن يصطفوا يوميًا فى طابور الصباح ثم يكلفون بواجبات عدة، مثل جز الحشيش وبناء الأسوار، وقطع الأخشاب، إلى غير ذلك من الأعمال التى لاتستطيع قوة على الأرض أن ترغمهم على أدائها بإخلاص. ولم يكن الرجلان البيض يملكان التحكم الفعلى فيهم إلا بدرجة محدودة جدًا.

وعندما عاد ماكولا بعد الظهر إلى البيت الكبير، وجد كايرتس ينظر إلى ثلاثة أعمدة كثيفة من الدخان تتصاعد فوق الغابات. وسأله كايرتس «إيه ده ياترى؟» فأجاب ماكولا وقد بدا كأنه استرد صوابه «بعض القرى بتتحرق» ثم أضاف باقتضاب «العاج اللى عندنا قليل خالص، إنتاج ضعيف لشهور عديدة، عاوزين كمية أكبر؟ إلناس اللى جم هنا إمبارح تجار من لواندا، وعندهم كميات عاج أكثر مما يقدروا ينقلوه لبلادهم. تحبوا اشترى منهم شوية؟ أناعارف مكانهم» فأجابه كايرتس «بكل تأكيد مين دول؟» فرد ماكولا بعدم اكتراث: أشرار بيحاربوا الناس، ويمسكوا النساء والأطفال - دول ناس أشرار ومعاهم بنادق، والبلد هايجة خالص عاوزين العاج؟ «فقال كايرتس» أيوا «فصمت ماكولا قليلاً ثم تمتم وهو ينظر حوله»: عمالنا مافيش منهم فايدة بالمرة، والمركز بحالة سيئة ياسيدى. والمدير حايحتج على كده لما يرجع، وعشان كده لازم نجيب كمية كبيرة من العاج نسكته

بها» فرد كايرتس بقوله «وأنا مالى؟ الرجالة مش عاوزين يشتغلوا. امتى حاتجيب العاج ده؟» فأجابه ماكولا «حالا يمكن الليلة - سيب لى الشغلة دى - وخليكم مع بعض فى البيت - وياريت تعطوا الرجاله شوية عرقى عشان يرقصوا الليلة ويفرفشوا، وبعدين يشتغلوا كويس بكره. إحنا عندنا خمرة كثيرة وقربت تحمض. فوافقه كايرتس على ذلك. وحمل ماكولا إناءين كبيرين إلى باب كوخه وتركهما هناك حتى المساء، ونظرت مسز ماكولا فى كل منهما ثم تسلمهما الرجال عند الغروب. وعندما أوى كايرتس وكارلير إلى مضجعيهما كانت حريقة كبيرة قد اشتعلت أمام أكواخ العمال، ووصلت إلى أسماعهما صيحاتهم ودقات طبولهم. وكان بعض الرجال من قرية جوبيلا قد انضموا إلى رجال المركز. ونجحت حفلة السمر إلى حد بعيد.

وعند منتصف الليل استيقظ كارلير فجأة على صيحات عالية لأحد الرجال، وتبعها دوى طلقة نارية - طلقة واحدة فقط - وهنا جرى كارلير إلى الخارج، وقابله كايرتس على الشرفة وقد استولى على كل منهما الفزع والدهشة، وبينما كانا يجتازان الساحة ليناديا ماكولا شاهدا أشباحًا تتحرك فى الظلام وصاح واحد منها: «لاتطلق النار أنا برايس»، ثم ظهر ماكولا بالقرب منهما وقال بإلحاح: «ارجعوا أرجوكم ترجعوا - حاتخسروا كل حاجة» فرد كارلير قائلاً: «ولكن هنا ناس غرباء» وأجاب ماكولا «ماتشغلش بالك أنا عارف» ثم قال بصوت منخفض «كل شىء تمام. حاجيب العاج. ماتقولش حاجة أنا فاهم شغلى». وهنا عاد الرجلان البيض على مضض إلى البيت ولكنهما لم يذوقا طعم النوم، وسمعا وقع خطوات وأصوات منخفضة وتأوهات وخيل لهما كأن عددا كبيرا من الرجال قد دخلوا وألقوا بأشياء ثقيلة على الأرض، ثم تشاجروا مدة طويلة، وأخيرًا انصرفوا، وبقى الرجلان فى فراشيهما الجامدين، وهما يحدثان نفسيهما: «ماكولا ده لايقدر بمال». وفى الصباح خرج كارلير والنوم ملء عينيه - وجذب الحبل الموصول للجرس الكبير. كان المعتاد أن يصطف رجال المركز كل صباح بمجرد سماع الجرس - ولكن أحدًا لم يحضر منهم هذا الصباح. وخرج كايرتس وراء زميله وهو يتثاءب وعندما نظر إلى ساحة المركز شاهدا ماكولا يخرج من

كوخه وفى يده وعاء من الصفيح به ماء وصابون (ذلك لأن ماكولا - الزنجى المتمدين - كان يعنى عناية تامة بنظافته الشخصية) ثم ألقى برغوات الصابون بمهارة على كلبه الأصفر الصغير البائس، وأدار وجهه نحو بيت الوكيل وهو يصيح من بعيد «كل الرجال رحلوا فى الليلة الماضية» وسمعه كل منهما بوضوح، ولكن الدهشة جعلتهما يصيحان معًا «إيه؟» ثم حملق كل منهما فى الآخر بدهشة، وقال كايرتس بصوت أجش «لقد أصبحنا معًا فى مركز حرج جدًا» «فتمتم كارلير «ده مش معقول» ورد عليه كايرتس وهو يسير مبتعدًا «أنا رايح أشوف الأكواخ بنفسى» ولما وصل ماكولا إلى البيت وجد كايرتس واقفا وحده «أنا مش قادر أصدق» قالها كايرتس وهو يبكى «احنا اعتنينا بهم كما لو كانوا أولادنا» فقال ماكولا بعد لحظة تردد «هم رحلوا مع رجال الساحل» فصاح كايرتس فيه قائلاً: «أنا لايهمنى رحلوا مع مين البهايم دول ناكرين الجميل» ثم رمق ماكولا بنظرة حادة، وقد تشكك فجأة فى نياته وقال: «أنت تعرف إيه عن الموضوع ده؟ فهز ماكولا كتفيه وقال وهو ينظر إلى الأرض «أعرف إيه؟ أنا أفكر بس. تيجى معاى تشوف العاج اللى أنا جبته هناك؟ دى صفقة عظيمة لم تروا مثلها قبل كده ثم سار متجهًا نحو المخزن، وتبعه كايرتس تلقائيًا وهو يفكر فى أمر هروب الرجال، وقد استحال عليه تصديقه. وأمام باب المعبد رأى ستة أنياب من العاج ممددة على الأرض. وبعد أن استعرض كايرتس المجموعة برضا سأل ماكولا «وأعطيتهم إيه بدلها؟ فأجاب ماكولا «دى مش تجارة بمعنى الكلمة هم جابوا العاج وأعطوه لى - فتركت لهم اختيار ماهم محتاجون له من المركز. دى مجموعة جميلة ولا توجد فى أى مركز ثانى، والتجار دول كانوا فى أشد الحاجة لشيالين - ورجالنا لم تكن لهم أية فائدة هنا. لاتجارة ولا تسجيل ولا حاجة. كله تمام.

وهنا أوشك كايرتس أن ينفجر من الغيظ وصاح فيه آه.. إذًا أنت سلمتهم رجالنا فى مقابل أنياب العاج دى؟ فوقف ماكولا صامتًا فى برود، وعاد كايرتس يتكلم بصعوبة «أنا - أنا - أنا - أنا» ثم صاح فيه «أنت شيطان» فرد ماكولا فى هدوء «ليه بتزعق فى كده؟ أنا عملت كل مافى وسعى علشان صالحك وصالح الشركة. شايف الناب دى؟» «أنا حاطردك من هنا وحاكتب تقرير عنك. أنا مش

عاوز أشوف الأنياب، وأحذرك من أن تمسها. أنا آمرك بإلقائها فى النهر - أنت - أنت!».

فرد عليه ماكولا بلهجة دامغة «أنت ثائر جدًا ياسيدى كايرتس، وإذا كنت حاتثور إلى هذه الدرجة فى الشمس فقد تصاب بالحمى، وتموت زى ماحصل للرئيس السابق».

وهنا وقف الاثنان فى صمت يحدق كل منهما فى الآخر بنظرات حادة، كما لو كانا يحاولان رؤية أشياء من مسافات شاسعة. ثم سرت قشعريرة فى جسم كايرتس، ذلك لأنه بالرغم من أن ماكولا لم يكن يقصد شيئًا أكثر مما نطق به، إلا أن كلامه بدا لكايرتس مليئًا بالتهديد والتشاؤم. ولهذا فقد أدار وجهه وابتعد عنه متجهًا نحو البيت، بينما عاد ماكولا لصدر زوجته الرءوم. وبقيت الأنياب على الأرض أما المخزن وقد بدت فى ضوء الشمس أكبر حجمًا وأغلى ثمنًا.

ولما عاد كارلير إلى الشرفة سأله كايرتس من ركن قصى فى حجرة الجلوس وبصوت مكتوم «هيه؟ هل رحلوا كلهم - ألم تجد أى واحد منهم؟» فرد عليه كارلير بقوله:

«أى نعم، أنا وجدت واحد من أهالى جوبيلا ميتًا أمام الأكواخ، مقتول بالرصاص. إحنا سمعنا الطلقة دى الليلة الماضية».

فخرج كايرتس من الحجرة مسرعا ليجد زميله ينظر أمامه عبر الساحة نحو الأنياب الملقاة بجانب المخزن. وجلس الاثنان ساكتين بعض الوقت. ثم قص كايرتس على كارلير مادار بينه وبين ماكولا، ولم يعلق كارلير على حديثه بكلمة واحدة. وفى الغداء أكلا قليلاً جدًا، ولم يدر بينهما أى حديث فى ذلك اليوم. وبدا لهما كأن سكونًا يخيم على المركز ويلجم لسانيهما.

أما ماكولا فلم يفتح المخزن، بل قضى اليوم يداعب أولاده. وكان يرقد أمام باب الكوخ ممددًا على حصيرة، بينما جلس أولاده على صدره، وتعلقوا به من كل جهة مما جعل منظرهم مؤثرًا. أما مسز ماكولا فكانت كعادتها منهمكة طول اليوم فى طهى الطعام. وفى المساء أقبل الرجلان البيض على طعامهما بشهية أقوى،

وبعد ذلك تمشى كارلير نحو المخزن وهو يدخن غليونه. ثم وقف طويلاً أمام الأنياب العاجية، ولمس واحدًا أو اثنين منهما بقدمه، بل لقد حاول أن يرفع أكبرهما من نهايته الدقيقة. ثم عاد لرئيسه الذى لم يكن قد حرك ساكنا فى الشرفة، وارتمى فى مقعده وهو يقول: «أنا لا أستطيع أتصور اللى حصل. لازم هجموا عليهم وهم غاطسين فى النوم بعد ماشربوا كل العرقى اللى صرحت لماكولا بإعطائه لهم - وهى خطة محكمة كما ترى، والأدهى من ذلك أن بعض أهالى جوبيلا كانوا هناك، وبلا شك اكتسحوهم هم كمان، ولما صحا أخفهم سكرًا ضربوه بالرصاص جزاء صحوته، دى بلاد عجيبة حقًا. ناوى تعمل إيه دلوقتى؟ «فرد كايرتس قائلا؛ «طبعًا مش ممكن ننسه». وسلم كارلير بهذا الرأى قائلاً: «طبعًا لا» ثم قال كايرتس وهو يتلعثم وبصوت متوتر «تجارة العبيد دى شىء فظيع» فتمتم كارلير باقتناع «مريعة.. كلها عذاب».

وكانا صادقين فى أقوالهما: فكل إنسان يدين بالاعتبار والاحترام لأصوات معينة تصدر عنه وعن غيره من الناس. أما المبادئ والمشاعر فالناس فى الواقع لايعلمون عنها شيئًا، فنحن نتحدث باستياء أو بحماس - نتحدث عن الظلم والقسوة والجريمة - عن الولاء والتضحية بالنفس وعن الفضيلة - دون أن ندرك بالفعل أكثر من منطوق هذه الكلمات. ولايمكن لأحد أن يدرك معنى العذاب والتضحية سوى أولئك الذين يقعون فريسة للأغراض المتخفية وراء تلك الأوهام الخداعة.

وفى الصباح التالى شاهدا ماكولا منهمكًا للغاية فى تثبيت ميزان القبانى الكبير الذى يستعمل فى وزن العاج - فى ساحة المركز. وبعد قليل تساءل كارلير «لأية مهمة يستعد النصاب القذر ده؟» ثم سار فى الساحة متكاسلاً، وتبعه كارلير إلى حيث وقفا يرقبان مايحدث دون أن يلحظهما ماكولا. وعندما تعادلت الكفتان حاول أن يرفع نابًا ليضعه فى الميزان ولكنه كان أثقل ممايستطيع رفعه. فرفع عينيه فى عجز دون أن ينبس بكلمة واحدة. ولبث ثلاثتهم برهة واقفين حول هذا الميزان «امسك الناحية الثانية بيدك ياماكولا يابهيم». «واشترك الاثنان فى رفع الناب إلى أعلى. أما كايرتس فكانت جميع أطرافه ترتعد، وتمتم بحنق «أنت....

آه أنت يا» - ووضع يده فى جيبه حيث وجد قصاصة ورق قذرة وبقية قلم رصاص، ثم أدار ظهره للآخرين، كما لو كان يستعد لخدعة، ودون بخفة الأوزان التى نادى بها كارلير بصوت مرتفع لاداعى له. ولما انتهى كل شىء قال ماكولا محدثًا نفسه: «الشمس هنا حامية قوى على الأنياب» وقال كارلير لكايرتس بلهجة غير المكترث «ياسيدى الرئيس - أظن الأفضل أساعده بالمرة فى نقل الكمية الباقية للمخزن» وعندما سارا عائدين إلى البيت علق كايرتس وهو يتنهد «كان لازم ننقلها» فرد عليه كارلير قائلاً: «أمر يؤسف له، ولكن إذا كان الرجال رجال الشركة فالعاج عاج الشركة ولازم نحافظ عليه». وقال كايرتس أنا حاكتب بالطبع تقرير عن كل ده للمدير ووافقه كارلير قائلا: «طبعًا، سيبه هو يتصرف».

وعند الظهر تناولا غداء شهيًا - وكان كايرتس يتنهد من وقت لآخر، وكلما ذكر اسم ماكولا أضافا إليه دائمًا نعتًا مشينًا. فقد كان هذا يجلب لهما راحة الضمير.

أما ماكولا فقد منح نفسه عطلة نصف يوم. استحم فيها مع أولاده فى النهر، ولم يقترب من المركز فى ذلك اليوم أحد من رجال جوبيلا، كما لم يحضر أحد منهم فى اليوم التالى ولا اليوم الذى بعده ولاحتى طوال الأسبوع. وكان تغيب أتباع جوبيلا كفيلاً بأن يوحى بأنهم قد ماتوا ودفنوا. ولكنهم كانوا فى الواقع فى حداد على من فقدوا من رجالهم بسبب شعوذة الرجال البيض الذين جلبوا هؤلاء الأشرار إلى بلادهم. وبالرغم من أن الأشرار قد رحلوا، إلا أنهم خلفوا وراءهم الخوف. فالخوف يبقى دائمًا - إذ قد يستطيع المرء أن يتغلب على كل انفعالاته الداخلية من حب ومقت واعتقاد - وحتى الشك - ولكن طالما بقى على تشبثه بالحياة فإنه يعجز عن القضاء على الخوف - والخوف هو ذلك الشعور الخفى بالرعب - الشعور الذى لايفنى - الذى يسرى فى كيان المرء ويصبغ أفكاره، ويكمن فى أعماق نفسه ويرقب صراع الاحتضار على شفتيه.

ودفع الخوف العجوز جوبيلا الطيب القلب، إلى تقديم المزيد من الضحايا البشرية التى اعتاد تقديمها لكل الأرواح الشريرة التى تقمصت أصدقاءه. البيض وكان قلبه مثقلا بالهموم - فقد تحدث بعض محاربيه عن إشعال الحرائق

والاغتيال، ولكن البربرى العجوز أثناهم بحرص عن نياتهم. فمن ذا الذى يمكنه أن يتنبأ بما قد تجلبه هذه المخلوقات الغريبة من الأهوال إذا أثير غضبها؟ ولهذا فالأفضل تركهم وشأنهم، وقد يحين الوقت ليختفيا فى باطن الأرض كما فعل أول واحد منهم. لهذا وجب على رجاله أن يبقوا بعيدًا عنهم وينتظروا الفرج.

ولكن كايرتس وكارلير لم يختفيا، بل بقيا على ظهر الأرض التى بدت لهما لسبب ما - أوسع رقعة وأكثر فراغا من ذى قبل. ولم تكن وحشة المركز وصمته الرهيب هما اللذان أثرا على مشاعرهما، وأوجبا لهما بذلك الشعور الغامض بأن شيئًا فى داخلية نفسيهما قد فقد، شىء كان يهيئ لهما الأمان، ويحول دون توغل الغابة فى قلوبهما، وتأثيرها على مشاعرهما. كانت صور الوطن، وذكريات أمثالهم من الناس - من الرجال الذين يفكرون ويشعرون كما اعتادا أن يفكرا ويشعرا من قبل - كانت تلك الصور والذكريات قد ارتدت فى مخيلتهم بفعل الشمس المتوهجة - إلى أغوار يصعب سبرها.

وبدا لهما كأنما قد انبعث من السكون الشامل للغابة المحيطة بهما قنوطها وبربريتها - ليقتربا منهما شيئًا فشيئًا، ويجذباهما بلين، ويطلا عليهما - بل ويحتوياهما بإلحاح لايقاوم، إلحاح ألفاه حتى أصبح يثير اشمئزازهما.

وامتدت الأيام إلى أسابيع ثم إلى شهور. وكان رجال جوبيلا كعادتهم منذ القدم يدقون الطبول ويهتفون كلما أشرف عليهم هلال جديد، ولكنهم امتنعوا عن الاقتراب من المركز. وحاول ماكولا وكارلير أن يجريا اتصالات معهم فى أحد القوارب، ولكنهما استقبلا بوابل من الأسهم، واضطرا للفرار عائدين إلى المركز حرصًا على حياتهما وأثارت هذه المحاولة فى القرى، شمال النهر وجنوبه هرجًا سمعاه بجلاء لبضعة أيام.

وتأخرت الباخرة عن موعد وصولها، وكانا فى أول الأمر يتحدثان عن هذا التأخير باستخفاف، ثم تطور هذا إلى قلق، ثم إلى كآبة - كان الأمر يزداد خطورة يومًا بعد يوم، وكانت المؤن المختزنة تتناقص. وألقى كارلير بشباكه فى النهر يوما، ولكن الماء كان ضحلا مما جعل السمك يبقى بعيدًا فى الجدول. ولم تكن لديهم الجرأة على السير بعيدًا عن المركز لغرض الصيد - هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن

بالغابة المنيعة مايمكن صيده. وذات يوم أطلق كارلير النار على فرس بحر فى النهر، ولكنه غرق إذ لم يكن لديهم مركب يحتفظون به فيها. ولما طفا جرفه التيار بعيدًا حيث تمكن رجال جوبيلا من الاستيلاء على جثته. فاحتفلوا بالحادث كعيد قومى. بينما استولى الغضب على كارلير يومئذ، وتحدث عن ضرورة القضاء على كل الزنوج قضاءً مبرمًا حتى تصبح البلاد صالحة للسكنى.

وكان كايرتس يتجول فى المكان فى صمت، وقضى ساعات طويلة ينظر إلى صورة ابنته ميلى. كانت فتاة صغيرة لها ضفائر طويلة مبيضة، ووجه فظ نوعًا. وكانت سيقانه قد تورمت بدرجة جعلته يمشى بصعوبة. أما كارلير فبعد أن هدت الحمى كيانه، لم يعد يقوى على السير بخيلاء كما كان يفعل من قبل، ولكنه كان يتمايل حوله مع الاحتفاظ بنظرته غير المكترثة، والتى كانت تناسبه، كرجل يذكر كتيبته المنحلة. وكان قد أصبح ذا صوت أجش منهك يميل للتفوه بأقوال مبتذلة، وكان يسمى لهجته هذه «أنا أصلى صريح معاك» وكان قد انقضى وقت طويل منذ حسبا عمولاتهما فى التجارة بما فيها تلك الصفقة الأخيرة التى عقدها هذا المجرم ماكولا. وكانا قد انتهيا إلى قرار بألا يذكرا عنها شيئًا. وكان كايرتس قد تردد فى بادئ الأمر إذ كان يخشى المدير، ولكن كارلير دافع بضحكة جوفاء قائلاً: «المدير شاف جرائم أفظع من دى ترتكب بدون مايحس بها أحد. وتأكد أنه مش حايشكرك على كلامك، فليس المدير أفضل منى ولا منك. ثم مين اللى حايتكلم لو سكتنا إحنا. مافيش حد غيرنا هنا».

وكان هذا أساس المأساة. لم يكن معهما أحد هناك. ولكونهما يعيشان وحدهما، مع مابهما من نواحى ضعف، فقد تطورا يوميا حتى أصبحا أقرب إلى شريكين فى الجرم منهما إلى صديقين مخلصين. وكانا قد حرما من أخبار وطنهما لأكثر من ثمانية أشهر وفي كل مساء كانا يرددان «سنرى الباخرة باكر» ولكن إحدى بواخر الشركة كانت قد غرقت، وكان المدير مشغولا مع الباخرة الأخرى بإسعاف المراكز الأبعد والأكثر أهمية على مجرى النهر الرئيسى، ذلك لأنه كان يعتقد أن المركز لعديم الفائدة والوكلاء غير المنتجين يمكنهم أن ينتظروا.

وخلال تلك الفترة كان كايرتس وكارلير يعيشان على الأرز المسلوق بدون ملح - ويلعنان الشركة وأفريقيا بأسرها - واليوم الذى خرجا فيه إلى الحياة. ولابد لنا نحن أن نعيش فعلا على مثل هذا الغذاء لنتبين إلى أى حد يمكن أن تتحول عملية بلع الطعام إلى مهمة مقيتة. ولم يكن بالمركز أى مؤن - بالتحديد سوى الأرز والبن - وكانا إلى جانب ذلك يشربان القهوة بدون سكر، ذلك لأن كايرتس كان قد احتجز رسميًا فى صندوق خاص قطع السكر الخمسة عشر الأخيرة، ونصف زجاجة كونياك، «احتياطى لحالات المرض» (كما قال تبريرا لتصرفه). ووافقه كارلير على ذلك قائلا: «إذا عيى واحد منا بأى مرض فالقليل من الكماليات دى يرفع روحه المعنوية».

وطال انتظارهما - وبدأت الأعشاب الفطرية الغزيرة تغطى الفناء، وانقطع صوت الجرس كليًا - ومرت الأيام صامتة، ومخيفة، وكلما كان الرجلان يتحدثان كانا يعبران عن استيائهما، أما فترات الصمت فكانت محيرة إذ اصطبغت بمرارة خواطرهما.

وفى ذات يوم، بعد أن تناولا غذاء من الأرز المسلوق - أعاد كارلير قدحه دون أن يذوقه ثم قال: «لعنة الله على كل شىء. أنا عاوز أشرب فنجال قهوة مظبوط ولو مرة طلع السكر ياكايرتس».

فتمتم كايرتس دون أن يرفع رأسه «للمرض» فرد عليه كارلير بتهكم «للمرض! ده كلام فارغ! أنا مريض». فقال كايرتس بلهجة مسالمة: «أنت حالتك مش أوحش منى، ومع ذلك فأنا أعيش من غير سكر» «تعال هنا - طلع السكر - أنت يابياع العبيد ياعجوز يانتن»، فنظر كايرتس إلى أعلى ليجد كارلير يبتسم بوقاحة سافرة. وفجأة خيل لكايرتس أنه لم يسبق له رؤية هذا الشخص بالمرة. من عساه يكون؟ لم يكن يعلم عنه شيئًا - ما هو مدى احتماله؟

واعترته نوبة مفاجئة من الاضطرابات العنيفة كأنما وجد نفسه يواجه موقفًا لم يخطر له على بال - موقفًا خطرًا وحاسمًا - ولكنه تمالك نفسه ونطق بهدوء: «دى نكتة سمجة خالص ماتقولهاش تانى». «نكتة؟» رد كارلير وهو يميل إلى الأمام بمقعده «أنا جعان أنا - أنا عيان. أنا مش باهزر. يا.. أنا.. أنا أكره

المنافقين. وأنت منافق ـ أنت بياع عبيد، وأنا بياع عبيد، ومافيش فى البلاد اللعينة دى غير بياعين عبيد. أنا مصمم النهارده على شرب قهوتى بسكر.. بأية وسيلة..».

فرد عليه كايرتس وهو يتظاهر بالحزم «أنا أحذرك من الكلام معى باللهجة دى فصاح كارلير وهو يقفز واقفًا: «أنت إيه حيثيتك؟» وهنا وقف كايرتس هو الآخر وهو يحاول التغلب على التوتر الذى اعترى صوته: «أنا رئيسك» فهتف الآخر «إيه يعنى الرئيس؟ مافيش هنا رئيس. مافيش هنا أى شىء، مافيش هنا شىء إلا أنا وأنت ـ هات السكر أنت يا حمار يأبو كرش زى الحلة». فصاح فيه كايرتس «اخرج من هنا ـ أنا فصلتك من هنا ـ يانصاب».

وهنا دفع كارلير بأحد الكراسى وفى لمح البصر ظهرت على ملامحه جدية خطيرة وهو يقول: «أنت يامدنى يا (مترهل)، ياعديم النفع ـ خذ» فارتمى كايرتس تحت المائدة، وأصاب الكرسى حائط الحجرة الداخلى المصنوع من القش. وبينما كان كارلير يحاول قلب المائدة اندفع كايرتس اندفاعة عمياء فى يأس ورأسه إلى الأمام كأنه خنزير ضيق عليه الخناق ـ وبعد أن قلب زميله ظهرًا على عقب، فر عبر الشرفة إلى غرفته ـ ثم أقفل الباب بالمفتاح، واختطف مسدسه ووقف يلهث. وفى أسرع من لمح البصر كان كارلير يضرب الباب بقدمه وهو يصيح.

«إذا ماجبتش السكر أنا حاضربك بالرصاص زى الكلب أول ما تظهر دلوقتى واحد ـ اثنين ـ ثلاثة مش عاوز؟».

إذًا حاوريك مين فينا السيد».

وخيل لكايرتس أن الباب على وشك التصدع فزحف من خلال الطاقة المربعة التى كانت تستعمل نافذة لحجرته. وبذلك أصبحت المسافة بينه وبين كارلير عبارة عن عرض المنزل كاملاً. ولكن يظهر أن الثانى لم يكن بالقوة التى تمكنه من اقتحام الباب، وسمعه كايرتس يجرى حول البيت، وهنا بدأ هو الآخر يجرى على سيقانه المتورمة بجهد شاق ـ وكان يجرى بأقصى ما يستطيع من سرعة، وقد قبض على المسدس ـ دون أن يستطيع حتى ذلك الوقت أن يفهم ما يحدث له.

ورأى على التوالى بيت ماكولا ثم المخزن ثم النهر ثم الوادى ثم الأدغال المنخفضة، ثم رأى هذا كله ثانية عندما جرى للمرة الثانية حول البيت ثم مر عليها بسرعة البرق للمرة الثالثة. ولو أنه حاول فى صباح ذلك اليوم أن يسير مسافة ياردة واحدة دون أن يتأوه لما استطاع. أما الآن فكان يجرى - كان يجرى بكل ما يلزم من سرعة ليبقى بعيدًا عن أنظار الرجل الآخر.

وبينما هو يحدث نفسه، وقد بلغ منه الضعف واليأس أقصى درجة: «أنا حاموت قبل ما أتم الدورة الجاية». إذ سمع الرجل الآخر يتعثر بشدة ثم يتوقف - وتوقف هو بالمثل كانا فى نفس موقفيهما عندما بدءا: هو خلف البيت وكارلير عند المدخل. وسمعه يتهالك على مقعد وهو يسب، فجأة استسلمت ساقاه وانحدر إلى الأرض جالسًا وقد أسند ظهره إلى الحائط. وكان حلقه جافًا كالرماد، ووجهه مبللاً بالعرق والدموع.. «ولم حدث كل هذا؟» وخيل إليه إن كل ما حدث لابد أن يكون وهمًا مخيفًا. ثم ظن نفسه فى حلم. وأخيرًا فكر أنه على وشك الجنون، وبعد قليل استرد صوابه، «علام تشاجر كل منهما؟ هذا السكر؟ يا للسخافة - أنه مستعد لإعطائه له - ولا يريده هو لنفسه». وهنا بدأ يزحف محاولاً الوقوف وقد شعر بالاطمئنان فجأة. ولكنه ما كاد يعتدل فى وقفته حتى خطرت له فكرة راجحة أعادت اليأس إلى نفسه من جديد، ذلك أنه قال محدثًا نفسه: «إذا أنا تساهلت دلوقتى مع الجندى المتوحش ده حايكرر أعماله المخيفة دى بكرة وبعده. وحايدعى على أشياء جديدة ويهين كرامتى ويعذبنى ويعملنى عبد له ويخلص على. ويمكن تتأخر الباخرة كم يوم ويمكن ما توصلش بالمرة». وارتعد جسده حتى اضطر للجلوس على الأرض ثانية. كان يرتجف فى بؤس وحسرة كمن لا يستطيع، بل من لا يريد أن يتحرك ثانيًا - لقد جن جنونه تمامًا عندما اتضح له فجأة أنه فى مأزق لا مفر منه، وأن الموت والحياة قد تساويا فى لمح البصر - صعوبة ورعبًا.

وفجأة سمع الثانى يدفع بمقعده إلى الخلف، فهب واقفًا بمنتهى السهولة وأصغى وقد اختلط عليه الأمر: «هل يضطر للجرى ثانيًا؟ ولليمين أم لليسار؟ وهنا سمع وقع أقدام فانطلق يعدو إلى اليسار وهو يقبض على مسدسه، وفى

نفس اللحظة، كما خيل إليه، اصطدما ببعضهما بعنف، وصاحا معًا فى دهشة - ثم حدث انفجار مدو بينهما، طلقة نارية جمراء ودخان كثيف - واندفع كايرتس للخلف وقد أصيب بالصم والعمى وقال محدثًا نفسه: «الطلقة أصابتنى وكل شىء انتهى». وكان يتوقع أن يقترب غريمه منه ليتشفى فيه وهو يحتضر. فقبض على أعمدة السطح قائلا: «كل شىء انتهى» ثم سمع على الجانب الآخر للمنزل صوت سقطة قاتلة، كأن شخصًا قد انقلب على أم رأسه فوق أحد المقاعد - ثم ساد سكون شامل.

ولم يحدث شىء آخر، ولم يدركه الموت. ولكنه شعر كأن كتفه قد جزع بعنف. وكان قد فقد مسدسه فلبث ينتظر مصيره، وقد أصبح عاجزًا أعزل. أما غريمه فلم يصدر منه أى صوت. لابد أنها خدعة مدبرة. ولابد أنه يتربص له الآن - ولكن من أى جانب؟ لعله فى تلك اللحظة يصوب مسدسه نحوه. وبعد أن عانى بضع دقائق من عذاب مريع غير معقول، قرر أن يذهب حينما قدر له، وكان مستعدًا لكل ضروب الاستسلام، ودار حول ركن المنزل وهو يستند بإحدى يديه على الحائط، وخطا بضع خطوات ثم أوشك أن يغمى عليه. وكان قد أبصر على الأرض، بعد الركن الثانى، قدمين ممدوتين، وقد اتجهتا إلى أعلى، قدمين بيض عرى فى نعلين حمر - وشعر باشمئزاز مميت، ووقف لحظة فى ظلام مطبق. ثم ظهر ماكولا أمامه وهو يقول فى هدوء: «تعال هنا يامستر كايرتس - هو مات خلاص» وهنا انهمرت دموعه بالامتنان، واسترسل فى نوبة بكاء ونحيب، وبعد قليل وجد نفسه جالسًا على مقعد وهو ينظر إلى كارلير الذى كان يرقد ممددًا على ظهره، بينما جثا ماكولا بجانب الجثة، وسأله ماكولا وهو ينهض واقفًا: «ده مسدسك؟»

ورد كايرتس بالإيجاب ثم أضاف بمنتهى السرعة: وهو اللى جرى ورايا عشان يضربنى بالرصاص أنت شفته بنفسك».

فأجاب ماكولا : أيوا شفت ... هنا مسدس واحد - فين مسدسه؟»

فهمس كايرتس وقد خفت صوته للغاية فجأة «مش عارف».

فقال الآخر بلطف: «حاروح أدور عليه» وسار بحزاء الشرفة بينما جلس كايرتس ينظر إلى الجثة فى سكون. ثم عاد ماكولا خال الوفاض. واستغرق فى تفكير عميق، ثم خطا داخل حجرة الميت بهدوء وخرج مباشرة ومعه مسدس رفعه أمام كايرتس. وهنا أغمض الأخير عينيه. وكان كل شىء يدور أمامه، ووجد الحياة أكثر هولاً وتعقيدًا من الموت - فقد اتضح له أنه أطلق النار على رجل أعزل.

وبعد أن فكر ماكولا بعض الوقت قال بهدوء وهو يشير بيده إلى الرجل الميت الذى كان يرقد هناك وقد طارت عينه اليمنى «ده مات بالحمى» فحملق فيه كايرتس بنظرة ثاقبة، فردد ماكولا قوله ثانيًا، وهو يخطو فوق الجثة «نعم - أظن أنه مات بالحمى، ادفنه بكره».

ثم قفل عائدًا ببطء إلى زوجته التى كانت فى انتظاره، تاركا الرجلين البيض على الشرفة وحدهما. وأقبل الليل على كايرتس وهو جالس في مقعده دون حراك. كان يجلس هادئًا كأنما قد تعاطى جرعة من الأفيون. كان عنف المشاعر التى تعرض لها قد خلف لديه ذلك الشعور بالهدوء بعد الإجهاد. كان قد سبر فى أمسية قصيرة واحدة أغوار الهول، واليأس، وأخيرًا وجد راحة البال فى اعتقاده بأن الحياة قد كشفت له عن كل أسرارها، وكذلك الحال بالنسبة للموت، وجلس بجانب الجثة يفكر بنشاط، وكانت أفكاره مبتكرة جدًا، وخيل إليه أنه قد تحرر كليًا من نفسه، أما أفكاره، واعتقاداته وكل من كان يقدرهم أو يمقتهم - فقد ظهرت جميعًا على حقيقتها أخيرًا، ظهرت مزرية وصبيانية، زائفة مثيرة للسخرية.

وابتهج لتلك الحكمة التى أشرقت عليه فجأة وهو يجلس بجوار الرجل الذى اغتاله، وجادل نفسه فى كل ما تحت الشمس من أمور بذلك البله الذى يلاحظ أحيانا لدى بعض المعتوهين، وخطر له فى تفكيره أن زميله الميت كان حيوانًا مقيتًا على أية حال: وأن الناس يموتون يوميًا بالآلاف. وربما بمئات الآلاف، ومن ذا الذى يستطيع أن يحكم؟ إن ميتة واحدة بالنسبة لهذا العدد الكبير. كقطرة فى

محيط ـ لا أثر لها بالمرة ولا أهمية لها على الأقل فى نظر شخص مفكر، فهو كايرتس كان شخصًا مفكرًا ـ كان طوال حياته حتى تلك اللحظة يؤمن بكثير من السخافات ـ كما يفعل غيره من البشر، وكلهم أغبياء. أما الآن فقد أصبح يفكر، ويفهم ويشعر بالطمأنينة.

وأصبح ذا دراية تامة بأرقى درجات الحكمة ثم حاول أن يتصور نفسه ميتًا، وكارلير جالسا فى مقعده يرقبه. ونجح فى تلك المحاولة لدرجة أنه لم يستطع بعد دقائق قليلة أن يجزم من منهم الميت، ومن الحى. وهاله ذلك النجاح المنقطع النظير الذى أحرزه بخياله، ثم استطاع فى الوقت المناسب، بقليل من الجهد العقلى، أن ينقذ نفسه من أن يتصور شخص كارلير. وخفق قلبه وشعر بارتفاع فى درجة الحرارة عندما بدر له هذا الخاطر ـ «كارلير ياله من وحش». وحاول أن يصفر قليلاً ليهدئ أعصابه ـ ولا عجب ـ ثم غلبه النوم فجأة وخيل إليه أنه قد نام. ولكنه على أية حال شعر بضباب وسمع صفيرًا فى هذا الضباب.

وانتصب واقفًا ـ لقد طلع النهار، وعلا الأرض ضباب كثيف، ضباب ينفذ إلى كل شىء ويحتويه فى صمت ـ ضباب الصباح فى المناطق الاستوائية، الضباب الذى يتشبث بالمرء فيقتله، الضباب الأبيض المميت، الرائق السام.

وهب واقفًا فوقعت عيناه على الجثة، ثم أحاط رأسه بذراعيه وهو يصيح صيحة من استيقظ من غفوة وليجد نفسه سجينًا فى قبر إلى الأبد «النجدة.. ياإلهى!».

وعلت صيحة غير بشرية، مدوية ومفاجئة، لتخترق كالسهم المارق، الكفن الأبيض الذى يحتوى أرض الأحزان هذه، وتبعتها ثلاث صيحات قصيرة قلقة ـ ثم مرت فترة تتابعت فيها تجمعات الضباب فى هدوء، خلال صمت شامل. ثم دوت صيحات عديدة أخرى، سريعة ونفاذة، كأنها عويل مخلوق يعانى من الكبت والقسوة.

كان التقدم ينادى كايرتس من النهر ـ التقدم والحضارة وكل الفضائل، كان المجتمع ينادى وليده أن يأتى ليعنى به ويعلمه ويدلله ويحكم عليه ـ كان يناديه

ليعود إلى تلك الكومة من القاذورات التى كان قد ارتد بعيدًا عنها، يعود لتأخذ العدالة مجراها.

وسمع كايرتس تلك الصيحات وفهم مغزاها، فخرج وهو يتعثر إلى الشرفة، تاركًا الرجل الثانى وحيدًا تمامًا لأول مرة منذ أن زجوا بهما معًا هناك. وتحسس طريقه فى الضباب وهو يبتهل فى غباء إلى السماء أن تبطل ماحدث. ومرق ماكولا خلال الضباب، وصاح وهو يعدو «الباخرة. الرؤية متعذرة عليهم. آهم بيصفروا للمركز ـ أنا رايح أدق الجرس. انزل ياسيدى للمرسى وحادق أنا الجرس!» واختفى بينما وقف كايرتس ساكنًا، ثم نظر إلى أعلى ليرى الضباب يتحرك فوق رأسه، ونظر حوله كمن ضل الطريق، ثم أبصر دخانًا داكنًا ـ بقعة على شكل صليب تعلو الضباب النقى المتحرك.

وعندما بدأ يسير متعثرًا نحوها، دق جرس المركز برنين عال ردًا على صخب الباخرة.

وكان أول مَنْ نزل من الباخرة المدير الإدارى للشركة الحضارية الكبرى ٠إذ من المعروف أن الحضارة تتبع التجارة حيثما وجدت). وابتعد فورًا عن الباخرة حتى لم يعد يراها ـ ذلك لأن الضباب ـ الذى كان يعلو النهر كان كثيفا فوق العادة وكان الجرس يدق فى المركز بشدة ودون انقطاع.

وصاح المدير بصوت عال محدثًا الباخرة «لايوجد هنا أحد فى استقبالنا ـ يمكن جرالهم حاجة، ولو أنهم بيدقوا الجرس، الأفضل تيجوا أنتم معى». ثم بدأ يصعد ضفة النهر المنحدرة، وتبعه القبطان وقائد قاطرة المركب، وبينما كانا يزحفان إلى أعلى كانت كثافة الضباب تتناقص حتى استطاعا أن يريا مديرهما على بعد ـ وفجأة شاهداه يتحرك إلى الأمام، وينادى من أعلى كتفه «اجروا اجروا للبيت! أنا وجدت واحدًا منهم. اجروا وابحثوا عن الثانى».

كان قد وجد أحدهما.. وحتى هذا الرجل بخبرته العجيبة المتنوعة، فقد اتزانه بعض الشىء للكيفية التى وجده بها. فقد وقف يبحث فى جيوبه عن سكين، بينما كان وجهًا لوجه أمام كايرتس الذى كان مشنوقا بسير من الجلد

يتدلى من الصليب. ويبدو أنه تسلق المقبرة - وكانت مرتفعة وضيقة - وبعد أن ربط نهاية السير فى ذراع المقبرة ألقى بنفسه فى الهواء - وكانت أصابع قدميه على بعد بضع بوصات من الأرض، بينما تدلى ذراعاه المتصلبان إلى أسفل، فبدا كأنه قد انتصب واقفًا فى حركة انتباه، وأسند خدًا أرجوانيًا على كتفه وأخرج لسانه المتورم، مجردًا من الاحترام، لمديره الإدارى.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. maktabetelosra.. org
E - mail : info @egyptianbook.org

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٧٨٣ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 9783 - 1



إن القراءة كانت ولاتزال وسوف تبقى، سيدة مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة .. وعلى الرغم من ظهور مصادر حديثة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها القوية للقراءة، فإننى مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب الأمثل للتعلُم، فهى وعاء القيم وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.

سوزان مبارك

مهرجان القراءة للجميع
الطفل - الشباب - الأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

الثمن ١٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب